



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

- + *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.
- + *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.
- + *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.
- + *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at <http://books.google.com/>

Princeton University Library



32101 076413325

سر النجاج



الفصل الأول

في الاعتماد على النفس



قال يوحنا سِنُورْت مِلْ . قبة المملكة تتوقف على قبة افرادها
وقال دزرائيلي . اننا نتمد على الشرائع أكثر مما يجب وعلى الانسان
أقل مما يجب



اعتماد الانسان على نفسه اصل لكل نجاج حقيقي وإذا
أنصف به كثيرون من افراد أمة من الام ارتقت وتبوت وكان
موسر انظامها وتقويتها وما ذلك إلا لان الانسان يقوى عزمة
باعتماده على نفسه ويضعف باعتماده على غيره . ألا ترى ان

المساعات الخارجية كثيراً ما تذهب بنشاط الانسان لانها لا تدع
 موجباً لعميه في خير نفسه فتغادره ضعيفاً عاجزاً ولا سيما اذا
 فافت حد الاقتضاء . وما احسن ما قاله الطبراني في هذا المعنى
 وانما رجل الدنيا وأوحدها من لا يعول في الدنيا على رجل
 وافضل الشرائع لا يجدي الانسان نفعاً اكثر من جملة حراً
 ليعتمد على نفسه وينكب على اصلاح شأنه . غير ان البشر قد
 اعتقدوا في كل اين وأن ان خيرهم وراحمهم منوطان بشرائع بلادهم
 لا بسلوهم فاعتبروا الشرائع علة لتقدمهم وبالقول في الاعتقاد عليها
 واي مبالغة . الا انه قد كاد يتقرر عند اهل هذا العصر ان ليس
 للشرائع من فائدة سوى حفظ الحياة والحرية والمال او التأمين
 على الدم والعرض والمال . فالشرائع التي يتولاها حكام امناء
 تمكن الانسان من اجتناء ثمار اعباء العقلية والجسدية ولكن ما
 كانت لتصير البلد نجيباً والكسلان مجهداً والسكير نزهاً مها
 كانت عادلة وضارمة لان هذا منوط بالاصلاح الشخصي اي
 بالاجتهاد والاقتصاد ونكران الذات وما اشبه

وما حكومة شعب سوى صورة افراده فاذا فافت الشعب
 حكومته لا تلبث ان تنهقر اليه واذا انحطت عنه لا تلبث ان تترقى
 اليه . ومها تكن اخلاق الشعب فتتأجها في حكومتها فاذا كان
 الشعب مستقيماً حكيم بالاستقامة واذا كان معوجاً حكيم بالاعوجاج .
 والاختبار يدلنا ان قوة الشعوب ودرجتها لا تتوقفان على حكومتها

كتوفنها على اخلاق افرادها اذ ليس الشعب سوى مجموع افرادِهِ
وليس تمدنه سوى تمدن افرادِهِ كباراً وصغاراً ذكوراً واناثاً. فتقدم
شعب هو مجموع علم افرادِهِ واجتهادِهِ واستقامتهم وناخِرُهُ هو
جهل افرادِهِ وكسَلُهُم والتواؤُم. واذا دققنا النظر وجدنا ان
اكثر الشرور التي اعندنا على نسبتها الى الشعب اجمالاً هي
شوائب نامية في حياة افرادِهِ واذا استوصِلت بواسطة الشرائع
تعود تنمو من ناحية اخرى بهيئة اخرى ما لم يتغير طبع الانسان
وصفاته. ويترب على ما تقدم ان الغيرة الوطنية لاصلاح شأن
الوطن يجب ان لا تصرف في اصلاح سياسته وشرائعه بل في
انهاض اهله لكي يصلحوا شأنهم بيدهم

اذا كان كل التقدم موقوفاً على كيفية حكم الانسان على نفسه
فلا اهمية كبيرة للحكام المتسلطين عليه لان ليس العبد من يستعبده
غيره بل من يستعبد لجهله وكبريائه وهواه هذا هو العبد الذليل
والشعب المتعبد على هذا النمط لا يجره تغيير الشرائع والمسلطين
ولا سيما اذا ظل يتوهم ان حريته متوقفة على كيفية حكومته. لان
اساس الحرية الثابت قائم على حسن شان الافراد الذي هو
السند الوحيد لنظام الهيئة الاجتماعية والتقدم الوطني. ولقد اجاد
العلامة يوحنا ستورت ميل اذ قال ان الاستبداد لا يضر كثيراً ما
دام كل شخص مستقلاً بنفسه ولكن كل ما يحطم الاستقلال الشخصي
هو استبداد مها اختلفت اسماؤه اه. وما احسن ما قاله ولم دركن

924512

2274

(RECAP) 385

4-13-42
Cambridge
Harvard

احد مشاهير المهامين عن استقلالية ايرلندا في معرض دبلن الاول
قال انني لم اسمع قط لفظه الاستقلال الا خطر على بالي وخطي
واهله وكثيراً ما سمعت عن الاستقلال الذي سنفوز به بمساعدة
الغير ولا يعني ان انكركم كنت انني مساعداً الغير واعتبرها على
انه لم يبرح من بالي قط ان استقلالنا الايدي والمالدي يتوقف
بالكلية علينا. وعندي لنا بانكافنا على العلم والصناعة واستقدام
مالنا من الوسائط قد بلغنا درجة من التقدم لم نبلغها من قبل
والفاعل الاكبر لنجاحنا مشارتنا على ما به خيرنا. واني لمتيقن انا
اذا واطبنا على ما نحن عليه من الغيرة والاجتهاد وصلنا قريباً
الى درجة من السعادة والحرية لا يفوقنا فيها احد. اه

ان جميع الشعوب قد اتصلوا الى ما اتصلوا اليه من التقدم
بواسطة اجتهاد الف من رجالهم . فالنقلة وحرثو الارض
ومستخرجو المعادن وارباب الصنائع والمخترعون والمكتشفون
والمصنفون والشعراء والفلاسفة ورجال السياسة جميعهم سعوا في
تطلب تلك الغاية الحميدة التي هي ترقية شان بلادهم وازدياد عمرانها .
هؤلاء هم الذين اوجدوا المدن ورفعوا شان النوع الانساني
بمنابتهم على العلم والعمل . وكل جيل يهي على اتعاب سلفه في هذا
البناء العظيم . ونحن ورثنا العمران كما تركه لنا اسلافنا وعلينا ان
لا نتركه للفقائنا كما ترك لنا بل ان نجد ونعصب في تهذيب وزيادته
كما فعل من تقدمنا

الاعتماد على النفس من اخص ما يوصف به الشعب الانكليزي
 وعليه يتوقف قوتهم كامتداده. فاذا التفتنا الى الخاصة منهم رأينا انه فلم
 من بينهم اناس فاقوا من سواهم فاستحقوا الاكرام من الجميع لكن
 لم يتوقف تقدم البلاد الانكليزية على هؤلاء الافراد القلائل بل
 على اناس دونهم رتبة ابي على اشخاص من العامة فلما يُعرف
 عنهم . ألا ترى ان من يذكر خبر انتصار جيش في واقعة من
 وقائع الحرب يتنصر على ذكر قواد الجيش مع ان النصر تم بواسطة
 افراده فكذلك في هذه الحياة التي هي اشد شي هولاء حرب دائمة
 الاسم لولي المقام السامي ولكن في زوايا النسيان رجالاً لا يُحصى
 عددهم كانوا وسائط فعالة في ادخال العمران ورفع شان الشعوب
 وربما انهم اكثر عدداً من الذين انصف التاريخ فذكرهم . بل
 يمكننا ان نقول ان كل شخص كان قدوة لغيره في الاجتهاد والتزاهة
 والاستقامة له يد في خير البلاد الحاضر والمقبل وحياته مثال
 يقتدي به معاصروه وخلفاؤهم جيلاً بعد جيل . لاننا نرى بالاختبار
 اليومي ان قدوة المجتهدين تؤثر تأثيراً قوياً يفوق تاثير العلوم بل
 ما من علم يؤثر في حياة الانسان مثل العلم الذي يراه يوماً في
 البيوت والشوارع وفي الحفول والمعامل . هذه هي العلوم الانتهائية
 التي على كل احد ان يتقنها لكي ينجح في الدخول في الهيئة الاجتماعية
 هذه هي العلوم التي سماها شرع علوم الجنس البشري وهي تقوم بالعمل
 والسلوك والتهديب والانقياد او بكل ما يوهم الانسان لمعاونة

مصالح الحياة . وهذه العلوم لا تُحَصَّل من المدارس ولا ترى في الكتب وما احسن ما قاله الشهير باكون ان جل فائدة العلوم ان ترشد الانسان الى حكمة فوقها لا تكتسب بالدرس بل بالملاحظة اه . والاخبار يعلمنا ان الانسان يصير كاملاً بالعمل اكثر ما بالعلم . اي ان شان الانسان يُصَلح بالعمل والاجتهاد والاستقامة لا بالعلم والدرس والشهرة

ولما كانت القدوة من الامور الفعالة في شؤون البشر كانت كتب ترجمات المشاهير من اكثر الكتب فائدة حتى ان بعضهم قد اعطاها المترجم الاولي بعد الكتب الالهية لان فيها امثلة كثيرة للاعتماد على النفس وثبات العزم وعلو الهمة والنشاط والاستقامة وغير ذلك من المحامد التي تعلن بكلام صريح ما يستطيعه الانسان من الارتفاع في ذروات الجهد وتبين ببلاغة عظيمة ان من يعتبر نفسه ويعتمد عليها ينل اسماً حسناً وشهرة لا تُنسى . لان رجال العلوم والفنون والآداب ارباب الافكار واهل المحصافة لم يقتصروا في فئة من البشر ولم يخصصوا باهل المراتب بل نبغوا من المدارس والمعامل ومن الدكاكين والمزارع من اكوخ الفقراء الخفية وقصور الاغنياء الرفيعة وكم من اناس ارتقوا من ادنى الدرجات الى اعلى المراتب ولم تصدم الصعوبات عن نوال ما شروا له الذيل بل كثيراً ما كانت تستعمل الى اكبر مساعدتهم بغير يكها قوتهم ونشاطهم وايضاها ما ربما كان ينجل من قواهم لولم

تكن الحال كذلك . وامثلة هنا كثيرة جداً لا يسعنا تعدادها
وجميعها تثبت قول المثل الفائل كُلُّ مَنْ جَدَّ وَجَدَ . ألا ترى ان
جرمي نيلر شاعر عصره والسر^(١) ونشرد ازكرت مخترع آلة
الغزل وموسس معامل القطن واللورد^(٢) تنتردن قاضي القضاة
وترنر المصور الشهير وغيرهم نبغوا من حانوت الحلاق . اننا لا نعلم
بالناكيد اصل شكسبير راس شعراء الانكليز ولكن اجمع متفقون
على ان ابيه كان قصاباً وانه هو نفسه كان يعمل في صباه على مشطه
الصوف . ومن الناس من يقول انه كان مساعداً في احدى
المدارس ثم صار كاتباً . لكن قد اجتمعت في هذا الرجل الشهير
كل اخبارات بني البشر كانه تعاطى كل مصالحهم مع انه لم يفعل
ذلك بل كان كثير الدرس والاجتهاد ذا قريحة وقادة وذكاه
مفرط حتى انه فاق من سواه في سرعة الخاطر بانياً كل كتاباته
على الملاحظة والاخبار فخدم بها جيلة ولم تنزل لها سلطة قوية على
افكار الشعب الانكليزي

وقام من بين الفعلة اناس يستغنون الذكر الجاهل منهم
برندي المهندس وكوك الخبير بسلك البحر وبرنس الشاعر . ومن
بين البنائين وصافي الترميد بن جنصن الذي عمل في بناء خان
لنكن وفي يده ملعة البناء وفي جيبه الكتاب وأدورذس وتلفرد

(١) سر (Sir) لقب شرف عند الانكليز

(٢) لورد (Lord) لقب شرف ايضاً

المهندسان وهوميلر الجيولوجي الشهير وآلن كتهام المؤلف
 والنقاش ومن بين النجارين انغو جونز وهريسن صانع
 الخرونومتر ويوحنا هنر الفزيولوجي ورمني وايزبي المصوران
 والاستاذ لي البارغ في الملفات الشرقية ويوحنا جيسن النقاش
 ومن بين الحاكة سيمس الرياضي وباكُن النقاش وملنر وادم ولكر
 ويوحنا فستر وولسن العارف بالطيور والدكتور لثسنن الساحج
 الشهير وتناهل الشاعر ومن بين الاساكنة السر كلودسلي شوغل
 الادميرال العظيم وسنرجيون الكهربائي وصهوبيل درو المؤلف
 وجيفرُد منشي جريدة كورتلي رثيو وملفيد الشاعر ووليم كاري
 وموريسن المبشران وموريسن لم يكن اسكافا بل صانع قوالب
 للاساكنة . ومن برهة بسيرة قام من بينهم الرجل الشهير نوما
 ادوردس فهنا الرجل درس جميع العلوم الطبيعية وهو آخذ في
 حرفته وقد اكتشف على نوع جديد بين التجمرات سماه الطبيعيون
 يرانيزا ادوردسي *Praniza Edwardsii* نسبة اليه . وقام من
 بين الخياطين يوحنا ستو المورخ وجكسن المصور والبطل السر
 يوحنا هكسود الذي اعطاه الملك ادورد الثالث لقب النيط
 جزاء على شجاعته والادميرال هبسن وكان هنا صانعا عند
 خياط بالقرب من بن تشرنش في جزيرة ويبط فحدث ان عمارة
 بحرية اجنازت ذات يوم امام تلك الجزيرة فركض مع بعض
 الفتيان الى الشاطئ ليتفرج عليها ولما رآها تحرك فيه ميل شديد

الى سفر البحر فقتل في قارب كان هناك واخذ يجذف الى ان
وصل الى سفينة الادميرال فصعد اليها وعرض نفسه تطوعاً
فقبل ولم يمض عليه الا سنوات قلائل حتى صار ادميرالاً ونال
اعلى مراتب الشرف

واشهر الذين قاموا من بين الخياطين بالاجماع اندروجنسن
رئيس الولايات المتحدة الاميركانية المشهور بذكاء العقل . قيل انه
القي خطاباً في مدينة واشنطن واخذ يراجع فيه تاريخ حياته وكيف
انه ارتقى من درجة الى اخرى الى ان صار رئيساً للولايات المتحدة
فضج الحفل الحاضر بصوت عظيم فائلين من الخياط فصاعداً .
وكان من عادته ان يحول مهمم اخصامه الى حوادث تاريخية
مفيدة . قال ذات مرة بعبرني البعض بانني كنت خياطاً ولكنني
لا ارى في ذلك شيئاً من العار لانني وانا خياط كنت مشهوراً
بالامانة والمهارة في صناعتي وكنت دائماً اخط الثياب واعطيها
لاصحابها في الاجل المعين هذا فضلاً عن انني كنت اعلمها عملاً
جيداً متيناً اه . والكردينال ولسي العظيم كان ابن قصاب وكذلك
كان ديه فو واكسيد وكرك هويت . وبين كان سنكرماً ويوسف
لنكستر كان سلالاً . ومن الذين لم يد في اختراع الآلة البخارية
نيوكمن ووط وستنسن فالاول كان حداداً والثاني نجاراً او
صانع آلات تعليمية والثالث وقاداً وكذلك هتندن البشر كان
يحل في تكويم الفحم ويوك ابو النفاشين في الخشب كان يعمل في

معادن الفحم وددسلي كان خادماً وملكزت سائماً وبن الشهير
 بسلك البحر كان خادماً في سفينة وكذلك كان السر كلودسلي
 شغل . وهرشل الفلكي الشهير كان يلعب على الزمار وكتري كان
 نقاشاً واتي مصوراً والسر توما لورنس كان ابوه صاحب خان .
 وميخائيل فرداي كان ابوه حداداً وهو تعلم صناعة تجليد الكتب
 وعمل فيها الى ان بلغ الثانية والعشرين من عمره ولكنه الآن يعد
 من الطبقة الاولى بين الفلاسفة الطبيعيين حتى انه يفضل على معلو
 السر همفري داي . وبين الذين لم اليد الطولى في تقدم علم الهيئة
 كوبرنيكس وهو ابن خباز من بولونيا وكبلر وهو ابن صاحب
 خان من جرمانيا ودالمبر كان طفلاً منبوذاً وجد ليلاً على درج
 كنيسة مار يوحنا في باريز ورئي عند امرأة زجاج . ونوتن ابن
 رجل متوسط الحال من كرنهام ولايلاس ابن فلاح فنيرومع ان
 احوال هذين الشهيرين كانت في صباها متعسرة الى الغاية قد
 حصلوا شهرة لا تساويها كنوز العالم باجتهادها . والارجح انها لو
 كانا من ذوي الثروة ما اتصلا الى ما اتصلا ويؤيد ذلك القصة
 الآتية وهي : ان ابا لكرنج الفلكي والرياضي الشهير كان مستملاً
 خزينة الحرب في تورين فحدث انه اشترى بضائع كثيرة موملاً
 الربح فمخسر بها خسارة جسيمة اوصلت اهل بيته الى حالة الفقر
 الشديد وصار ذلك سبباً لافتخار لكرنج لانه كان يقول لو كنت
 غنياً ما صرت رياضياً

ومن الذين اشتهروا في بلادنا (بلاد الانكليز) اكثر من
غيرهم اولاد الفسوس وخدمة الدين لاننا نرى بينهم دراك ونلسن
الشهيرين بين رجال البحر وولستان وبين وبلينير وبل المشهورين
بالعلوم وورن ورنيلدس وولسن ولكي في التصوير وثرلو وكبل في
الشريعة واديسن وثمن وكلدسمث وكلردج وتينسن في الانشاء .
واللورد هردنج والكرنال ادوردس والمajor هدسن الذين
اشتهروا في حروب الهند . وحقاً ان الدولة الانكليزية استولت
على بلاد الهند بواسطة اناس متوسطي الحال مثل كليف وورن
وهستنس وخلفائهم رجال تربوا في المعامل واعنادوا على التعب
ونجد بين اولاد المحامين والصناع والباعة ادمند برك
وسمين المهندس وسكوت ووردزورث الشعارين والمسر وليم
بلاكستن واللورد جيفرد وهو ابن تمان واللورد فنن ابن طبيب
والقاضي تلفرد ابن خار واللورد بلك ابن سراج (صانع سروج) .
وملتن وهو ابن كاتب وبوب وسوزي ابنا بائعي اقمشة واللورد
ماكولي ابن تاجر افريقي اما ليرد مكتشف خرائط نينوى فكان
كاتباً والمسر وليم ارستن مخترع الآلة الهدروليكية والمدفع المسى
باسم درس الفقه في صغره ومارس المحاماة مدة . وكس كان
صيدلياً والمسر هفري دائي صانعاً عند صيدلي وقد قال من فو
اني وصلت الى هذه الدرجة بسعي ولاقول ذلك بعجب بل
ببساطة قلبه . ورتشرد اون نيوتن التاريخ الطبيعي كان في احدي

السنن ولم ينتظم في سلك طلبة العلم إلا بعد ان تقدم في السن .
ويظهر انه وضع اساس معارفه لما كان يرتب مجموع التحف
الذي جمعه يوحنا هنتر

وإذا التفتنا الى نوارخ الامم المختلفة غير الامة الانكليزية
رأيناها مفعمة بذكر اشخاص قد شرفوا الفكر الذي كان نصيبهم
من الدنيا باجتهدهم وحقاقتهم . فمن الذين اشتهروا في الفنون
كلود وهو ابن حلواني وجيفس وهو ابن خباز وليوبلد روبرت
ابن صانع ساعات ويهدن وهو ابن صانع دوليب والبايل
غريغوريوس السابع وهو ابن نجار وسكستوس الخامس وهو ابن
رابع وادريانوس السادس وهو ابن مجري . ويروي انه لما كان
صغيراً لم يكن يكتب ان يبيع مصباحاً ليدرس على ضوءه في
الليل فكان يدرس دروسه في ضوء المصباح المعلقة في الازقة (١)
ومن الذين نبغوا من اصل خنزير ايضاً هومي المعدني وهو ابن
حانك وهنغل الميكانيكي وهو ابن خباز ويوسف فريير الرياضي
وهو ابن خياط وتورند وهو ابن اسكاف وجسار الطبيعي وهو ابن
دباغ قيل انه خطا اول خطوطه في سلم الحياة محاطاً بكل ما

(١) وهنا مماثل ما قيل عن ابي نصر محمد الفارابي الفيلسوف الشهير
الذي اتبع الفلسفة اقصاها وادناها والتم فيها كتباً لا تعد لكثيرها مع ما
كان عليه من العوز فكان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف ويستضيء
بقندبل الخراس وبقي على ذلك الى ان عظم ثأته وظهر فضله واشتهرت
تصانيفه وكثرت تلاميذه وصلوا اوحد زمانه (كتاب عيون الانبياء)

يضعف العزم كالنقر والمرض وفاق الفكر ولكن لم تكن هذه
 المصائب لتوهن عن عزمه ونصده عن النجاح. وممن كانت احوالهم
 مثل احوال جندر بطرس رأس وهو ابن رجل مسكين من
 بيكردي وكان عملاً في حلائق رعاية الغنم ولكنه لم يرض بها
 حرفة ففر هارباً الى بارنز وبعد معاناة اتعاب جزيلة دخل
 المدرسة الكلية في ناغار خادماً ولكنه انتهز كل فرصة المدرس
 والمطالعة ولم يمضي عليه وقت طويل حتى صار بعد اشهر رجال
 عصره. وفوكولين الكجاوي وهو ابن فلاح رومي انه لما كان
 يتعلم في المدرسة وهو بعد فتى حديث السن لم يكن له من الثياب
 ما يستر عريته لكن كانت تلوح على وجهه امارات النباهة والحفاقة
 فكان يقول له معلمه عندما ما يريد مدحه لاجل اجتهاده نعماً
 يا ولدي واظب على ما انت فيه من الاجتهاد فتلبس يوماً ما
 ثياباً حسنة مثل ثياب وكيل الكنيسة. وذات يوم زارتك المدرسة
 احد الصيادلة فاعجبه هذا الفتى فاخذته الى صيدلانو واستخدمه في
 سحق العقاقير ولكنه منعه من الذهاب الى المدرسة فتركه فوكولين
 وتوجه الى بارنز ولما وصل اليها اخذ يعرض نفسه على الصيادلة
 خادماً فلم يجد من يستخدمه ولكنه ما لم يره من العصب والجوع
 أصيب بمرض فاخذته بعض اهل الشقة الى احدى المستشفيات
 حيثما ظن انه يمضي فحبة ولكن العناية كانت مدة له شيئاً آخر فلم
 يمض عليه الا وقت قصير حتى شفي من مرضه فرجع الى ما كان

عليه من التفنيش عن مكان يخدم فيه فوجد مكاناً عند احد
الصيداله . وبعد برهة بسيرة عرف به فُرُكروي الكيماوي الشهير
فضمه اليه وبالغ في اكرامه حتى جعله كاتباً له ثم لما مات ذلك
الفيلسوف خلفه فوكولين في تدريس الكيمياء . وسنة ١٨٢٩ اتخبت
مقاطعة كنفادوس نائباً لها في مجلس النواب

ليس في البلاد الانكليزية اناس ارتقوا من ادنى مراتب
الجند الى اعلاها كما وجد في فرانساً بعد الثورة فمن هوش وامبر
وبشكرو ليسوا سوى من عامة افراد الجند . اما هاش فكان يطرز
الصدرات ويتاع بما يكسبه كتباً في علم الحرب . وامبر هرب من
بيت ابيه وهو في السادسة عشرة ودخل في خدمة تاجر ثم في
خدمة عامل ثم في خدمة صائد ارناب ثم تطوع جندياً ولم ترض
عليه سنة من الزمان حتى صار قائد كتيبة . ومن هو كلابر ولناقر
وسوشي وفكتورولان وسلت وماسنا وصن سير ودربولون ومورات
ولوجرو وبسبروناي وغيرهم ممن نشأوا من ادنى الرتب
وارتقوا الى اسماها . ومنهم من كانت ارتقاؤه سريعاً ومنهم كان
بطيئاً لان صن سير كان ابن دباغ فانتظم في سلك الفرسان ولم
يلبث سنة حتى صار قبطاناً . وفكتوردوك بلونو دخل في الطيحية
سنة ١٧٨١ ثم رُفض من خدمته في الحوادث السابقة الثورة ورجع
اليها عند افتتاح الحرب وفي برهة قصيرة صار معاون ماجور
ورئيس فرقة . اما مورات وهو ابن صاحب خان في برهكورد

فانتظم اولاً في سلك الفرسان ورُفِض لعدم طاعته ثم انتظم ثانية
 فارتقى بوقت قصير الى رتبة كورونل . ونأي انتظم في سلك كتيبة
 من الفرسان وله من العمر ثمانى عشرة سنة ولما رأى الجنرال كلاير
 اقدمه رفاة درجة بعد درجة الى ان صار في رتبة معاون جنرال
 وهو ابن خمس وعشرين سنة فقط . هذا من جهة الذين تقدموا
 بسرعة اما الذين تقدموا ببطء فمنهم سلت الذي مضى عليه اكثر
 من ست سنوات قبلما ارتقى الى رتبة ملازم وهي الاولى فوق الجندي
 ومع انه ارتقى اخيراً بالتوالي الى منصب كورونل و جنرال ومرشال
 قال ان رتبة ملازم كلفته نعباً اكثر من كل هذه الرتب . ولما صار
 وزير الخارجية اخذ يدرس الجغرافيا لانه لم يكن يعرف شيئاً من
 العلوم فوجد فيها لذة كثيرة . ولم يزل هذا الارتقاء بين رجال
 فرنسا الى يومنا هذا لان المرشال رندون الذي صار وزير الحرب
 دخل في الخدمة ولداً يضرب بالطبل ولم تنزل صورته في فرسايا
 ويده على طبل وقد صوّرت كذلك بطلبه . فامور مثل هذه تضم
 الجنود الفرنسية غير املاً بان كل فرد يمكنه ان يصير مرشالاً
 ان لم نقل امبراطوراً

وهؤلاء الرجال ليسوا الا عدداً لا يذكر بالنسبة الى الذين
 ضمينا صفحاً عن ذكرهم فليس ارتقاؤهم من الامور النادرة التي
 لا يبنى عليها حكم بل من الامور الشائعة جداً حتى يمكننا ان نقول
 ان كل من سعى في طلب المجد مهمة قوية وواظب على السعي نال

مبتغاه . وإذا نظرنا الى كثيرين من الذين فجعوا بسعيهم رأينا ان الصعوبات والمناعب التي صادفوها في أول سعيهم كانت شروطاً لازمة لنجاحهم

ان مجلس نواب العامة في بلاد الانكلترا لم يجل من رجال كثيرين من هذا النوع رجال نشلوا من بين اصحاب الصنائع والحرف . يروى انه في إحدى مباحثات هذا المجلس اخذ يوسف برذرتن نائب مقاطعة سلفرد بعدد المناعب التي اصابتها وهو صانع في معمل قطن قال ومن ثم صمت على انه اذا ساعدتني التفادير ابدل غاية جهدي في اصلاح شأن العاملين الذين كنت اعمل بينهم . فإتم كلامه حتى وقف السر يعقوب كرهيم وقال اني لم أعرف قط بان اصل مستر برذرتن وضع بهذا المقدار ولكن الآن قد زاد افتخاري بمجلس النواب اذ رأيت فيه انساناً ارتقى من رتبة وضعية الى ان تساوى مع عطاء الارض . وبمثل ذلك قول مستر فوكس نائب الدهام الذي كان يردد كثيراً وهو قوله لما كنت صانعاً عند حائك في نوروك . ولم يزل في مجلس نواب الامة اعضاء اصلمهم خير مثل هذين وربما اخفر . اخبر مستر لندساي نائب سنترلند سيرة حياته للمتخفي وبموت جواباً لاصاد له في امور سياسية فقال توفي والدي ولي من العمر اربع عشرة سنة فتركت كلاسكو وقصدت ليدربول ولكن بما اني لم اكن قادراً على دفع اجرة السفر ارضى ربان السفينة ان اخدمة

بما يقوم باجرة سفري فاستخدمني في تفتية الفهم فوصلت الى البحر بول
 وانفقت فيها سبعة اسابيع قبل ان وجدت عملاً اعجل فيه وكنت
 انام في الخلاء ولم اكد احصل ما يسد رمقي، ثم استخدمت في احدي
 السفن ولكي لم ابلغ التاسعة عشرة حتى ارتويت الى رتبة اماراة
 مركب مجدي واستقامتي ولما بلغت الثالثة والعشرين تركت البحر
 ومن ثم اخذت في التقدم السريع واؤكد لكم ان السبب الحقيقي
 لتقدمي اجهادي ونعي وجريي بموجب تلك القاعدة الذهبية
 التي جعلتها دستوراً لكل تصرفاتي فكنت افعل بالغير كما اريد
 ان يفعل بي

وما يقارب ذلك تقدم مستروليم جكسن من بركهد عضو
 نورث دريشير فهذا كان ابن جراح في لنكستر فتوفي ابوه عن
 احد عشر ولداً وهو سابعهم فأخرج من المدرسة قبل ان بلغ
 الثانية عشرة ووضع في عمل شاق كان مضطراً ان يعمل فيه اربع
 عشرة ساعة كل يوم اي من قبل الظهر بست ساعات الى ثمان
 بعده. وبعد وقت قصير مرض معلمه فأخرج من عنده ووضع
 في بيت المحاسبات حيثما كانت له شيء من الحرية فانكب على
 الدرس وحينئذ تمكن من كتاب الانسيكلوبيديا البريطانية فقرأ
 ذلك الكتاب الذي يحنوي عشرين مجلداً ضخماً وكان اكثر قراءة
 فيه ليلاً. ثم انكب على التجارة فافلح فيها اي افلاح والآن له سفن
 في كل البحار وعلاقة تجارية مع كل بلاد على وجه الارض

وما يماثل ذلك تقدم رنشد كبدن وهو ابن فلاح من
 مدهرست في سسكس في حلثيو أرسل الى لندن ودخل
 خادماً في بعض الخازن وكان حاذقاً فيها حسن السيرة كثير
 المطالعة وكثيراً ما كان ينهاه معلمه عن كثرة الدرس الآانه لم
 يمتثل امره بل واظب على ما كان عليه مالتاً عنه بغنى المعرفة
 المتضمنة في الكتب فتقدم من عمل الى آخر الى ان تعاطى المسائل
 السياسية وخصص لها نفسه وكل ما ملكه وپروى ان اول
 خطاب الفاه لم يستحق ان يلتفت اليه احد ولكنه لم ينفك عن
 ممارسة الخطابة حتى صار من اشهر الخطباء واقوام حجة وانهم
 مقالاً وذاع صيته في الآفاق الى ان استحق مديح السر روبرت
 بيل الشهير. قال مسيو دروين ده ليس سفير فرانساً في انكلترا
 ان مستر كبدن هذا خير مثال لفعل الآداب والمواظبة والاجتهاد
 وهو مثال من اتم امثلة الرجال الذين ارتقوا من ادنى الرتب الى
 اعلاها بواسطة استحقاقهم وخدمهم الشخصية ومثال من اندر الامثلة
 للصفات الثابتة الموروثة في الشعب الانكليزي
 وخلاصة ما تقدم انه ما من احد احرز الفخر والشرف الآ
 دفع ثمنها كذا وسعيًا عظيمين وما من احد قدر على نوالها بالكسل
 والتواني. وما احسن ما قاله ابو الطيب المشي
 على قدر اهل العزم تاتي العزائم
 وتاتي على قدر الكرام الكرائم

ويد الانسان وراسه يصيرانو حكياً غنياً. وان وُلِدَ في الغنى والسعة
 وكان من قومٍ لم اسمٌ وفضل لا يحصل على شهرة ما لم يكن مستغنياً
 لان الغنى يتصل بالارث وليس كذلك العلم والحكمة. والغنى
 يستأجر من يتم له اعماله لكن لا يمكنه ان يستأجر من يفكر عوضاً
 عنه ولا ان يشتري العلم والتهديب وبالبحري الشهرة التي يستغنياً
 لاجلها فلا يمكن تحصيل الشهرة الا بالسعي والاجتهاد وذلك
 يصدق على اصحاب الثروة كما يصدق على درو وجينورد اللذين
 درسا في دكان الاسكاف وعلى هيوملر الذي درس دروسه
 الانتمائية في مقلع الحجارة

وليس الغنى والراحة ضروريين للنجاح والا لما كان العالم
 مديوناً دائماً للذين نشأوا من ادنى الرتب. وذلك لانه اذا كان
 الانسان غنياً مترفاً لا يضطر ان يقاوم الصعوبات فلا تنبه
 عزيمته ولا يصير من ذوي الاقدام. وان يكن الفقر مصيبةً فالاعتماد
 على النفس يجعله بركةً تنبع العزم والاقدام ومناضلة الدهر وما
 يتبعها من الظفر والمجد. قال الفيلسوف باكن ان الناس
 لا يعتبرون غناهم ولا قوتهم حتى الاعتبار لانهم يعتبرون الغنى اكثر
 مما يستحق والقوة اقل مما تستحق. اما الاعتماد على النفس وانكارها
 فبعلمان الانسان ان يشرب ماء من جيبه وان يشتغل ويتعب
 لتحصل معيشته وصراف ما يصل اليه بالحكمة
 والغنى تجربة كبيرة للكسل والبطران نرى الانسان

ماتلاً للمها طبعاً حتى ان الذين ولدوا في نعمة وافرة اذا استهانوا
 بالراحة ولم يأنفوا من اللعب في خدمة جهلم كان لهم اعظم فخر .
 وما يستحق الاضغاث ان اغنياء بلادنا (اي البلاد الانكليزية)
 ليسوا من اهل البطالة والكسل . فبيل ان احد القواد الاغنياء
 كان ماشياً الى جانب فرقته في حرب اسبانيا فحاضت تلك
 الفرقة في بالوعة وخاض هو معها فالتفت واحد وقال لرفيقه
 انظر ما خمسة عشر الف ليبرا سنوياً تخوض في هذه البالوعة . يريد
 ان دخل ذلك القائد كان خمسة عشر الف ليبرا سنوياً . ومن
 عهد قريب شاهدت احاد برسفستابول المتعرجة ورمال الهند
 المحرقة لتكرر الذات الغامبي الذي اظهره شرقاً بلادنا واغنياءها .
 فكم من شريف وغني خاطر بتفسد لو فقدتها في تلك المعامع
 الهائلة خدمة للوطن

وما الاغنياء بمنزل عن اتباع العلم والفلسفة والآفن هو
 بأكن ابو الفلسفة الحديثة ووستر وبوبل وكافنديش وتلبيت
 ورص . ورص هذا يسمى ميكانيكي الامراء ولولم يولد اميراً لحاز
 اسمي الرب كخترع . يروي انه كان ماهرًا في صناعة الحفادة
 مهارة كلية حتى استعداه رجل يجهل نسبة لن ياخذ ادارة معمل
 حديدية له . ومن المعلوم ان تلمكوب هذا الامير الذي عملة بيده
 من اعجب ما صُنع من نوعه الى يومنا هذا . غير اننا نجد ان القسم
 الأكبر من كبرائنا قد تعاطوا التاليف والسياسة ولا يفهمون ان

التجماع في هذه من أيضاً متوقف على الاجتهاد والدرس، والتزوية
 فعلى الوزير لو المشير ان يكون من أكثر الناس شغلاً وجداً
 كهمرسون ودربي وروسل وندرائي وكلا دكتورين ومن يعرف
 هؤلاء الرجال واشغالهم الكفيرة يعلم انهم لا ينفكون عن العمل
 نهائياً وليلاً، وأشهر رجال السياسة بالاجماع السرروبرت بيل
 الذي كان له جلد على مداومة اشغالو العقاب بكاد يعد من
 حوارق المادة لانه لازم للبرلمنت مدة اربعين سنة وفي غضونهما
 عمل اعمالاً تكاد لا تصدق لكثيرها وعظمتها، قيل انه لم يشرع في
 امر الاثمة، وكل خطبه تشهد له انه درس حروماً مدققاً في كل ما
 تكلم به او كتب فيه وكان من المرطبين في المنقل والمرطبين في
 صميم وصن المهم لا يهل لانام كل ما شرع فيه وقد غاق كل
 معاصريه في المهجة وسوا الافكار وكلما تقدم في السن ابوداد
 معارضة ولا نت عريكه واستمر الى آخر نسبه من حبه وفاقاً باباً
 في عقول لقبول الآراء الجديدة ومع ان كثيرين علوه فنوراً من
 الطرف في المسائل الا انه لم يقع في ما وقع فيه كثير من من
 التصصب لتي الآراء التي يمدونها التصصب كفالج بصيب عقول
 الناس عند تقدمهم في السن

ومن يضرب بهم المثل في الاجتهاد اللورد بروم الذي
 خدم جيلاً أكثر من سدين سنة وتعالى فيها الفقه والاشياء
 والسياسة والعلوم المتنوعة واتقن كل ما تعاطاه، تخيل مثل المر

صموئيل روملي ان يعمل عملاً ما فاعنذر من ضيق وقتو ثم قال
عليكم بهنا بروم لانه يخلق وقتاً لكل شيء . والسر في ذلك ان
اللورد بروم لم يدع دقيقة من وقتو تضي سدى ولا بلغ السن
الذي يتغى فيه الناس عن الاعمال شرع في عمل شاق الى الغاية
وهو البحث في نواميس النور فجات ابحاثه مكللة بالنجاح وشهد له
فيها اشهر علماء باريز ولندن وكان اخذاً حينئذ في طبع كتابه
الشهير في العلماء والادباء الذين نبغوا في عصره وقاماً بمعب
منصبه في مجالس الامراء حتى قيل ان سدي سبت اشار عليه مرة
ان يقتصر على اعمال لا يقدر على القيام بها اقل من ثلاثة رجال
الا انه كان لا يستكثر اعماله مها كثرت وشقت ناهيك عن انه كان
مطبوعاً على حب الشهرة والارتقاء حتى قال بعضهم انه لو كانت
حرفته صنع الاحذية لصار اول صباغ احذية في الدنيا
ومن هم كذلك السر بلورثون الذي قل من مائله في
نماطي اعمال كثيرة وافلاحه فيها كلها لانه كان شاعراً وراوياً
ومورخاً ومولفاً وخطيباً وسياسياً ولم يكن يسأل عن الراحة ولا
يكثر للتعيب وقل من جاره من مولفي الانكليز في كثرة
التأليف او ساواه في سموها . وقد كان من ذوي الثروة الرايين
في عهد التنعم ولكنه انكر نفسه وصار في طريق المؤلفين المحرج
فكانت تأليته الاولى على جانب من الركافة فرمها الناس بعين
الازدراء ولكن ذلك لم يثن عزمه فواظب على الدرس والتأليف

حتى حاز قصب السبق وصار يعد من ابرع المؤلفين
ومنهم دزرائيلي الشهير الذي رقي الى اسمى المناصب بمجده
وكده . قيل ان هذا الرجل العظيم حبطت كل مساعيه الاولى
لان اول كتاب الفقه عدّه الناس نتيجة الجنون وكذا الكتاب
الثاني فقير نسق تأليفه وألف ثلاثة كتب اخرى فنجح فيها منج
اهل السياسة فنجح . ولما دخل مجلس النواب وخطب فيهم الخطبة
الاولى ضحكوا على كل جملة منها هزوا بها ولكنه ختم خطبته بهذه
الجملة التي تحسب انباء بما وصل اليه وهي قوله "اني شرعت في
امور مختلفة مراراً كثيرة ولم انفك عنها حتى نجحت فيها النجاح
المطلوب فسباني وقت تسموني فيه برضى". فقد جاء الوقت
المشار اليه وصار كل اهل المسكونة يسمعون لقول هذا الرجل
العظيم ولكنه لم ينل ما ناله من المجد والموود الا بمجده وحزمه
فانه لما كانت تحبط مساعيه لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين
اذا خابوا مرة وهمت قواهم ورفعوا في لجة اليأس بل قرن العزم
بالحزم وفتش عن عيوبه واصلمها ودرس اطوار سامعيه ومارس
الخطابة طويلاً وملاً راسة بما يحتاجه من المعارف ففاز بامانيه
وضحك له مجلس النواب بعد ان ضحك عليه وكان حينئذ اعظم
الخطباء ورجال السياسة بالاجماع

يظهر من الامثلة المتقدمة ان النجاح موكول الى الاجتهاد
وسنورد امثلة اخرى تؤيد ذلك ايضاً . لكن لا ينكر ان الانسان

يحتاج الى من بعضه ولقد اجاد الشاعر وردزورث اذ قال
 " ان افتقارنا الى الغير واستقلالنا بانفسنا وان ظهر ان بينها
 مناقضة لا بد من ان يسيرا سواء وبصطحبا ". وكل واحد منفرد
 الى غيره في التفتيح والتهديب منذ طفوليتو حتى شيخوخة وان
 تنوع مقدار هذا الافتقار بتنوع الاشخاص وافضل الناس اقربهم
 الى عرفان ما عليهم لغيرهم من الجميل والاحسان . قيل ان
 مسيو الكسيس ده توكفيل الشريف الفرنسي دعي الى منصب
 في محكمة فرسانيا وهو في الحادية والعشرين فرأى انه غير اهل
 لذلك المنصب وقد دعي اليه لشرفه الموروث فرفضه عازما ان
 يتأهل اليه مجده . ثم ترك فرما وقصد الولايات المتحدة الاميركية
 واستصحب صديقه كستاف ده بون . فقال كستاف هذا ان توكفيل
 عدو للكسل مطبوع فلا تراه بطالا في حال من الاحوال سواء
 كان مستقرا او مسافرا بل يتعم كثيرا الاضاعة اللذيفة من وقتو
 وبعد ايام العطلة اسوأ الايام . وكتب توكفيل لاحد اصحابه يقول
 الانسان لا يفرغ من العمل في ساعة من ساعات حياته ولا بد له
 من الجهاد الداخلي ولا سيما في الحداثة كما لا بد له من الجهاد
 الخارجي . وما الانسان في هذه الدنيا سوى مسافر في بلاد يزداد
 بردها كما تقدم في سفره فعليه ان يزداد حركة وسرعة كلما
 تقدم والافاجائه منبهة في هيئة البرد واشد امراض النفس مرض
 البرد الا ان قوانا العقلية والجسدية لا تكفيها لتناضلة هذا العدو

الالاد فعلينا ان نستعين بغيرنا

وقد جزم توكتشيل بوجوب الاعتماد على النفس الا انه لم يحط
بقية المساعدة التي ينالها كل انسان من غيره ولو تنوعت
مقاديرها فانه كثيراً ما اقر مجيبيل ده كرگورلي لاجل مساعدته
اياهُ في الامور الادبية فقد كتب الى كرگورلي يقول اني مديون
لكثيرين بامور كثيرة فرعية ولكني لست مديوناً لاحد كما انا
مديون لك بالمبادئ الاولية التي هي قاعدة السلوك . وافر ايضاً
مجبيل امراته التي ساعدته في خلفه وعقله على مواظبة دروسه .
وكان يعتقد ان المرأة الفاضلة تشرف اخلاق زوجها والسليطة

تدنيهاً
والخلاصة ان الفواعل التي تفعل باخلاق البشر كثيرة منها
العلم والعمل . والقول والقدوة . والاصحاب والجهيران . والدنيا
وسكانها من حاضرين وغابرين . لكن هذه الفواعل مها كان لها
من التأثير الشديد يبقى سعي الناس واعتمادهم على انفسهم اقدر
على رفع شأنهم من كل الفواعل الخارجية

الفصل الثنا

في ارباب الاجتهاد وهم المخترعون
والمستنبطون



قال ده سلفندي . العلم والعمل يسودان العالم من الآن فصاعداً
وقال ارثر هلبس . الغي من بلاد الانكليز كل ما صنعة لما المخترعون
الذين نبغوا من بين السوقه وانظر كيف تبقى



الاجتهاد اشهر صفة من صفات الانكليز وقد اشتهروا به في
الماضي كما هم مشهورون به الآن فقد قامت عظمة مملكتهم باجتهاد
عامتهم ونمت امنهم باجتهاد آحادهم سواء كانوا من حارثي الارض
او صانعي الامتعة او عاملي الآلات او مؤلفي الكتب . ولم يقتصر
اجتهادهم على ترفيتهم بل قد انفذهم من شر ما وقع في سياستهم
وشرائعهم من الخلل حيناً بعد حين وهذب اخلاقهم ونظم احوال

ملكتهم . والاجتهاد في العمل يرافق اتمام الواجبات وقد قرنتها
العناية بالنجاح والسعادة . قال شاعر الاعاجم ان الامة جعلت
العمل في طريق الفردوس . هنا ولا خلاف في ان الانسان
لا يأكل خبزاً الذ من خبز عمله عقلياً كان او جسدياً . والعمل
اساس كل تقدم لان به غلبت مصاعب الطبيعة وارتقى الانسان
من وهاد الجهل والخشونة الى ذرى التمدن والعمران . والعمل
من الواجبات والضروريات وهو مكتوب على كل جارحة من
جوارح الجسد وكل لفافة من لفائف الدماغ وهو ايضاً بركة
من البركات ولا يحسبه مشقة الأكل بليد خامل الذكر كسلان
كافر بالنعم . والحكمة العلية افضل انواع الحكمة تدرّس في
مدرسة العمل . والعمل ليس حطة في شان الانسان ولو كان من
اذكى الناس عقلاً ووسعهم علماً . قال هيومر الذي لا يضاھيه
احد في معرفة العمل وما يكسبه من القوة والضعف ان العمل حتى
انعية منعم باللذة واصلاح شان العامل الادبي والمادي وهو
احدق معلم ومدرسته افضل مدرسة بعد مدرسة الديانة لاننا
نتعلم فيها ان نكون مفيدين ومستقلين ومجتهدين . وكان هذا
الفاضل يذهب الى ان الصناعة تمهذب اهلها وتجعلهم رجالاً اكثر
من غيرها من اسباب المعاش (١)

ويظهر مما ذكرناه من امر الرجال الذين نبغوا من بين اهل

(١) اسباب المعاش امارة وتجارة وصناعة وزراعة

الاعمال ثم امتازوا في العلم او التجارة او الادب او الصناعات ان
الاجتهاد يغلب الصعوبات مها كانت وان ارتفاع الاخطار
باقتمام الاخطار. واما الاختراعات والاكتشافات التي ما من
احد يرتاب في انها قد افاضت على الامة بنايع الثروة والغزة
فالامر واضح ولا يقبل المراء ان البلاد مديونة فيها كلها لرجال
من الدرجة الدنيا واذا حذفنا منها مافعله هؤلاء الرجال لا يبنى
فيها شيء يذكرونهم او جدوا صنائع من اوسع صنائع الدنيا
ونحن مديونون لهم لاجل كثير من اهم لوازم الحياة والراحة فيهم
قد راجت الاعمال وزادت راحة البشر ورفاهتهم . وطعامنا
وكسوتنا واثاث بيوتنا وزجاج شبايكنا والغاز الذي ننير به
شوارعنا والبواخر التي نساخر فيها براً وبحراً وكل الآلات والادوات
التي جنى العالم اثمارها ولا يزال ولن يزال هي نتيجة انعام اولئك
المخترعين الافاضل

ومن الاختراعات التي نذكرها اولاً الآلة البخارية فنقول قد
اخترعت هذه الآلة في عصرنا الحاضر الآن مبداءها وجد منذ
مئات من السنين وقد خرجت الى حيز الوجود درجة بعد اخرى
كثيرها من الاختراعات فكان الواحد يتعب في هذا الاختراع
المخاطر زماناً طويلاً ولا يحصل على النتيجة المطلوبة ثم يمضي ويترك
عملة لآخر فيأتي ويحسنة ويزيد عليه ما امكنه ودام الامر على مثل
ذلك قرونًا عديدة وعليه ترى ان الامر الذي خطر على بال

هيرودس الاسكندراني الذي نشأ قبل المسيح بأكثر من مئة وثلاثين
 سنة كان كحبيب المحنطة في ايدي الاجساد المصرية المحنطة التي
 نمت عند ما زُرِعَتْ مع انثى مضي عليها مدفونة اكثر من الف
 سنة هكذا هذا الاختراع العظيم الذي مرّ عليه اكثر من الف
 سنة متروكاً في زوايا النسيان والاهمال عاد فنا بنور علوم
 الاجيال المتلخّرة. وقد حالت دون اخراجه من حيز القوة الى
 حيز الفعل صعوبات تفوق الوصف ولكن رجال الاجتهاد قووا
 عليها ودكوها الى الخضوض بما بذلوه من الصبر والمزاولة. وكان
 بهذه الآلة سلطنة الآلات واقفة كملك خطير محفوف برجاله
 العظام الذين بذلوا حياتهم في تشييد اركان ملكه وان نسأل
 عن اسمائهم فهم ساقري المهندس ونيوكين الحداد وكوي الزجاج
 وبتر الصانع وسميتون المهندس وفي صدر كل هؤلاء رجل الصبر
 والكد الذي لم يزل من عمل قط الحجار جس وط.

هذا هو جس وط اشد الناس اجتهاداً هذا هو الرجل
 الذي اثبت سيرته ما طالما اثبتة الاختبار من ان الامور العظيمة
 لا يفعلها ذوو القوة والافتقار الطبيعيين بل من يستعمل قواه
 باجتهاد وبمخاضة اكتسب بالكد والمزاولة والانصباب والاختبار
 لان كثيرين كانوا في عصره اعلم منه لكن لم يجتهد احد في تحويل
 كل معرفته وقواه لغايات مفيدة مثلاً. لانه كان يجتهد ويواظب
 على اتباع النتائج اكثر من كل شيء ومرن قوة الانتباه التي فيه

الموقوف عليها فعل كل قوى العقل الفاعلة في اتمام الاعمال .
ولقد اجاد مستر ادجورث اذ قال ان الفرق بين عقول البشر
يتوقف على اختلاف قوة الانتباه اكثر مما يتوقف على اختلاف
بقية قوى العقل

ورضع وط العلوم مع اللبن لان اياه كان يصنع آلات فلسفية
وفلكية وكان في دكانه عدد من الارباع ^(١) فاتمبه وط بها الى
درس البصريات والهئية . وكان جسمه نحيفاً فاقناده ذلك الى
درس الازيولوجيا . وكان يحب الجولان في البراري فاقناده
ذلك الى درس النبات والتاريخ . وطلب منه مرة ان يصنع ارغناً
لانه احترف حرفة ابيه عمل الآلات الرياضية ولم يكن يعرف
علم الابعاد فدرسه برغبة ونشاط وصنع الارغن المطلوب فجاه
بديع الانتان . وطلب منه ذات يوم ان يصلح مثلاً من آلة
نيوكن البخارية لمدرسة كلاسكو الكلية فانكب على درس كل ما
كان يُعرف حينئذ من نواميس الحرارة والبخار واصطناع
الآلات الميكانيكية وظهرت نتيجة دروسه في الآلة البخارية التي
اصطنعها

اما اصطناعه الآلة البخارية فصرف فيه عشر سنين وهو
بين مكتشف ومخترع ولا نتيجة تسره ولا صاحب بنشطة وكان
في الوقت نفسه يحصل ما يقوم باوده واود اهله من اصطناع

(١) جمع ربع وهو آلة بصرية فلكية .

الأرباع والأعواد وغيرها من آلات الطرب وتعاطى أيضاً فن
 مساحة الأراضي وتخطيط الطرق وإدارة حفر الترع وكل ما
 يعود عليه بالريج . ثم وجد معيناً له رجلاً حاذقاً نشيطاً معباً
 للاختراع يُسَمَّى مَتَّى بَلْتَن . فاخذ هذا الرجل على نفسه امر
 استخدام آلة وط المكثفة لتحريك الآلات المختلفة (١) . ثم تداولت
 هذه الآلة أيدي المخترعين فزادوا منها وأصلحو كثيراً إلى أن
 جعلوها مناسبة لكل الأعمال تقريباً . وهي الآن تدبر الآلات
 وتسير السفن وتطحن الحبوب وتطبع الكتب وتسك الدراهم
 وتطرق الحديد وترفع الأثقال وتسخق الأقمشة وتحرق الأراضي
 وبالاختصار تفعل كل امرٍ يحتاج فيه إلى قوة . ومن أفضل
 التحسينات في هذه الآلة جعلها مناسبة لتسيار المركبات البرية
 الأمر الذي شرع فيه ترفيثيك وتمه جورج ستفنسن وابنه وبمكنا
 أن نحسب هذه الآلة اختراعاً جديداً بل قد تُفَضَّل على آلة وط
 في ما فعلته في زيادة العمران

ومن أعظم نتائج اختراع وط انشاء معامل القطن ومنشأها
 بلا خلاف هو السررتشرد اركريت الذي يُعْتَبَر لاجل حداثته
 ونشاطه أكثر مما يُعْتَبَر لاجل اختراعاته غير أن من الناس من
 لا يقر له بشرف الاختراع كما أن منهم من لا يقر لوط . ولعل

(١) من أراد الوقوف على تاريخ حياة مدين الفاضلين واختراعاتها
 بالتفصيل فعليه بكتاب آخر للعلامة صميلس مؤلف هذا الكتاب

نسبة اركريت الى آلة الغزل نسبة وط الى آلة البخار ونسبة
ستفنصن الى سكة الحديد لانه جمع شتبت خيوط متفرقة ونسج
منها هذا الاختراع العظيم . قبل ان رجلاً يسمي لويس بول اخذ
اجازة المحصر على آلة للغزل تغزل بواسطة بكرات قبل اركريت
بثلاثين سنة ولكن آله كانت ناقصة من اوجه كثيرة فاهمل
امرها . وقيل ان رجلاً آخر اسمه توما هابيس اخترع نول الماء
وآلة الغزل والظاهر ان اختراعه لم ينجح ايضاً . على اننا نرى انه
ما من اختراع الا خطر على بال كثيرين حينما همت الحاجة اليه
وكل منهم خطأ فيه خطوة او اكثر كما هو الحال في الآلة البخارية
وقنديل الامانة والتلغراف الكهربائي وغيرها من الاختراعات
ودام الامر على مثل ذلك الى ان قام رجل فاق اقرانه في العقل
والاقدام فخطا الى ما امامهم واستخلص كل ما ارتأوه وازادته الى
ما ارتأه بنفسه فخرج منه الاختراع التام وحينئذ علا صبح اولئك
المقصرين في ميدان هذا الاختراع وصوبوا سهام ملامهم تجاه المخترع
العظيم فاضطر ان يدافع عن اسمه وحقوقه

هذا ولنرجع الى كلامنا عن رتشارد اركريت فنقول ولد
هذا الرجل في برستون سنة ١٧٢٣ للميلاد من اربوين في غايه
الفر والمسكنة . وكان صغير اخوته واخوانه الذين كانوا ثلاثة
عشر ولم يدخل مدرسة قط وبقي حتى وفاته ضعيفاً في الكتابة .
اما صناعته فكانت الحلاقة ولما تعلمها فتح دكاناً في بلن تحت

الارض وكتب فوق بايه هلموا الى الحلاق الارضي فانه ياخذ على الراس عشرين بارة فاضطر غيره من الحلاقين ان يفللوا اجرة الحلاقة مجازاة لانه فاعان انه يخلق حلاقة جيدة بعشر بارات وبعد بضع سنين ترك هذه الصناعة واخذ يجول في البلاد يبيع الشعر لانه شاع حينئذ لبس الشعور العارية . وكان يعاطى ايضاً استخراج خضابات كياوية للشعر . ومع كل اقدامه واجتهاده لم يكن يكسب اكثر مما يكفي للقيام باوده

ونحو ذلك الوقت تغير زي الشعور العارية فاضطر الى ان يترك تجارتها ويأخذ في عمل آخر وهو اصطناع الآلات او كما كان يقال اختراع الاختراعات . وفي غضون ذلك كانت قد جربت التجارب الكثيرة لاختراع آلة للغزل فعزم ان يزوج نفسه بين اولئك المجرىين فانزل قاربه الى بحر الاختراعات عازماً ان لا يرجع الا منصوراً . وكان قبيل ذلك قد صرف فيها كثيراً من وقته في اصطناع آلة تحرك حركة دائمة كما هو شان اكثرهمي الحرف فاعد عقله لاختراع اهم واثبت وهو اختراع آلة الغزل ولما اخذ فيه انكب عليه برغبة لا تجد الى ان نفذ ما جمعه من المال اليسير واتصل الى حالة الفاقة الشديدة . فلما رأت زوجته ذلك فرغ ما عندها من الصبر فاخذت جميع آلاته ورسومه واطعمتها النيران املاً بان تصرفه عنها الى اتباع حرفة تقوم باحتياجات اهل بيته . فاستشاط منها غيظاً واخذ

منه الفضب كل مأخذ حتى انه هجرها حالاً
وكان قد تعرّف بصانع ساعات يسمّى كاي ساعدهُ في
اصطناع الآلة التي قدّر لها الحركة المستمرة فظن بعضهم ان كاي
هذا اخبره بمبدأ الفزل بالبكرات وقيل بل انه خطر بباليه مبدأ
آلة الفزل عند رؤيته قطعة حديد مائة قد استطلت برورها
بين بكرتين من حديد . وكيفما كان اتصاله الى مبدأ آلة الفزل
فمن المعلوم انه تفرغ لها بكلية ولم ينسك عنها حتى جاء بالنتيجة
التي ليس لكاي من فضل عليه بها سوى علمه له المثال حسب
ارشاده . الا انه صادف مصاعب كثيرة في اشهر آله هذه لان
من عادة الصناع ان يقاوموا كل آلة جديدة خوفاً من ان تكسد
بصاعتهم بها فاضطرّ الى مباينة وطنه والتجأ الى نوتنهام التي كانت
آمن قليلاً . وكان قد وصل الى حالة يرثى لها من الفقر والمسكنة
حتى التزم البعض ان يتصدقوا عليه يسير من الدرهم لاتباع
ما يحتاج اليه من الأكسية فطلب الامداد من بيت ريب فدهو
ببيلع من المال مشرطين عليه ان يقاسمهم الربح . لكن لم يمكنه
اقنان آله بسرعة كما انتظروا فاعزوا اليوان بلنحي الى بيت
استرت ونيد واسترت هذا مخترع حاذق وهو الذي اخترع آلة
لعمل الجوارب فلما رأى آلة اركريت عرف قيمتها فاشتركا معاً
وساعداه على انقلها واخرجاه لاجازة حصر سنة ١٧٦٤ (وفي
تلك السنة خرجت اجازة الحصر الشرعية لوط باليه البخارية

تحت اسمي . والآلة الاولى التي انشأها اركريت كانت تدبرها
 الخيل ثم انشأ اخرى اكبر منها يدبرها الماء . وبني على اركريت
 ان يحسن هذه الآلة لانها لم تنزل تحتاج الى اصلاحات وتحسينات
 كثيرة وكانت نفقتها لم تنزل اكثر من ربحها فلم ينفك عن
 اصلاحها وتحسينها حتى جاءت آلة كاملة متقنة جزيلة النفع
 لكن عند ما اتت وحان له ان يجتري ثمار انجليو بغزارة قام
 الصانع عليه وهجموا على محل الآلة ودكوه الى الارض بحضور
 جنود الدولة واتصل الامر حتى لم تعد مصنوعاته تباع في السوق
 مع انها كانت احسن من غيرها وارخص ثم تصبوا ضده وابوا
 ان يعطوه المال المعين على من يستعمل آله بل قلموا ضده في
 المحكمة والقوا اجازة الحصر التي نالها . قبل مر مرة بمخضوم
 الذين غلبوه فقال واحد منهم على سماع منه لقد غلبنا هذا الخلاق
 فاجابهم على الفور لا باس لم ينزل معي موسى لاطفكم . ثم عاد
 فاقام معامل اخرى في لانكشير ودريشير ونيولانارك من
 اسكتلندا ورجعت الى يده معامل كرمفرد عند انتهاء مدة شراكتي
 مع استرت . وازدادت مصنوعاته ووصلت الى درجة عليا من
 الاتقان فصارت له سلطة مطلقة على هذا النوع من البضاعة
 وصار يحدد الثمن كما يشاء . وكان هذا الرجل من اثبت الناس
 عزيمته واكثرهم اقلما واقواما جلتا وكان له مع ما ذكر حفاقة
 ومهارة قل من ضاهاه فيها . وقد تراكت عليه اعمال كثيرة

صعبة حتى لم يكن له فرصة للاكل فكان يشتغل من الساعة
 الرابعة صباحاً الى الساعة التاسعة مساءً اي من قبل الظهر يتسع
 ساعات الى تسع بعده . ولما صار له خمسون سنة من العمر شرع
 في درس النحو وتصلح الخط والتجئة وبعد ان غلب كل المصاعب
 التي قامت في طريقه اخذ في اجتناء ثمار اتعابيه ولم يمض عليه
 اكثر من ثماني عشرة سنة منذ اقام آلهة الاولى حتى ارتقى الى
 درجة سامية جداً من المجد والاعتبار في عيون اهل بلاده فانتخب
 مديراً على مقاطعة دريشير وبعد هنيئة انعم عليه الملك جورج
 الثالث بلقب البيت . وكانت وفاته في السنة ١٧٩٣ . ومهما كانت
 مقاصد هذا الشهم لا يُشك في انه اقام في البلاد الانكليزية صناعة
 اكسبتها غنى وافراً

واذا التفتنا الى بقية انواع الصنائع في البلاد الانكليزية
 التي هي مصدر غنى الامة ونقدمها في سلك الممالك المتقدمة رأينا
 انها ابتدأت عن يد اناس من رجال العمل ويمكن ان نحسب
 بين هؤلاء الرجال اهل بيت استرت وتنتس ومرشل وكوت
 وبيل واشورث وبرلي وفيلدن واشتون وهبود وانسورث الذين
 قام من خلفائهم رجال كثيرون اشتهروا في الاعمال السياسية
 مثل بيت بيل . وهذا البيت الشهير اي بيت بيل نشأ نحو
 او اخر القرن الماضي ومؤسسة فلاح من مكان بقرب بلكبرن
 اسم روبرت بيل . كانت بلكبرن والضياح المجاورة لها مشهورة

بنسج الاقمشة وكان من عادة الفلاحين ان يستعملوا الحياكة في
 اوقات الفراغ من عمل المحنول لان الاراضي لم تكن خصبة لتاتي
 بها يكفهم ففتح روبرت بيل نولاً في بيته وكان اميناً ففتح في عمله
 وهو اول من استعمل اسطوانة الندف المخترعة حديثاً . ولكن
 افكاره كانت منجبهة الى كيفية طبع الاقمشة لان هذه الصناعة لم
 تكن شائعة حينئذ فامتحن في ذلك عدة امتحانات في بيته آملاً
 اختراع آلة للطبع . وكانت الاطعمة تسكب في تلك الايام في
 صحاف من معدن فرسم ذات يوم صورة على صحفة من هذه
 الصحاف وخطر على باله ان يطبع بها القماش . وكان يسكن
 بالقرب من بيته امرأة عندها آلة اصقل الاقمشة فقام اليها ووضع
 الصحفة في الآلة ووضع فوقها قطعة شيت ثم ضغطها بالآلة
 فانطبعت الصورة على الشيت . ومن وقتئذ جعل يجرب ويمتحن
 الى ان صنع آلة متينة لطبع الاقمشة واول قطعة طبعها بها طبع
 عليها صورة ورقة بقدونس وهو بالانكليزية برسلي فلقب برسلي
 بيل الى هذا اليوم (اما آلة الطبع المسماة آلة البغل فصنعها احد
 اولاده رئيس معمل بيت بيل وشركائهم) وعند ذلك ترك الفلاحة
 وانتقل الى بر كسيه قرية تبعد نحو مياين عن بلكرن واخذ يعمل
 في طبع الاقمشة هو واولاده الذين لم يكونوا اقل منه نشاطاً ودام
 على ذلك عدة سنوات ولما بلغ اولاده اشد هم انشا كل منهم معلاً
 خاصاً به واستخدم عدداً كثيراً من الفعلة . ويبين من امر

روبرت بيل انه كان فطناً نبيهاً ناظراً في العواقب. قال ابنة
 السر روبرت بيل ان ابي هو مؤسس عائلتنا وكان يعرف اهمية
 التجارة لصالح الامة وكثيراً ما كان يقول ان الارباح التي يربحها
 الافراد من التجارة لا تُعد شيئاً بالنسبة الى ارباح الامة اجمالاً

اما السر روبرت بيل بن روبرت بيل الاول فورث عن
 ابيه الاقدام والاجتهاد ولما استقل بنفسه لم يكن له مال ولا ثروة
 لان ابيه لم يكن قد اثري فاشترك مع خاله جيمس هورث ورجل
 آخر يُسمى وليم يتس من بلكبيرن وكان راس ما لم خمس مئة لبرا
 واكثرها من وليم يتس ولم يكن روبرت قد ناهز العشرين ولكنه
 قدر مع صغره على القيام بهذا العمل العظيم. وما قيل فيه ان له
 راس شيخ وبدن شاب. فاشترى هؤلاء الثلاثة مطبخة منهدمة مع
 اراضٍ مجاورة لها قرب بلدة بري وصنعوها معبلاً وذلك سنة ١٧٧٠
 ثم اضافوا اليه معبلاً غزل. وما ياتي يظهر شكل معيشتهم حينئذ.
 كان وليم يتس متزوجاً ففتح بيتاً وضم روبرت بيل اليه لانه كان
 عزيزاً فكان يدفع له عن اكله وسكنائه ثمانية اشلان (جمع شلن
 قطعة من مسكوكات الانكليز تساوي نحو ستة غروش) كل
 اسبوع ولكن وليم يتس وجد هذا المبلغ قليلاً وطلب ان يزداد
 عليه شلن كل اسبوع فلم يقبل بيل بذلك ووقع بينها الخلاف
 فال امر الى الانفصال ولكنها اتفقا بعد مدة على ان يدفع
 بيل نصف شلن فوق الثانية اشلان. وكان لبتس ابنة صغيرة

اسمها آرين فعلق بها قلب بيل وكان حينما يرجع من عمله مساء
 يجلسها على ركبتيه ويقول لها ألا تأخذيني يا ان فتقول بلى .
 فيقول لها اذا ساستنظرك الى ان تكبري ولا آخذ غيرك وهكذا
 صار لانه انتظرها عشر سنوات اي الى ان بلغت الثامنة عشرة
 فاتخذها له زوجة وكانت من اكبر مساعديه لانها استمرت عدة
 سنوات بعد زواجها تكتب مكاتيبه وتصنع حساباته لانه لم يكن
 ماهراً في الكتابة وتوفيت سنة ١٨٠٢ بعد ان قُلب زوجها رتبة
 البارونية بثلاث سنين . قيل ان المعيشة في لندن اضرت
 بصحتها لانها مخائفة لما اعادت عليه في بيت ابيها فجعل ابوها
 يقول لو لم يجعل روبرت ابنتنا التي سيدة (لاديا) ما ماتت
 باكراً

واستمر عمل بيس وييل وشركائهما مدة طويلة سائراً في
 سبيل النجاح وكان بيل روح ذلك العمل باجتهاده وانصابه
 وحكمته ومهارته في البيع والشراء وقدرته على مواظبة اعماله الى
 حد يفوق التصديق . والخلاصة ان نسبة هذا الرجل الى طبع
 الاقمشة نسبة اركريت الى غزل الفطن . وما يستحق الالتفات
 ان بيلاً وشركاه لم يقتصروا على تحسين مصنوعاتهم وجعلها من
 الطراز الاول بل اجتهدوا ايضاً في ترقية شان فعلتهم فزادهم
 ذلك شهرة وشرقاً

ومن صفات السر روبرت بيل المعبرة الثغاة الى كل

اختراع جديد فعند ما اخترعت مادة تظلي بها الاقشة حينما يراد ابقاؤها بيضاء اشترها من مخترعها بمبلغ كبير من المال واخذ في امتحانها مدة سنة او سنتين الى ان بلغت غاية الانقان فجعلت معاملة في راس كل معامل طبع الاقشة

ومن جملة موسسي الصنائع المشهورين النفس وليم لي مخترع آلة عمل الجوارب . ويوحنا هثكوت مخترع آلة عمل الخرج . اما الاخبار التي وصلت اليها عن اختراع آلة الجوارب فيها بعض الريب والتناقض ولكنها تنفق في اسم المخترع وليم لي الذي وُلِدَ في ودبرو قرية تبعد سبعة اميال عن نوتنهام نحو سنة ١٥٦٣ وفي انه كان فقيراً ودخل خادماً وتلميذاً معاً في مدرسة كمبردج في شهر ايار من شهر سنة ١٥٧٩ ثم انتقل الى مدرسة مار يوحنا ونال رتبة بكالوريوس في العلوم سنة ١٥٨٣ ورتبة معلم في العلوم سنة ١٥٨٦ . وحينما اخترع لي آلة عمل الجوارب كان قسيساً لقرية كلثرتون بقرية نوتنهام . قيل انه شغف حينئذ بحب فناءه وكان حينما يزورها لا تلتفت اليه كثيراً بل تبقى محدقة في علمها وهو عمل الجوارب فاستاء من عمل الجوارب باليد وعزم من يومه على اختراع آلة العمل الجوارب فيبطل علمها باليد واخذ يجرب ويمتحن مدة ثلاث سنوات الى ان فُجِجَ فتك انالسوسية واخذ يتعاطى عمل الجوارب بالآلة التي اخترعها . ومن رأى هذه الآلة وسهولة العمل بها عرف ما لمخترعها من

الفضل ولا سيما اذا قابلها بعمل النساء البطيء الممل . ومن تراه
يستطيع تعداد المصاعب التي صادفها هذا الرجل ولا سيما لانه
كان في عصر معرفة الصنائع فيه في درجة دنيا فاضطر ان
يصنع كل اجزائها البديعة بيده بل ان يصنعها كلها تقريبا من
الخشب امر يكاد يفوق التصديق . وبعد تعب ثلاث سنوات
كما قلنا سابقا صارت هذه الآلة صالحة للعمل فاستعملها في قرية
كثفرون عدة سنوات متوالية وعلم اخاه وكثيرين من اقربائه
استعمالها . واذ كان يرغب في احراز حياطة الملكة اليصابات
المللكة حينئذ المشهورة لاجل غرامها بعمل جوارب الحريراتى
لندن لكي يريها اياها فاراها للبعض من رجال البلاط وفي
جلبهم اللورد هنسدن فلم يكتف هذا اللورد برويتها بل تعلم
العمل بها ثم استأذن له بالمشول في حضرة الملكة فاراها الآلة
وعمل بها امامها فلم تلفت اليه الا لتفات الذي انتظره بل
اعترضت عليه على ما قيل مدعية ان آلة تبطل عمل كثيرات
من اللواتي معيشتهن من عمل الجوارب فلما رأى في منها ذلك
اوجس منها خيفة وعزم على مياينة بلاده وكان سلي الحكيم وزير
هنري الرابع ملك فرنسا قد طلب منه ان ياتي الى روان ويعلم
اهلها كيفية عمل هذه الآلة والعمل بها وكانت روان حينئذ
من اكثر مدن فرنسا معامل فقيل دعوتة ورحل الى فرنسا
سنة ١٦٠٥ واستصحب معه اخاه يعقوب وسبعة فعلة فقبول

في روان بالترحاب واخذ يعمل هناك بنجاح عظيم . ولكن السعد
ابن الألبعاد عنه لان هنري الرابع الذي توقع منه لي ان يسبق
عليه العم الوفرة حسيما وعده قتل غيلة فخاف من ضياع حقوقه
واتي بارنز قاصدا اثباتها في المحكمة فلم يعبأ به احد لانه برونستاتي
واجنبي ففضى نجبة في بارنز وهو في غاية المسكنة وهرب اخوه
مع سبعة من الفعلة بالآتم الى بلاد الانكليز واشترك مع رجل
اسمه اشتون وانشأ معملآ في ثوروتن وجريا فيه بنجاح عظيم
واشتون هنا زاد على الآلة الرصاصات التي تخفض ابرها . ولم
تلبث هذه الآلة ان شاع استعمالها وكثر العاملون بها حتى صارت
صناعة عمل الجوارب فرعا مہا من صنائع الانكليز

ومن اهم تنوعات هذه الآلة الآلة التي ينسج بها النسيج
المعروف بالخرج او التفتنه وصانها فرست وهلمس فانها حولا
آلة عمل الجوارب الى عمل الخرج وشاعت هذه الآلة كثيرا حتى
استعمل منها اكثر من الف وخمس مئة آلة في اقل من ثلاثين
سنة وكان عدد الصناع العاملين بها يزيد على خمسة عشر الف
ثم اهلكت بسبب الحروب المتواصلة وتغير الازياء وغير ذلك وما
زال في زوايا النسيان الى ان قام جون هيشكوت واخترع آلة
جديدة ومن ثم ثبت هذا النوع من الصناعة على اساس وطيد
وهاك تاريخ اختراعه بالاختصار

ولد جون هيشكوت في ديفيلد من دريسشير سنة ١٧٨٣

وكانت تلوح عليه علامات العجاجة وهو صغير يتعلم مبادئ العلم
 لكن لم يسمح له وللداه أن يقيم في المدرسة مدة طويلة بل وضعاه
 عند صانع انوال ليتعلم حرفته فلم يمض عليه وقت طويل حتى
 صار حاذقاً في استعمال الآلات والأدوات المختلفة وعرف كل
 الاجزاء المركبة منها آلة الجوارب واخذ يحاول اصلاحها كلما
 سخط له الفرصة . وبين ما قاله فيه مستر باري احد اعضاء
 البرلمان انه عزم وهو بعد في السادسة عشرة على عمل آلة تصنع
 خرجاً مثل خرج بكتهام وفرنسا الذي كان يصنع باليد فاصح
 نول السدي حتى صار يمكنه ان يعمل بكفوفاً ومن ثم وطن نفسه
 على اصطناع آلة لعمل الخرج . وكانت آلة الجوارب قد اصبحت
 حتى صار يمكن ان يصنع بها خرج هدي عراه معكوفة كعري
 الجوارب لكنه كان سريع العطب كثير الافلات وبالتالي غير
 مرضي فاجهد كثير من صناع نوتنهام في اختراع آلة ثني
 العري كما في عمل الشبكة فذهب تعبه سدي ومنهم من صرف
 كل امواله ومات فقيراً او جنّ وهام على وجهه

ولما ناهز هثكوت الحادية والعشرين مضى الى نوتنهام وكان
 يعمل فيها الانوال فاعتبر كثيراً الاجل مهارته ونباهته وتمتلكه ولم يزل
 عاقداً قلبه على عمل آلة ثني العري فتعلم عمل خرج بكتهام الذي
 كان يصنع على الخدة فاصداً ان يصنع آلة تعمل مثله وكان هذا
 العمل صعباً مملأً بتضي مواظبة كلية وحفاقة عظيمة الا انه

صبر وثأني فقال ما تمّنى . وقد وصفه معلّمه بقوله انه رجل صبور
مواظب منكر نفسه كثير الصمت لا يضعف من الفشل ولا من
الغلط قوي الامل يثق كل الثقة ان اتعابه ستكفل بالنجاح وقد
تكلمت وصنع آلة لعمل المخرج يعجز القلم وصفها واخذ لها اجازة
المحصر وهو في الرابعة والعشرين

ولم تكن امرأته اقل اهتماماً منه في اتمام هذه الآلة فنالت له
ذات ليلة بعد ان تعب فيها اشهرًا واعوامًا هل صارت نعل
فقال لا ويجب ان افككها واركيها ثانية فلم تقدر ان تضبط نفسها
عن البكاء ولكنها اتانا بعد اسابيع قلائل ويده قطعة من
المخرج صنعها بها . وقد اصاب هذا الرجل ما اصاب اكثر
المخترعين اي لم يعترف له في اول الامر بانه المخترع الاول ولم يُعط
اجازة المحصر الا بعد المحاكمة الشرعية وصدور الحكم له . قيل ان
السر جون كيلي الذي حامي عنه رأى انه يلزمه ان يعرف كيفية
تركيب هذه الآلة والعمل بها لكي يتمكن ان يناضل عنه بقوة فركب
الى نوتنهام حيثما كانت الآلة ونزل في النول ولم يخرج حتى عرف
وظيفة كل جزء من اجزائها وتعلم العمل بها ثم رجع الى المحكمة
ووضع مثال الآلة امام ارباب المجلس واخذ يعمل به ويشرح
تراكيبه وافعاله بمجذابة ومهارة حيرت عقل الناضي وعقول ارباب
المجلس وكل المحاضرين فخرج الحكم له
قلنا ان هكوت نال اجازة المحصر ولكنه فحص فرأى ان

اكثر من ست مئة آلة قد صنعت بحسب آلتها ففوضت اليها
الدولة ان ياخذ من اربابها ضريبة مالية فحصل له من ذلك ربح
وافر وكانت مكاسب العاملين بها وافرة جداً فامتد استعمالها
بسرعة كلية وانحط ثمن المخرج من خمس ليرات للذراع المربعة الى
غرشين ونصف وذلك في اقل من خمس وعشرين سنة . وكان
معدل دخل المخرج السنوي في هذه المدة اربعة ملايين ليرا
انكليزية ونيف وعدد العاملين به مئة وخمسين الفا . اما هكوت
فاقام معامل في لوبروس سنة ١٨٠٩ وبقي هناك عدة سنوات وهن
في اوج النجاج وعندئذ عدد غدير من النعلة واجرة الواحد منهم في
الاسبوع من خمس ليرات الى عشر

لكن وان يكن اختراع هذه الآلة قد فتح باباً لتشغيل كثيرين
تدمر النعلة منها زاعمين انها قد قطعت معاشهم فعندوا تجمعا
انفقوا فيه على تخريب كل ما امكنه تخريبه منها . وسنة ١٨١١
حدثت مناوذة بين المعلمين والنعلة في معامل الجوارب والمخرج
في الاقسام الجنوبية الغربية من ننتهمشير ودريشبير
وليسسترشير فجمع النعلة في ستون وتجانفوا على تكسير كل آلات
الجوارب والمخرج واجروا ذلك فعلاً ولكن الدولة التفت القبط
على بعض رؤسائهم وعاقبتهم فلم يعودوا يفعلون ذلك جهاراً
بل خفية كما سمحت لهم الفرصة . وبما ان الآلات دقيقة جداً كانت
ضربة واحدة تعطّلها هذا فضلاً عن ان الابنية الموضوعة فيها

كانت منفردة عن بيوت السكن فكان الهجوم عليها سهلاً واجتمع
مكسرو الآلات في جوار تنهام التي هي مركز الشعب وتنظفوا في
فرق وعقدوا تجمعات ليلية دبروا فيها دسائهم واقاموا عليهم
فائداً يدعى ند لُد ومن ثم دُعوا للدين واخذوا في علمهم بكل
جسارة مدة فصل الشتاء من سنة ١٨١١ وسبوا خراباً عظيماً
وقطعوا رزق عدد وافر من النعلة فاضطر اصحاب المعامل الى
نقلها من الضياع والاماكن المنفردة الى محلات حصينة داخل
المدن . ويظهر ان اللدبين تشجعوا بخفة العناب الذي عوقب
به من قبض عليه منهم فلم يمض الا وقت قصير حتى امتدوا في
كل المقاطعات الشمالية والمتوسطة وخرّبوا كل ما طالت اليه يدهم
من المعامل وكان تجالهم سرّياً وجميعهم آلوا على انفسهم ان يطيعوا
قوادهم طاعة تامة في كل ما يامرونهم به وان كل من يفشي
مفاسدهم يعاقب بالموت . وحكموا بلاشاة كل الآلات سواء
كانت لعل الجوخ او الشيت او الخرج وقضوا على اصحابها بالقتل .
ويا لها من سنين مهولة عنا فيها هولاء الاشقياء . وما زالوا
يعثون حتى تلافيت الدولة امرهم والقت التنبض على كثيرين منهم
وعاقبتهم بالموت وبعد نعب عدة سنين اخذ هيجانهم وتلاشت
قوتهم

ومن عطل اللديون معاملهم هتكت مخترع آلة الخرج لان
جمهوراً منهم دخلوا معلة في او برو في احدي اللهالي والمشاعل في

أيديهم واضرموا فيه النار فحرقوا سنًا وثلاثين آلة ومصنوعات
 قيمها عشرة آلاف ليرا فقبض على عشرة عوقب منهم ثمانية بالنقل .
 فرفع هكوت دعواه على البلاد المجاورة طلبًا ان تقوم بالعطل
 فقرمت عشرة آلاف ليرا الآن القضاء طلبا منه ان يصرف
 هذا المبلغ داخل حدود مقاطعة لمتز فلر يجيبهم الى طلبهم لانه
 كلن قد عنم على نقل معاملو الى مكلن آخر فانتقل الى تيفرتين
 في ديقشدير وابتاع بناء كبيراً كان معملاً للصوف وورعة ووسعة
 واقام فيه اكثر من ثلث مئة آلة لعل المخرج وآلات اخرى لثني
 الغزل ووصل الحرير وعمل القباك واقتشاً ايضاً مسبك حديد
 لاصطناع ادوات الفلاحة وكان يرغب في ان يرى انعام كل
 الاعمال العظيمة بواسطة البخار ولذلك اجتهد مدة طويلة في
 اختراع محراث يفلح بفعل البخار وسنة ١٨٢٢ اتصل في اثنان هذا
 المحراث الى درجة مكتمة من تحصيل اجازة المحصر ولم يزل محراثه
 احسن ما صنع من نوعه الى ان صنع محراث فولر

وخالصة ما يقال عن هذا الرجل العظيم انه كان ثاقب
 الفكر شديد الرأي سريع المخاطر محباً للعمل اميناً مستقيماً منصفاً
 وبما انه نال ما ناله باجتهاده كلن اذا رأى شاباً من العاملين
 عنده مجتهداً نشطاً وقوى عزمه حتى يزيد اجتهاداً وتنهماً .
 وقد انكب مع كثرة اعماله على تعليم اللغة للفرنساوية والابطالية
 فانتهاها وطلع ناليف كثيرة بمن ذاخراً في غفلة كنوز المعرفة

الثمينة . وكان في معامله فوق الألفى صانع وجميعهم اعتبروه
 كاتب لم فانه كان يهتم براحتهم ورفاهتهم كاهتمامه بنفسه لان
 نجاحه لم يتزع الشفقة من قلبه كما يحدث كثيراً بين الناس بل
 زاده ليناً وحنواً فكان عضداً للفقراء ومجاً للبائسين . وبنى مدارس
 لتعليم اولاد الفعلة العاملين عنده انفق عليها سنة آلاف ليرا .
 وكان مع ما ذكر بشوش الوجه انيس المحضر محبوباً ومعزاً من
 الجميع . وسنة ١٨٢١ اخذته منتخبون نائبا لم في البرلمان
 فاقام في هذا المنصب نحو ثلاثين سنة وحينما تقى عن البرلمان
 بسبب الشيخوخة اهداه الف وثلث مئة من الفعلة العاملين عنده
 دواة من الفضة وقلماً من الذهب علامة لاعتبارهم له . وتوفي سنة
 ١٨٦١ وله من العمر سبع وسبعون سنة وقد ترك وراءه اماً تقف
 به ذريته مدى الازهار

والآن نلتمت الى شخص آخر ليس اقل شهرة من هثكوت
 ولكنه اقل سعداً منه وهو جكرد الشهير . ولد هذا الرجل من
 ابوين فقيرين من ليون صناعتها الحياكة ولما بلغ سن التمييز
 وضعة ابوه عند مجلد ليتعلم تجليد الكتب . وكان له ميل شديد
 الى عمل الآلات فاشار بعضهم على ايوان يعلمه صناعة توافق مائة
 فوضعه عند سكاكين (صانع سكاكين) وكان هذا السكاكين شرس
 الطباع فتركه جكرد وخدم عند صانع حروف . ثم توفي ابوه
 فاضطر ان يجترف الحياكة في نواياها ولكنه ما لبث حتى خطر له

ان يحسن هيئة النولين ويصلحها وانكب على ذلك بكلية ففسى
 نفسه ولم يشعر الا والفر قد فاجاه فباع النولين لكي يفي دينه .
 ونحو ذلك الوقت اقترن بامرأة فصار عليه ابن يعولها ايضا فباع
 بيته واخذ يفتش عن عمل فلم يستخدمة احد لان الجميع اعتمدوا
 انه كسلان عايش في الاوهام وليك يتصور جوعا الى ان وجد
 عملا عند صانع حبال وبقيت امرأته في ليون وكانت تعول نفسها
 من عمل برابط قش . ولا نسمع من امره شيئا الا بعد مضي عدة
 سنين ولكنه في غضون ذلك اتم عمل نول لنسج المنسوجات
 المنقوشة ولم يمض على هذا النول عشر سنين حتى صار منه اربعة
 آلاف نول تعمل في ليون . ثم حدثت الثورة في فرنسا فانقطع عن
 عمله وتطوع الى الحرب بين المتطوعين الليونيين ولما اخذت
 مدبتهم هرب وانضم الى جنود الرن فارفق الى رتبة سرجننت
 وربما كان يفي جنديا لولم يقتل ابنة مجانبه في احدى المعارك
 فترك العساكر ورجع الى ليون واقتصد امرأته فوجد انها لم تنزل
 تعمل برابط قش فاقام معها متخفيا ولكنه لم ينفك عن التامل في
 امر الاختراع واخيرا وجد نفسه مضطرا ان يخرج من مخنأه ويسعى
 في عمل يعمل به فانضم الى صانع ماهر وكان يعمل عنده في
 النهار ويرجع الى اختراعاته في الليل لانه كان يزعم ان نول
 المنسوجات المنقوشة يجتمل اصلاحات كثيرة وحدث يوما انه ذكر
 هذا الموضوع لمستاخره متاوها على ضيق ذات يده المانع له من

انمام مفاصده فاصغى اليه مستأجره ومدّه بهال كافٍ لكي يتم
 اختراعه في ساعات العطله فلم تمض عليه ثلاثة اشهر حتى اخترع
 نولاً بديع الصنعة وعرضه في معرض الصنائع الذي صار في
 باريز سنة ١٨٠١ ونال عليه نيشاناً . ثم زاره الوزير كورنو بنفسه
 في ليون . هنأه بنجاحه في اختراعه هذا . وفي السنة التالية اعلنت
 لجنة الصنائع في لندن انها تعطي جائزة لمن يبتكر آلة لعل الشباك
 فبلغ ذلك جكرد واخذ يتأمل في هذا الموضوع ولم يمض عليه
 ثلاثة اسابيع حتى اخترع الآلة المطلوبة فبلغ ذلك الامبراطور
 نيوليون فدعاه الى باريز وقابله بالترحاب والاکرام كما يليق
 بشخص مخترع عظيم ودام الحديث بينهما ساعتين فشرح جكرد
 للامبراطور كل ما يتعلق بنول المنسوجات المنقوشة وما يجتهد من
 الاصلاح فامر الامبراطور ان يعطى مكاناً في خزانه الصنائع
 والادوات وان يقدم له كل ما يحتاجه من الاوائل وامر له بمعاش
 كافٍ (هكنا هكنا والافلا لا) . فوجد جكرد في تلك الخزانة
 اوائل لا تخص ولا تعد وجميعها تشهد لفضل صانعيها وحذاقهم
 وفي جملتها نول لنسج الحرير ذي الازهار من عمل فوكسن الشهير
 اما فوكسن هذا فهو من الطراز الاول بين المخترعين بل
 هو مخترع منطور على الاختراع . يروى انه وهو ولد صغير رأى
 ساعة كبيرة تتحرك من نفسها فاخذ يتأمل في سبب حركتها ولم
 ينفك حتى فهم سبب حركتها تماماً فععمل ساعة من خشب تدل

على السماعات بكل دقة وعمل أيضاً ملائكة تحرك اجسامها وكهنة
 يمشون بعض الفرائض الدينية. ثم اخذ في تعليم التبرجج والموسيقى
 والميكانيكيات لكي يتسهل عليه امر اختراع الآلات. ورأى ذات
 يوم مغنياً يعنى على اللغوت في بساطين الكويلري فصنع شخصاً مقلداً
 يعنى نفس الغناء ولكن ذلك كلفة تعيب سبعين عديداً ثم صنع بطة
 تسبح وتشررب وتبسط كبطة حية ثم اصطنع صلاً لرواية كليونترا
 وكان يفتح ويشب الى صدر المشخصة كأنه صل حقيقي. لكنه لم
 يقتصر على عمل آلات كهذه لان الكردينال ده فلري عينه رقيباً
 على معامل الحرير في فرنسا فلم يلبث ان دخل في هذا المصعب
 حتى اتخذ يدخل اصلاحات كثيرة في آلات الحرير ومن الآلات
 التي اخترعها آلة ليرم الحرير ولكن هذه الآلة هيئت عليه صناع
 لليون فرجوه بالمشحارة والولا قليل الامانة. غير انه لم يفتك
 عن الاختراع فاخترع آلة لتسبح الحرير ذي الازهار واوجد
 طريقة لجعل كل الوشائع من قدر واحد. ثم توفي سنة ١٧٨٦
 واوصي قبل وفاته بكل الآلات للملكة غير ان الملكة لم تعتبر هذه
 الآلات فذهبت ادراج الرياح. اما آلة تسبح الحرير ذي الازهار
 تحفظت لحسن الحظ في خزانة الآلات والادوات لتكون مرشداً
 للكردي في عمل نوله. ومن اهم اجراء هذه الآلة اسطوانة ذات
 ثقب اذا اديرت حركت ابراً حركات معلومة بواسطة ثقبها
 وقرنت الاسدجة على نوع يجعل رسماً معلوماً فلما رأى جكرد هذه

الآلة طار فرحاً واخذ من ساعته ان يصلحها بهمة مخترع حقيقي
 فأكمل اصلاحها في اقل من شهر زائداً عليها قطعة من الكرتون
 مثقوبة ثقوباً كثيرة تدخل فيها الاسديه وآلة اخرى تربي
 الحائك لون الوشيعه اللانزم طرحها في النول فاعناض بذلك
 عن واحد يسحب الخيوط وعن آخر يقرأ الرسوم واهدى اول
 قطعة نسجها للإمبراطورة جوزفين زوجة نپوليون فسّر نپوليون
 بذلك سروراً عظيماً وامر احق الصناع ان يصنعوا عدداً من
 الانوال حسب مثال جکرد واهداه اياها فاخذها ورجع الى
 ليون . فصادف في ليون ما لا بد منه لكل مخترع . فان صناعها
 نظروا الى نولو كعدو قاصد ان يتقطع رزقهم فجمعوا وعزموا ان
 يقتلوه ويلاشوا آلاته فجروه الى النهر ليغرقوه لكن التقادير
 ساعدته فنجوا من ايديهم . ولم يمض وقت طويل حتى عرف فضل
 هذا الرجل وشاع استعمال نولو في ليون كثيراً فكان منه فيها سنة
 ١٨٢٣ ستون الف نول بحسب تعديل مسبو ليون فوشه . وعاش
 جکرد بعد ذلك بالهدوء والسكينة محبوباً من الجميع . ثم عرض
 عليه ديوان البلدية في ليون ان يتفرغ لاصلاح نولو لخير الوطن
 بالاجرة التي يخارها فقبل بذلك وادخل فيه كل الاصلاحات
 اللازمة ثم تنحى عن الاعمال وله من العمر ستون سنة ورجع الى
 اولينس لينهي ما بقي له من العمر في مولد ابيه فاناة نيشان الشرف
 سنة ١٨٣٠ وتوفي هناك سنة ١٨٣٤ وأقيم له نصب عظيم الآن

اقاربه بقوا في الفقر الشديد وبعد موته بعشرين سنة باعت ابنتا
 اخيه النيشان الذهبي الذي قلدهُ يو الملك لويس الثامن عشر.
 قال احد الفرنسيين هذا هو جزاء اهل ليون لمن كان سبباً
 لغنهم ومجدهم

ويمكننا ان نذكر سير كثيرين من المخترعين وما احتملوه من
 الالعاب وعانوه من البلايا مع انهم لم يجنوا شيئاً من ثمار انعامهم
 بل ذهبوا وتركوها لغيرهم لكن في ما ذكرناه كفاية على انه لا يحسن
 بنا ان نختم هذا الفصل بدون ان نذكر سيرة مخترع آخر حديث
 العهد وهو يشوع هلمن مخترع المشطه

ولد هلمن في ملهوس من الالزاس سنة ١٧٩٦ ودخل معمل
 القطن مع ابيه وهو في الخامسة عشرة ثم انتقل الى بيت عمه في
 باريز ودرس فيها الرياضيات وحينئذ انشأ بعض اقاربه معملًا
 لغزل القطن فوضعه في معمل الخواجات نسو وراي في باريز
 ليتعلم هذا العمل وباخذ ادارة معلم فتعلم كل ما يحتاج اليه
 من تركيب الآلات وما اشبه ورجع الى الالزاس واخذ ادارة
 المعمل ولكن حدثت حوادث تجارية اخرت اقاربه فانصل المعمل
 الى غيرهم فخرج منه ورجع الى بيته في ملهوس . وكان يصرف
 اكثر اوقات العطله في اختراع آلة للتطريز تحرك عشرين ابرة
 في وقت واحد فاتمها في سنة اشهر وعرضها في معرض سنة ١٨٣٤
 فنال عليها نيشاناً ذهبياً ونيشان الشرف . ثم اخترع اختراعات

اخرى كثيرة منها نول والنفاس النسيج وطوبو وادخل اصلاصات
 كثيرة في آلات كب الخرد والمظن وغزله ونسجها . ومن اعظم
 اختراعاته آلة تنسج طاقين من الخمل لو من كل نسج ذي خمل في
 وقت واحد ثم تفصلها بواسطة شيء فيها كسكين حاد . ولكن
 افضل اختراعاته تلكها واعطها آلة المشيط وهما ك نارنج اختراعها
 كان قد خطر على بال هذا للرجل منذ عدة سنين امكان
 استعمال آلة المشط النطن وتفتية الالياف الطويلة من القصيرة
 قبل غزله وكانوا يستعملون لذلك آلة غير متقنة كثيرة الخسارة
 فعرض مجمع النسيج في الازراسي جائزة خمسة آلاف فرنك لمن
 يخترع آلة المشط اتقن من الآلة المستعملة ففزع ملن لهذا
 الاختراع لا طمعا بالمال (لانه كان قد تزوج بامرأة غنية) بل
 محبة بشرفه الاختراع لانه كان يقول ان طالب المال لا يمكنه
 ان يعمل امورا جليلة وبعد ان تعب في هذا الاختراع سنين
 عديدة فقد ما معة من المال ولم يحصل على نتيجة مرضية فاعتد
 على مساعدة اصدقائه الذين قدموا له المساعدة اللازمة لانجاز
 اختراعه . ثم ملئت امرأته متيقنة انه على حافة الخراب فاتي بعد
 موعها الي انكسرت واقام في منفسه وعمل ممالا لما لتصل اليه من
 الاختراع في هذه الآلة عند احذق صناعتها لكنه لم يكن مرضيا
 فعاد الي اصلاصه وبعد تعب جزيل وصل الي حافة الياس
 فرجع الي فرنسا لكي يرى عائلته . واذ كان جالسا ذات ليلة في

بيته متاملاً في نصيب المخترعين وسوء حظهم التفت الى بناتو
 فراهن بمشطن شعورهن فخطر على باله حينئذ انه لو صنع آلة
 تمشط الشعر الطويل وترجع التصير الى خلف وهي راجعة لجاءت
 بالمطلوب فصنع آلة تشبه الماشطة تماماً تمشط القطن وتصل
 الالياف الطويلة عن القصيرة . هذه هي الآلة التي صار يمكن ان
 ينسج بواسطتها من نصف اقة من القطن خيط طوله ٢٣٤ ميلاً
 حتى ان ما ثمنه شلن واحد يُنسج خرجاً ثمنه نحو اربع مئة ليرا .
 وحينئذ اجتمع اصحاب سنة معامل من معامل لنكشير ودفعوا له
 ثلاثين الف ليرا لكي يجيز لهم استعمال هذه الآلة لمشط القطن
 ودفع له غازلو الصوف نفس هذا المبلغ ودفع له الخواجات مرشل
 من ليدس عشرين الف ليرا ليجيز لهم استعمالها في مشط الكتان
 فاندفق عليه الغنى بغزارة ولكنه لم يعش ليعتق به فوافته المنية ثم
 لحقة ابنة

الفصل الثالث

في الخزافين الثلاثة العظام وهم بالسِّي
 وبتغر وودجود

قال يوحنا رسكن . الصبر افضل في العزم وما من لذة ولا قوة الا
 والصبر اساس لما والرجاه نفسه لا تطيب يو النفس ما لم يصاحب بالصبر

في تاريخ صناعة الخزف امثلة على الصبر والمواظبة من اشهر
 ما جاء في ترجمات البشر وقد اتخبتنا من بينها ثلاثة وهي ترجمة
 برنارد بالسِّي الفرنساوي وجوان فردريك بتغر الجرمانى وبوشيا
 وودجود الانكليزي فنقول . ان عمل الآنية الفخارية البسيطة كان
 معروفاً ومشهوراً من قديم الزمان عند اكثر الشعوب القديمة
 واما عمل الآنية المدهونة بالميثاقل قدمية واشتهاراً على انه كان
 معروفاً عند قدماء الترسكانيين الذين كانت تباع مصنوعاتهم

في عهد اوغسطس قيصر بثقلها ذهباً ولم ينزل شيء منها في محلات
الذهب في اوربا

ومن الامم التي اشتهرت بهذه الصناعة عرب اسبانيا وكان
الامم معامل في جزيرة ميورقا حينما استولى عليها اهل بيناسنة ١١١٥
ويروى ان البيزيين اخذوا من جملة الغنمة بعضاً من الآنية
المدهونة ووضعوها في جدران كنائسهم القديمة في بينا علامة
لظفرهم ولم تنزل فيها حتى يومنا هذا. ثم بعد ذلك بنحو قرنين اخذ
الايطاليون بثقلون صناعة العرب وسموا مصنوعاتهم ماجوليكاً
نسبة الى محل معامل العرب. ومجي هذه الصناعة في ايطاليا هو
لوقا دلاً رويما النقاش الفلورنتيني. قال فزارى في وصفه انه
رجل لا يمل من العمل يفضي النهار وازميلة في يده ومجي الليل في
رسم ما يريد نقشه واذا خاف على رجليه من برد الليل الفارس
وضعها في سلة ملائة من النشارة قال وما ذلك بعجيب لاني ارى
الناس الذين لا يتعمدون احتمال مشقة البرد والحر والجوع
والعطش وما اشبه لا يمكنهم ان ينجوا. والذين يظنون انه يمكنهم
ان ينجوا ويشتهروا اذا كانت كل امورهم مهيأة ينجحون انفسهم
لان النجاج والشهرة لا يبالان بالنوم والراحة بل بالسهر والتعب.
وما احسن ما قاله ابو الطيب المتنبي
تريدون ادراك المهالي رخصة

ولا بد دون الشهد من ابر النحل

وما قال الأعرابي

ترور العزيم تنام ليلاً ومن طلب العلي شهر الليالي
 إلا أن لوقها هذا لم يتدر أن يحصل ما يكفي من صلصة النش
 مع كل ما كان عليه من الاجتهاد فخطرت له أن يجد مادة أقل
 قيمة وأسهل مراً من الرخام لعمل الرسوم التي كان يعملها فإخذ
 يصنع الرسوم المذكورة من الطين وكان همه الأكبر أن يشويها
 ويدهنها دهاناً ثابثاً لكي تقوم مقام الرخام. وبعد تعب شديد
 وتجارب كثيرة اكتشف مادة إذا دهن الطين بها وعرضه لحرارة
 شديدة جداً ذاب وصارت دهاناً ثابثاً. ثم اكتشف طريقة لتلوين
 هذا الدهان بلوان مختلفة وبذلك إرداد جماله جمالاً. فامتد
 صيته في كل جهات أوروبا واشترت مصنوعاته في اقطار فرنسا
 وإسبانيا وغيرها وكانت تباع باثمان باهظة. ولم يكن يصنع في
 ذلك العصر في فرنسا الأجرار وقدور بسيطة خالية من الدهان
 ودام الحال على هذا المثل إلى أن ظهر فريد عصره وناجته
 دهره الشهير بالسي الذي خارب الصعوبات بعزم وهمة تستفز
 كل مطلع على سبيله إلى العجب ولأنه مال كيف لا وهو رجل
 مهبات إن يأتي الزمان بخله إن الزمان بخله
 والآن قصدنا أن نورد طرقاتاً من ترجمة هذا الرجل وما
 احتمله من المناعب وكابده من المشقات إلى أن نال الغاية التي
 سمرها الذيل فتقول

وُلِدَ برنارد بالسي في جنوبي فرنسا في أبرشية اجان نحو
 سنة ١٥١٠ من والدين فقيرين جداً حتى لم يمكنها ان يعلمه في
 مدرسة ويشهد لذلك قوله ليس لي كتب سوى كتابي السماء
 والارض اللذين يشترك بهما الجميع . وكانت صناعة ابيه عمل
 الزجاج فتعلمها وزاد عليها علم تلويين وعلم الرسم والقراءة والكتابة
 ولما بلغ الثامنة عشرة قل الطلب على هذه الصناعة فاضطر الى
 ترك بيت ابيه والسعي في طلب رزقه من مكان آخر فسار نحو
 غسكوني وكان يعمل في صناعته حينما وجد عملاً واحياناً كان
 يعمل في مساحة الاراضي ثم قوم طريقة نحو الشمال وجال مدة
 طويلة في فرنسا وهولندا وجرمانيا . ودام على ذلك نحو عشر
 سنين ثم رجع الى وطنه وتزوج واستقر في مدينة سنتس واخذ
 يعمل في تلوين الزجاج ومساحة الاراضي ولم يمض عليه وقت
 طويل حتى عال وزاد خرجته على دخله فاخذ يعمل فكرته في
 ايجاد وسيلة لتكثير دخله فلم يجد افضل من دهان الخزف
 وتلويين اذا استطاع ذلك وكان يجهد هذه الصناعة كل الجهد
 حتى لم يكن يعرف كيفية جبل الطين وشبهه فكان عليه ان يتعلم
 كل شيء بدون معلم ولكن ما يؤمن علو الهمة وشدة الامل هون
 عليه كل امر عسير

روى بعضهم ان بالسي رأى ذات يوم كاساً ايطالية بديمة
 (ولعلها من عمل لوقا المتقدم ذكره) فاجمبه منظرها ورغب في

تتميلها رغبة شديدة ولا يبعد ان الوفا من البشر أو تلك الكاس
فلم تؤثر فيهم كما اثرت فيه وما ذلك إلا لانه كان مهتما حينئذ
بإبدال صناعته فلو كان عزيزاً لترك وطنه وذهب الى ايطاليا وتعلم
سر صناعتها ولكنه كان مقيداً بزوجة واولاد . فاستحضر جميع
العقاقير التي ظن انها تسيل على الخبز فتدهنه كدهان الكاس
التي رآها واشترى آنية خزف وكسرها قطعاً صغيرة ورش عليها
من تلك العقاقير وبنى لها اتوناً وشواها فيه مدة من الزمان فلم
يذب الدهان ولا على واحدة منها فكانت النتيجة تكسير الآنية
وإضاعة المحطب والعقاقير والوقت والتعب . ومن المعلوم ان
النساء اللواتي لا يهمنن إلا تحصيل الدراهم لاشراء القوت والكسوة
لاولادهن لا يعبان بالامتحانات العلمية هكذا كانت امرأة بالسبي
فلم تعلم له باشراء آنية اخرى زاعمة انها انما تُشترى لتكسر فقام
بينها التراع ولما رأته منشغفاً في التفتيش عن هذه الصناعة التي
اخذت منه كل ما أخذ تركته الى هواة فبنى اتوناً آخر واتلف فيه
مقداراً وافراً من الرقود والعقاقير والآنية وبعد تجربات كثيرة
بطول شرحها ذهبه الففر الشديد فلم يعد يستطيع اجراء
الامتحانات في اتونه . وما قاله بصدد ذلك انني انعكفت عدة
سنين على التفتيش عن المينا مجزن وتمهد لاني لم ابلغ غايتي . اه .
وكان عند ما تسمع له الفرصة يعمل في حرفته الاولى اي تلوين
الزجاج ورسم الصور ومساحة الاراضي غير ان ما يربح من ذلك

كان يسيراً جداً . واخيراً لم يعد يستطيع اجراء الامتحانات في
 اتونو بسبب غلاء الوقود فاشترى مقداراً وافراً من الآنية المكسرة
 وكسرها نحو اربع مئة شقفة ودهنها بمواد كياوية مختلفة ومضى بها
 الى معمل خرف يبعد عن سنتس نحو غلوة وانصف وشواها فيه
 ولما تمّ الشواء وجدها كما كانت فصمّ من ساعتها على اعادة
 التجارب من جديد

فلما انه كان يعمل بن المساحة وفي نحو ذلك الوقت صدر
 امر الدولة ببيع المالح التي في جوار سنتس لاجل الضريبة فتمعين
 بالسي لهذا العمل فكسب من ذلك ما مكّنه من مراجعة امتحانات
 فاشترى نحو ثلاثين اناء وكسرها شقفاً صغيراً ودهنها بمواد مختلفة
 وشواها في اتون زجاج بالقرب من سنتس فذاب بعض هذه
 المواد من شدة حرارة الاتون فانفتح امامه باب الامل الآن
 الدهان الايض كان لم يزل محبوباً عنه فدام سنتين اخريين يمتحن
 ويجرب على غير فائدة الى ان صرف كل ما كسبه من مساحة
 المالح . فعزم على ان يمتحن الامتحان الاخير فكسر مقداراً وافراً من
 الآنية نحو ثلاث مئة شقفة ودهن شقفاً بمرکبات مختلفة وشواها في
 اتون الزجاج ولما فتح الاتون وجد الدهان ذائباً على واحدة منها
 فقط وكان لما بردت ايض صقيلاً لامعاً جميلاً الى الغاية فحلها
 وهرول الى بيته وهو يكاد يطير فرحاً واراها لامراً ولكن لم يكن
 ذلك الدهان الحقيقي بل واسطة لاثارة رغبته وتحبيله

مشقات يعجز العلم عن وصفها . لانه لما رأى نجاحه هذه المرة بنى
 لنفسه انون زجاج بجانب بينو لكي يجري امتحاناً سراً وقضى على
 عمله نحو ثمانية اشهر اذ كان يعمل فيه وحده ولم يستخدم انساناً
 ولا بهيمة ولما اتمه عمل آنية خرف بيده وشواها ودهنها بالمركبات
 التي ظن انها تاتي بالمطلوب ووضعها في الاتون واضرم النار
 واخذ بوقد ذلك النهار بطوله ولم يذب شيء من الدهن فاجى
 الليل كله وهو بوقد لكن على غير نتيجة فانت اليه امرأته في الصباح
 بشيء من الطعام لانه لم يمكنه ان يفارق الاتون ثم مر اليوم الثاني
 ولم يذب شيء من الدهن وخيم الظلام ومضى الليل واشرفت
 الشمس ولم يذب منه شيء ومر اليوم الثالث والرابع والخامس
 والسادس مع لهايها لكن على غير نتيجة . ومن يقدر ان يصف
 مقدار التعب الذي كابدته ذلك الانسان في تلك الايام
 الطويلة فقال في نفسه لا بد من تنص في هذه المركبات فاخذ
 بركب مواد جديدة لكي يمتحنها آخر فمضى عليه ثلاثة اسابيع
 وهو يعمى وينزع ويركب فبقى عليه ان يجلب آنية اخرى لان الآنية
 الاولى التي عملها بيده تلتصق من خواصل النار عليها وقد تند كل ما
 معه من الوقود فاستعار من صاحب له مبلغاً من المال واشترى
 به آنية وقوداً ودهن الآنية بالمركبات الجديدة ورتبها في الاتون
 واضرم النار واخذ بطعمها من الوقود الذي اشتراه الى ان تند
 ولم يذب الدهان فتزع سماج جنينته ووقده ولكن على غير فائدة

فلم يبقَ امامه شيء قابل الاشتعال الا اثاث بيتي فترجع الرفوف
 والموائد والكراسي وكسرها واظمها النار فصرخت امرأتني بالويل
 والحرب ونادت الجارات هلمن لمعوتني على هذا الجنون وهاك
 كلام بالسي نفسه وهو ماخوذ من الكتاب المدعو اعمال بالسي
 في صناعة الخبز المطبوع في باريز سنة ١٨٤٤ صفحة ٣١٥ قال
 ” واذا هوزني الوقود التزمت ان احرق سياج جبستي ثم مواقد
 بيتي وكنت في ضيقة لا استطيع وصفها من شدة ما اعتراني من التعب
 وحرارة الاتون . ومضى على شهر لم يجف قميصي فيه . وعوضاً عن ان
 اعزى كنت اعبر حتى ان الذين كان يجب عليهم ان يساعدوني كانوا يجولون
 في المدينة صارخين انه حرق اثاث بيتي فتلهموا صيني وحمفوني في عيون
 القوم . وقد تمهي البعض بسك النقود الزائفة فالمني ذلك كثيراً حتى كنت
 اذا مشيت في الشوارع امشي مطرق الرأس كمن ارتكب نهباً ٠٠٠٠ ولم
 يعني احد من الذين حولي بل استهزأوا بي قائلين لا بأس اذا مات جوعاً
 فانه اهل صناعته . وكنت اسمع هذه الاقوال وانا ماراً في الشوارع .
 انتهى من كتاب بالسي“

ولم ينتن عن عزمه بل دام على هذا الحال مدة شهر الى ان
 اخذ التعب والأرق منه كل ماخذ وكاد يهلك جوعاً . وحينئذ
 ذاب الدهان فاخرج الآنية سنجابية اللون وتركها حتى بردت
 فاذا بها مكسوة قشرة زجاجية بيضاء فصدق فيه المثل القائل
 مَنْ تَأْتَى نَالَ مَا تَمَنَّى

فاستأجر حينئذ فخارياً ليصع له آنية خزفية بحسب ارشاده
 وصنع يده صوراً من الخبز فاصداً ان يدهنها بالدهان الذي

اكتشفه فبقي عليه ان يجد من يعوله هو وعائلته ريثما تكمل الآنية
 وتباع ولحسن الاتفاق بقي في سنتس رجل واحد يعتقد باستقامة
 بالسبي وان لم يعتقد بسداد رأيه وهو صاحب فندق فاتفق معه
 على ان يعوله ستة اشهر. واما الفخاربي الذي استأجره فاعطاه
 قسماً من ثيابه بدلاً من اجرته فعرض جسدُه من الثياب كما عرض
 بيته من الاثاث. ثم بنى اتوناً على شكل منتظم ولسوء حظو بطن
 قسماً منه بحجارة صوانية فحالما اضرم النار فيه نشطت الصوان
 وطارت شظاياها الى الآنية وعند ما تم شهبها وأخرجت من الانون
 كان الدهان ذائباً عليها حسب بغيره الا انه كان مخمباً ومشققاً
 مما لحقت من الصوان فحسر نعب ستة اشهر لكن الناس اقبلوا عليه
 راغبين في ابتاعها باثمان معتدلة فلم يبعهم اياها زاعماً ان ذلك
 يعطل اسمه. وما قاله في وصف حاله حينئذ الكلام الآتي اني
 مع كل ما ألمّ بي لم ينزل رجائي قوياً واملّي وطيداً ابش في وجه
 الناس اذا زاروني واطابهم في الكلام وقلبي ملآن كآبة وغماً
 واصعب ما قاسبت بهم اهل بيتي عليّ وازدراؤهم بي. كانت اتني
 مكشوفة سنوات عديدة وانا واقف امامها تحت رحمة العواصف
 والامطار بلا معين ولا مسلّ سوى مواد القشاط وهرير الكلاب
 حتى اذا ثارت الزوابع ولم اعد اطيعق القيام امامها اهول الى
 بيتي مبتلاً بالامطار ملطخاً بالاحوال مترنحاً من النعاس ترنح
 السكران فلا ارى فيه غير الملامة والتعبير. واني حتى الساعة

لا عجب من بقائي حياً مع كل ما قاسيت . اه
 ويقال انه اصيب حينئذ بما انقولها شديدة فهام على وجهه في
 التفار القريبة من ستس بشباب خاتمة كانه هيكلم من عظام .
 ومن قوله بهذا المعنى قد ذاب لحم ساقى حتى اذا ربطت جولري
 تحت ركبتى ومشيت سقطت الى الخنخل وما زال اهله وجيرانه
 يعبرونه ويستهبنون به حتى رجع الى صناعه الاولى وعمل فيها
 مجد نحو سنة من الزمان فاصح شانه وسكت عنه السنة الناس
 ثم عاد الى عمله المحبوب ولم يزل يجرب فيه ويمتحن حتى اتقنه
 غاية الاتقان في مدة ثماني سنوات مع انه اضاع في اكتشافه
 عشر سنين وبرع فيه بكثرة المزاولة والاختبار جامعاً ثمار المعرفة
 من فياني الفشل فتعلم في مدرسة الاختبار ماهية الدهان
 والاتربة المناسبة وكيفية بناء الاتن . وبعد ان مضى عليه ست
 عشرة سنة يتعلم في مدرسة الاختبار اجترأ ان يدعو نفسه خزاناً
 وصار يبيع مصنوعاته بقيمتها ويعول عائلته بالترفه . ولكنه لم يكتف
 بما وجدته ولم يقتر عن بذل الهمة في تحسين هذه الصناعة وايصالها
 الى اسى درجاتها فدرس الكائنات الطبيعية لكي يرسم اشكالها
 على مصنوعاته وقد شهد له ييفون الشهير انه كان من البارعين
 في علم الطبيعة . ومصنوعاته تُعد الآن من الجواهر النادرة وتباع
 باثمان تكاد تفوق التصديق فانه يبع في لندن منذ بضع سنين
 صحفة من عماء قطرهما اثنا عشرة عندة بمئة واثنين وستين ليرة

انكليزية . وجميع النفوس التي على مصنوعات ماخوذة عن صور
 الحيوانات والنباتات التي في جوار سنتس وهي في غاية ما يكون
 من الاتقان في الرسم والوضع
 قد ذكرنا بعض ما عاناه هذا الشهير في اكتشاف هذه
 الصناعة واتقانها ولكن مصائبه لم تنته هنا لانه كل من طامعة
 البروتستانت التي ثار عليها الاضطهاد في جنوبي فرنسا في ذلك
 الحين وكان جسوراً لا يجزع من بث آرائه فعدّ هرطوقياً وقام
 عليه خصومة وطرحوه في سجن برودو حتى تاتي نوبته اما معلقاً واما
 محروقاً . ودخل اهل الفتنه معمله وكسروا كل ما فيه من الآنية ثم
 قضي عليه بالحرق لكن توسط امره الكنتابل المقدر منورسي
 لا اكراماً له ولا لذهبه بل لانه لم يكن حينئذ صانع ماهر مثله
 لعل بلاط قصر الكنتابل الفاخر الذي كان آخذاً في اقامته في
 اكون فاخرج له امراً ملكياً يعينه مخترباً له وللملك فانفذ من محكمة
 برودو ورجع الى سنتس ولكنه رأى بيته ومعامله مفتوحة منهوبة
 ومصنوعاته مكسرة فنفض غبار سنتس عن رجليه وانتقل الى باريز
 واقام في التويلري وكان يعمل للكنتابل ولأم الملك (١)

(١) من برمة وجيزة اكتشف رجل مغرم باكتشاف آثار البروتستانت
 في فرنسا يسمى تشارلس ريد على الاقران التي كان يشوي بالسي مصنوعات
 فيها واحفر من هناك عدداً من القوالب عليها رسم وجوه ونباتات
 وحيوانات ونحو ذلك وعليها اسم بالسي المعروفة

وألف بالسبي في اواخر حياته عدة مؤلفات في صناعة
 الخنزف لكي يعلم لبناء وطنه هذه الصناعة ويرشدهم الى نجسب
 الاغلاط التي وقع فيها هو وألف ايضاً في الزراعة وبناء الحصون
 والتاريخ الطبيعي وقدم خطباً في هذا العلم الاخير. وكتب ضد
 التنجيم والكيميا (بمعناها القديم) والسحر وما اشبه من الخزعبلات
 فهاج عليه خصوصاً كثيرين اتهموه بالهرطقة ولم يزالوا حتى
 اودعوه السجن وهو في الثامنة والسبعين وهددوه بالموت اذا لم
 يرتد عن مذهبه لكنه كان متمسكاً به متمسكاً بالتفتيش عن دهان
 الخنزف فاتي الملك هنري الثالث الى سجنه وطلب منه ان يرتد
 عن ايمانه بولوا ايها الرجل الصالح انك خدمت امي وخدمتني
 خمساً واربعين سنة وقد حميناك في وسط النيران والمناجج والآن
 قد الزمني الشعب وحزب كيز ان اتركك في قبضة اعدائك
 وغداً تحرق ما لم ترتد عن مذهبك. فاجابه ايها المولى انا مستعد
 ان اسلم حياتي لاجل مجد الله ولقد قلت لي مراراً كثيرة انك
 تشفق عليّ وانا الآن اشفق عليك انت الذي قلت قد الزمني
 الشعب فان كلامك هنا ليس كلام ملك اما انا فلا انت ولا
 شعبك ولا احد يقدر ان يثني عزمي واني اعلم كيف اموت. وحسبنا
 قال مات. مات شهيداً ولكن ليس حرقاً بل في السجن بعد ان
 حُجس فيه نحو ستة. وهكذا انقضت حياة هذا الرجل الذي
 لا يضارعه احد في الهمة والاقلام والاستقامة

X الرجل الثاني جون فردريك بتغر مكتشف صناعة الخزف
 الصيني الصلب وُلد هذا الرجل في سكيلز سنة ١٦٨٥ ولما بلغ
 الثانية عشرة وُضع عند صيدلي في برلين فآظهر من صغره رغبة
 شديدة في الكيمياء فكان يصرف أكثر اوقات العطلة في الامتحانات
 الكيمائية وجل مقصده اكتشاف الأكسبر الذي يزعم انه يجبل
 كل المعادن الى ذهب . وبعد مضي عدة سنين ادعى انه اكتشف
 هنا الأكسبر واصطنع به ذهباً ويقال انه امتحن ذلك امام معلمه
 الصيدلي وعدد من الشهود واحتمل عليهم حتى اقتنم جميعهم انه
 صير النحاس ذهباً

فامتد خبره في الافاق ونفاطر اليه الناس من كل فج عميق
 ملقبين اياه طابخ الذهب حتى ان الملك نفسه اظهر اشتياقه
 لرؤيته والتكلم معه . وعرضت قطعة من الذهب التي زعم ان
 بتغر حوّلها من النحاس على فردريك الاول فحدثته نفسه
 باصطناع ما لا يحصى منها ولا سيما لان خزينة بروسيا كانت
 محتاجة الى النقود حينئذ فعزم على وضع بتغر في حصن سبندو
 ليعمل له الذهب فيه ولما بلغ بتغر ذلك خاف من الفضيحة وهرب
 الى سكسونيا فعين الملك الف ريال لمن يأتيه ولكن خاب
 مسعاه لان بتغر دخل سكسونيا وطلب حماية منتخبها فردريك
 اوغسطس الاول (ملك بولونيا) الملقب بالقوي فرح به جداً
 لانه كان محتاجاً الى النقود احتياجاً شديداً وارسله سراً الى

درسدن مصحوباً بجرس ملكي وعندما خرج من وتبرج جاءت
فرقة من الابطال البروسيين وطلبت ان يسلم صانع الذهب
ليدها لكن كان قد فات الوقت . فأوصل بتغر الى درسدن
وأنزل في البيت الذهبي وعومل بكل نوع من الاعتبار إلا انه
كان عليه حرس شديد

ثم نحو ذلك الوقت اضطر المنتخب ان يذهب الى بولونيا
فكتب الى بتغر يطلب منه ان يفشي له سر عمل الذهب فبعث
اليو بتغر حجراً ملائناً من سائل يضرب الى الحجرة زاعماً انه بصير
كل المعادن ذهباً اذا كانت ذاتية فاخذ البرنس فرست فن
فرست برغ هذا الحجر ومعه كتيبة من الحراس واتي به الى ورسو
فاراد الملك ان يجرب ذلك على الفور ودخل هو والبرنس الى
غرفة سرية وأتورا بمنزري جلد واخذ في صهر النحاس وبعد ان
ذاب سكبها عليه من سائل بتغر فلم يتغير وكان بتغر قد سبق فقال
ان العمل لا يتم الا بتناوة القلب اما جلالة الملك فكان قد صرف
الليل السابق بمعاشرة اناس اشرار فنسب عدم نجاحها الى ذلك
فاعترف ونال الحيلة ثم عاد الامتحان في اليوم الثاني فلم ينجح فغضب
الملك غضباً شديداً وعزم ان يجبر بتغر على افشاء هذا السر له ظناً
منه ان هذا هو السبيل الوحيد لتخلصه من الافلاس فبلغ بتغر قصد
الملك فعزم على الفرار وانتهر فرصة غفلة الحراس وفر هارباً وبعد
مسير ثلاثة ايام وصل الى انس في النمسا حيثما ظن نفسه آمناً

فماترهُ رجال المتخب وقبضوا عليه وهو نائم ورجعوا به الى درسدن
 رغماً عن مقلومته واستغاثوا بالنمسا ومن ثم حُظِّب بحرس شديد ثم
 نُقل الى حصن كونيغستين المنيع وقيل له ان الخزينة فارغة بالكليته
 وان عشر كتائب من البولونيين لم يدفع لها شيء من وظائفها
 وهي بانتظار ذهبه ثم زاره الملك بشخصه وتكلم معه بشأن ذلك
 وهدده بأنه ان لم يعجل ذهباً يُقتل معلقاً لكن مضى عليه عدة سنين
 ولم يعجل ذهباً ولم يُقتل بل سُفِّطت حياته لكي يكتشف شيئاً انفع
 من تحويل النحاس الى الذهب وهو تحويل التراب الى خرف صيني.
 فان البرتوغاليين كانوا قد جلبوا آنية صينية من بلاد الصين
 وكانت تُباع في اوربا باكثر مما يعادل ثمنها ذهباً. وقد وجه افكار
 بنغر الى هذا العمل العظيم كيميلوي شهر يُسمى ولترفون تشرنيس
 وكان هذا الرجل معتبراً جداً في عيني البرنس فرسنبرغ وفي
 عيني المتخب فقال ذات يوم لبتغر اذا لم تقدر ان تصنع ذهباً
 فاصنع شيئاً آخر اصنع خزفاً صينياً فكان الكلام وقع عند بنغر
 فاخذ من تلك الساعة يجرب ويبحث عساه ان يجد المواد المركب
 منها الخزف الصيني ودام على ذلك زماناً طويلاً على غير نتيجة
 واخيراً اناه واحد بقليل من الطفل الاحمر ليعمل منه بوانق
 فوجد انه اذا عُرِض لدرجة عالية من الحرارة تحول الى مادة
 شبيهة بالزجاج وصار كالخزف الصيني الا في اللون والشفافية
 وهذا هو الخزف الصيني الاحمر وقد اكتشفه صدفة ومن ثم اخذ

يصطنعه بكثرة وبهيئة كالصيني . إلا أنه كان يعلم ان اللون الأبيض
 امر جوهري ولذلك لم ينفك عن الامتحانات املأً بالحصول
 عليه . فمضى عليه عدة سنون بدون ان يبلغ مراده وأخيراً اعانته
 الصدفة حتى اكتشف الصيني الأبيض وذلك انه كان يلبس شعراً
 عارية حسب عادة تلك الايام وفي احدى الايام من سنة ١٧٠٧
 وجد قبع شعري اقل من المعتاد فسأل خادمة المهب فاجابه
 ان ذلك من نمل المسموق الموضوع بين شعر القبع . وكان هذا
 المسموق نوعاً من التراب فخطر على باله حينئذ انه ربما يكون هو
 نفس التراب الذي يصطنع منه الصيني وهكذا كانت لان هذا
 التراب كان مخنوخاً على الكاولين الذي هو جزء جوهري من
 الخزف الصيني وكانت النتيجة من هذا الاكتشاف انفع من اكتشاف
 الاكسير بما لا يُقدَّر . وفي تشرين الاول من سنة ١٧٠٧ اهدى
 للمنتخب اول قطعه من الخزف الصيني فسرها سروراً جزيلاً
 وامر ان يُقدم له كل ما يلزمه لانفان اختراع هذا فاستخدم خزافاً
 ماهراً من دلفت وشرع في عمل الخزف الصيني . وحينئذ اهل
 الكيمياء تماماً واستعاض عنها بصناعة الخزف وكتب على باب معمله
 البيت الآتية ترجمته

قد عاضني الله العظيم الجبار من صنعة النصار صُغ الفخار
 إلا انه كان لم يزل تحت الحفظ الشديد مخافة ان يفشي
 سره لآخر او يفر من قبضة المنتخب وكانت معاملة وانه محروسة

بالبجنود ليلاً ونهاراً وعين لحفظه سنة من التواد كانوا مطالبين
 به . ولما رأى المنتخب نجاح بتغور ورواج مصنوعاتهم عزم على اقامة
 معمل ملكي موملاً ان يغتني بذلك كما اغنت هولندا من معامل
 الخزف المدهون فاصدر امراً ملكياً في الثالث والعشرين من
 شباط سنة ١٧١٠ بشأن اقامة معمل كبير للصيني في البرخسبرغ
 وترجم هذا الامر الى اللاتينية والفرنساوية والدنيمركية ووزعه
 سفراء المنتخب في كل قصبات اوربا وفيه يقول ان المنتخب
 فردريك اوغسطس قد نظر الى خير سكونيا التي لم بها
 اضرار كثيرة من الغزوة الاسوجية ووجه التفاته الى الكنوز التي
 تحت الارض في بلاده واقام رجالاً ماهرين للبحث فيها فاصطنعوا
 له نوعاً من الآنية الحمراء افضل كثيراً من الخزف الهندي وصحافاً
 ملونة قابلة للقطع والصلل وليست دون الآنية الهندية^(١) وصنعوا
 له شيئاً من الخزف الابيض وله امل انهم سيصنعون منه شيئاً
 كثيراً . وينهي هذا المنشور بدعوة للصناع الاجانب ليأتوا الى
 سكونيا ويتعلموا في سلك العملة واعداً اياهم باجرة كبيرة وبجاية
 الملك . فيظهر من هذا المنشور ان اختراع بتغر كان له قيمة كبيرة
 في عيني المنتخب وعيون شعبه

قال المؤلفون الجرمانيون ان المنتخب رفع منزلة بتغر كثيراً

(١) ان جميع الآنية الصينية واليابانية كانت تدعى في ذلك الوقت

هندية وربما كان ذلك لانها اتصلت الى اوربا من الهند

لاجل خدمته لوطنه وجملة مديراً لكل معامل الصهنية ولقبه
 بلقب بارون . ولا ريب انه يستحق هذا الاعتبار الآن المعاملة
 البربرية التي عاملة بها كانت تناقض ذلك كل المناقضة لانه
 وضع في المعمل مديرين اسم احدهما ماثيو واسم الآخر نهمترو جعل
 بتغر قريباً على الخزافين لا غير وحسبه اسيرة فكان هذا المسكين
 محاطاً بالجنود في دخوله وخروجه بل كان يُنقل عليه في غرفة
 حصينة حينما بنام . فانفعل كثيراً من هذه المعاملة وكان يكتب
 للملك منصرعاً اليه ان يرفق به بكلام يلين له الحجاد . قال في
 احدى رسائله اني اخص نفسي لصناعة الخزف وسافعل اكثر
 مما فعل اي مخترع كان ممن تقدمني ولا اطلب منك الا الحرية
 الحرة . الا ان الملك ادار اليه اذناً صماء بل كان يريد ان يعطيه
 الاموال التي يقترحها عليه والالتاب التي يطلبها منه اما الحرية
 فلا لانه اعتبره عبداً لا يعتق . فدام على ذلك مدة طويلة حتى
 سم الحياة فانكب على المسكر واقنذى به اكثر العيلة فقامت
 بينهم الخصومات والمنازعات حتى الزم الامران تاتي الجنود مراراً
 كثيرة وتنفصل بينهم ولما لم يرتدعوا سجنوا كلهم في البرخنسبرغ
 وعوملوا معاملة الاسرى . وفي غضون ذلك مرض بتغر مرضاً
 شديداً واشرف على الموت فاشفق الملك ان يفقد هذا العبد
 النافع فاذن له ان ينتزه في مركبة ومعه عدد من الجند لحراسته
 فتعافى قليلاً ثم اذن له ان يذهب احياناً الى درسدن ووعد

بالمحرية التامة في كتاب كتبه له في نيسان سنة ١٧١٤ ولكن هذا
الوعد اتى بعد وقتٍ لان بتغر عاش بعد ذلك سنين قليلة في
الذل والهوان عقلاً وجسداً من تاثير السكر والمرض والحبس
وفي الثالث عشر من اذار سنة ١٧١٩ وافته المنية وحررته من
سجده الارضي وله من العمر خمس وثلاثون سنة فدُفن ليلاً في مقبرة
جونيس في ميسن كانه كلب . هذه هي حياة اعظم مسيحي غني
سكسونيا وهذه هي المعاملة التي عومل بها والنهاية التي وصل اليها
اما معامل الخزف الصيني فكانت سبباً لاتساع ثروة
سكسونيا وفتحها فافتدى به اكثر ملوك اوربا . وكان الصيني
غير الصلب يُعمل في سنت كلود قبل اكتشاف بتغر باربع عشرة
سنة الا ان الصيني الصلب الذي اكتشفه بتغر افضل منه كثيراً
فانشئت له معامل في ستر سنة ١٧٧٠ وهو الآن من اعظم بنايع
ثروة فرنسا لانه افضل من كل ما يصنع في باقي الممالك

الرجل الثالث بوشيا ودجود الخزاف الانكليزي الذي لم
نصبه مصائب شديدة بمقدار ما اصاب بالسب وبتغر ولكنه نجح
اكثر منها ولا سيما لان الزمان الذي نشأ فيه كان موافقاً لنجاحه
كما سترى . بقيت البلاد الانكليزية لحد اواسط القرن
الماضي دون اكثر البلدان الاوربية صناعة . وكان في ستفوردشير
كثيرون من الخزافين ومن جعلتهم عائلة ودجود هذا الآن
مصنوعاتهم كانت بسيطة الى الغاية فكانت البلاد تجلب خزفها

المتقن من دلفت في هولندا ومن كوارن . ثم اتاها خزافان اجنيان من نرمبرج واقاما مدّة في ستفوردشير ثم انتقلا الى شلسي واقترعا على عمل الآنية المزخرفة . ولم يكن يصنع في كل انكلترا شي من الخزف الصيني . واما الآنية البيضاء التي كانت تعمل في ستفوردشير فلم تكن بيضاء تماماً بل ذات لون ترابي يضرب الى الصفرة . فمذه كانت حالة صناعة الخزف في انكلترا لما ولد يوشيا ودجود في برسل سنة ١٧٢٠ الآ انه لم يمّت حتى غيرها تغييراً تاماً مع انه لم يعيش اكثر من اربع وستين سنة . وباجتهاده وفطنته وحذقته قامت هذه الصناعة على اسس وطيدة او كما قيل في رثائه حول هذه الصناعة من حرفة خشنة غير معتبرة الى صناعة جميلة ذات قدر وطاقات في تجارة البلاد

x وهذا الرجل من جملة الرجال البعيدين عن الملل الذين ينبغون حيناً بعد حين من بين عامة الشعب ويعلمونهم الاجتهاد بالفعل اكثر مما بالقول ولا يقتصرون على ذلك بل يوثرون في هيئة الملكة كلها بقدرتهم وهم دعايم الملكة واركان اسمها . كان لابي ثلاثة عشر ولداً وهو اصغرهم وكان ابوه خزافاً وكذلك جده واخوه ومامات ابوه وهو فني صغير السن وترك له مبراً انا يساري عشرين ليرة . ومامات ابوه كان هو في الخادبة عشرة وكان يتعلم القراءة في مدرسة صغيرة فأخذ منها ووضع عند اخيه الاكبر ليعمل معه في صناعة القمار . وبعد مدة قصيرة اصعب

بالمجدري ونشأ عن المجدري مرض في ركبته اليمنى كان يخطر
 عليه مراراً كثيرة حتى اضطر الى استئصالها. قال مستر كلادستون
 في ترجمة ودجود التي تلاها حديثاً في برسلم لا يبعد ان مرض
 رجلو كان سبباً لشهرته لانه منعه عن استعمال كل اعضائه وبالنتيجة
 عن ان يكون عاملاً نشيطاً فاضطر ان ينصب على امر آخر
 فاعمل فكرته في سرصناعته وما زال حتى بلغ ما لو بلغ خراف
 اثني^٦ لحمده عليه العالم . اه

وحين تعلم ودجود هذه الصناعة من اخيه اشترك مع انسان
 آخر واخذ يصنعان نُصَباً للسكاكين وصناديق وغيرها من
 الادوات ثم تركه واشترك مع انسان آخر يصنع قناديل وعلباً
 للسعوط وما اشبه ولكنه لم ينجح كثيراً . وسنة ١٧٥٩ فتح معاملاً
 خاصاً به في برسلم واخذ يعمل في صناعة الخبز بنشاط وكان
 جل مراده ان يصنع آنية افضل من المصنوعة في ستفوردشير
 هيئة ولونا ودهاناً ومثانةً ولذلك خصص اوقات العطلة بدرس
 الكيمياء وامتنع امتحانات كثيرة في الدهان والمذوبات وانواع
 الاتربة وكان ذا حذافة قوية ونظر دقيق فلاحظ ان نوعاً من
 التراب الاسود المحضوي على سلكا بييض بالتكليس في الانون
 وبعد ان لاحظ هذا الامر ودقق فيه النظر استنتج انه اذا مزجت
 السلكا بتراب الخبز الاحمر ايض مزيجها بالتكليس وهكذا كان
 فلم يبق عليه سوى ان يدهن هذا الخبز بدهان اذا ذاب صار

شفاقاً فيحصل على ما يماثل الصيني او على الصيني نفسه او ما تسمى
فيما بعد بالخزف الانكليزي وفضل على ما سواه

ولقد وجد صعوبات كثيرة في اتته مثل ما يالسي الا انها لم تطل
كما طالت صعوبات ذاك بل تغلب عليها في وقت قصير وذلك
بالامتحانات المتتابعة والمواظبة الراسخة والفشل المتواتر لانه كثيراً
ما كان يضيع تعب شهر في يوم واحد . وبعد امتحانات كثيرة
واضاعة الكثير من الوقت والمال والتعب عرف نوعاً مناسباً
من الدهان . ثم اخذ في تحسين هذه الصناعة وانشغ لبه في
ذلك وما زال واضعاً نصب عينيه ابصارها الى الدرجة العليا حتى
بعد ان صار يصنع كثيراً من الآنية البيضاء والحمرات للوطن
وللبلدان الاجنبية . فذاع صيته في الآفاق واتدى به كثيرون .
فانشأ فرعاً عظيماً من الصناعة الانكليزية واقامه على دعائم راسخة
وكان يقول دائماً ترك عمل الشيء افضل من عمله عملاً غير متين
وكان لوجود مساعدون كثيرون من اولي المقام والسيادة
ومن الصناع الحاذقين ايضاً . فعمل للملكة نثرلوت آنية المائدة
الملكية الاولى من الخزف الذي لقب فيما بعد خزف الملكة فعين
خزافاً ملكياً فاعتبر هذا اللقب اكثرماً لو لقب باروناً . وكثيراً
ما كان يُسلم آنية صينية فيصنع مثلها تماماً الامر الذي ادهش
الجميع . واعاره السروليم هلتون آنية قديمة من هر كولانيوم فعل مثلها .
والا عرّضت القارورة البربرينية للبيع دفع فيها الف وسبع مئة

ليرة انكليزية فدفعت اميرة برتلند الف وثمان مئة ليرة وابتاعها
بذلك ولكنها لما علمت ان قصده تمثيلها اعارته اياها فاصنع خمسين
قارورة مثلها اتفق عليها الثمن وخمس مئة ليرة انكليزية وباعها
باقل من ذلك ولكنه نال غايته اذ اثبت ان كل ما عملته الامم
والشعوب تقدر على عمله المحذافة الانكليزية.

وكان لهذا الرجل معرفة بالكيمياء والامثال القديمة وسهارة كلية
في صناعة الابدعي فاستخدم كل ذلك لصناعة الخنزف واستخدم
ايضاً نقاشاً ماهراً لعمل اشكال جميلة صنع مثلها فصارت اشكال
مصنوعاته وسيلة لاهياء صناعة التنش القديمة بين قومو وقد تمكن
ايضاً بواسطة التدريس والامتحان من كشف صناعة تلوين الخنزف
التي كانت مفقودة حيثئذ بل كانت قد فقدت منذ ايام افلونوبوس
وخدم العلم خدمة نصوحاً وخلص ذكره بالبيرومتر الذي اخترعه
وكانت له يد طائفة في كل مصلحة اول لخبر البلاد . فهو السبب
في فتح ترعة ترنت ومرمي من شرقي الجزيرة الى غربيها وفي تهديد
طريق بطرس وما زال يزداد شهرة واعباراً في عيون الناس
حتى صارت معاملته في برسم واتروريا نادياً يتفاخر اليه مشاهير
الزوار من كل اقطار اوربا

ونتيجة انعاب هذا الرجل ان الصناعة التي شرع فيها وهي
في حالة دنية جداً صارت من اهم صنائع انكلترا وصارت انكلترا
تصنع من الخنزف ما يفيض عنها فخرسلة الى البلدان البعيدة التي

كانت تجلب خزفها منها. وراج خزفها في تلك البلدان رغماً عن
المكوس الباهظة التي كانت تضربها عليه. وقد قال امام البرلمان
بعد ان ابتداء في عملها بنحو ثلاثين سنة انه بعد ان كانت هذه
الصناعة في حالة دنية جداً وكان يعمل فيها رجال قلائل فقراء
المحال واكثرهم في حالة برثي لما من القباوة والمسكنة صار الآن
نيف وعشرون الف شخص يتعيشون منها راساً هذا فضلاً عن
عدد لا يحصى من الحفارين والنحامين والذين يتقنون الآنية براً
وجراً والذين يعجرون بها. وكان يرتأي ان هذه الصناعة لم تنزل
في طفوليتها وان ما اصبحت فيها لا يحسب شيئاً في جنب ما تحتمل
من الاصلاح بتقدم صناع الانكليز واجتهادهم وتنشيط دولتهم
لهم. وقد تمّ قوله تماماً والشاهد على ذلك انه صدر من بلادهم
سنة ١٨٥٢ ما ينيف على اربعة وثمانين الف الف اناء خزف
وهذا التقدم العظيم لا يحسب شيئاً بالمقابلة مع تقدم الصناع اخلاقاً
وآداباً لانه لما باشر وجود عملة في ستفوردشير كانت ستفوردشير
متمدنة نصف تمدن وكان اهلها فقراء واغنياء وقلائل وحالما
ثبتت معاملته صار فيها عمل كافٍ لثلاثة امثالهم باجرة عالية
وتحسنت اخلاقهم وآدابهم بانعكاسهم على علمهم
فمؤلف الرجال وامثالهم خليقون بان يدعوا قادة اهل
الصناعة بل جبايرة العالم المتمدن لان صبرهم ونشاطهم في وسط
التجارب والمصاعب وشجاعتهم وجلدهم في مساعيهم المحمّدة ليست

اقل من بسالة الجنود الذين يقوم مجدهم بالمدافعة عما عملة ارباب
الصنائع

—xoo—

قال المنبي
تخترُ عندي همتي كل مطلبٍ
ويصرفني عني المدى المتناولُ
وقال ايضاً
من اطاق الناس شيءً غالباً
واغصباً لم ينهه سؤالا

الفصل الرابع

في الجِدِّ والمواظبة

قال دافانان . مَنْ إِذَا انْكَبَتْ سَاعَتُهُ الرَّمْلِيَّةُ انْخَبَى وَجَمَعَ رَمْلَهَا حَبَةً
حَبَةً كَأَنَّهُ بَزْرُ الْكَوَاكِبِ فَهُوَ إِنْسَانٌ مُتَعَفِّى
وَقَالَ دِهْلَوِزِي . تَقْدِمُ وَالْإِيمَانُ يَتَّبِعُكَ

أَكْثَرُ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ تَمَّتْ بِالْوَسَائِطِ الْبَسِيطَةِ وَبِاسْتِخْدَامِ
الْفُؤُودِ الْأَعْيَادِيَةِ . وَفِي سَبِيلِ الْحَيَاةِ الْعَامِ فُرْصٌ كَثِيرَةٌ لِلْإِخْتِبَارِ
بَلْ إِنْ طَرِقَ الْحَيَاةِ الْمَطْرُوقَةُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهَا تَوَلَّى الْمُجْتَهِدُ قُوَّةً
كَافِيَةً لِيَسْعَى فِي إِصْلَاحِ شَأْنِهِ . وَفَلَاحُ الْبَشَرِ مَنْوُوطٌ بِعِلْمِهِمْ فَأَكْثَرُهُمْ
أَقْدَامًا وَأَمْضَاهُمْ عَزِيمَةُ النُّجُومِ
وَكثِيرًا مَا لَامَ النَّاسَ السُّعْدُ وَعَدُوُّهُ أَعْيَى وَلَكِنَّهُ لَيْسَ أَعْيَى
كَالنَّاسِ أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّا إِذَا أَمَعْنَا النَّظَرَ فِي أَحْوَالِ أَهْلِ الْأَعْمَالِ

رأبنا ان السعد لاكثرهم اجتهاداً كما ان الرياح والامواج توافق
 الناخذلة الماهر بل ان اسى مطالب البشر يمكن البلوغ اليها
 باستقلام القوى الاعيادية كالاتباه والانصباب والمواظبة ولا
 حاجة لما يدعى موهبة فائقة على ان الموهبة وان كانت من اسى
 المواهب نوعاً لاتنافي القوى الاعيادية ولا تحط من قدرها .
 واعظم الناس اقلهم ايقاناً بالمواهب واكثرهم مزاولاً لاعمالهم ومنهم
 من عرف الموهبة بانها ذوق شديد . قال احد روساء المدارس
 انها قوة استعمال القوى وقال جون فستر انها قوة بها يضرم
 الانسان ناره وقال بنون الشهير انها هي الصبر

لا يخفى ان عقل اسحق نيوتن كان من الطراز الاول ولكنه
 سئل مرة بماذا اكتشفت كل هذه الاكتشافات الغريبة فاجاب
 ” بالتأمل المستديم فيها“ . ووصف في مكان آخر اسلوب درسه
 فقال اني اضع الموضوع امامي دائماً وانتظر حتى يبرز فجرة وبصبر
 نوراً كاملاً . ولم ينل ما ناله من الشهرة الا بالاجتهاد والمواظبة
 كشأن غيره من المشاهير حتى انه كان اذا تعب من درس
 ارتاح بابداءه بدرس آخر . قال مرة للدكتور بتلي ان كنت قد
 خدمت العالم بشيء فباجتهادي وجلدي فما اشبه ذلك بما قاله
 الفيلسوف كبلر مشيراً الى قول فرجيل *Fama mobilitate*
viget, vires acquirit eundo ان تعني في دروسى يجعاني
 او اصل التفكير في مواضعها الى ان اغوص في لحيها بكل قوى عقلي

وبما ان الاجتهاد والصبر قد اتجا نتائج خارقة العادة
 ارتاب بعض المشاهير بوجود ما يُسمى موهبة خاصة . قال فُلتر
 ان الحد الفاصل بين من له موهبة فائقة ومن ليس له يكاد لا يرى
 وقال بكاريا ان كل الناس يمكنهم ان يكونوا شعراء وخطباء
 وقال رينلدس انه يمكن لكل انسان ان يصير مصوراً وثائلاً
 وقال لك وهلفتيوس وديدرو ان كل الناس قابلون للموهب
 على حدٍ سوى وان ما يفعله البعض بواسطة قوى عقولهم بقدر ان
 يفعله غيرهم اذا استخدموا نفس الوسائط التي استخدمها اولئك .
 الا انه وان يكن كل شيء موكلاً بالاجتهاد حتى ان اولي الموهب
 اكثر الناس اجتهاداً وجلتاً لا يسعنا ان ننكر انه ما لم يكن
 للانسان موهبة فائقة لا يقدر ان يبلغ مبلغ شكسبير او نيوتن او
 بينهوفن او ميخائيل انجلو ولو مها جد واجتهاد

ان دلّون الكيمياوي انكر ان له شيئاً من الموهب الفائقة
 ونسب كل ما حصله الى الجهد والاجتهاد . وجون هنتر قال ان
 عقلة كقنير النحل يظهر ملوياً من الطنين والارتباك ولكنه
 ملوياً ايضاً من الهدو والنظام والطعام المجلوب من افخر متخبات
 الطبيعة باجتهادٍ جزيل اه . واذا التفننا الى ترجمات مشاهير
 المخترعين والمؤلفين والصناع من كل نوع ولو لفتة واحدة رأينا
 انهم بلغوا مبلغهم مجدهم واجتهادهم وحولوا كل شيء ذهباً حتى
 الوقت نفسه . وقد ارتأى دزرائيلي الكبير ان النجاح بامرٍ يفوم بان

يكون الانسان سائداً على ذلك الامر ولا تحصل هذه السيادة
 إلا بالدرس والانصباب اللائبين . ويتبع ما تقدم ان الرجال
 الذين حركوا العالم بأسره لم يكونوا من ذوي المواهب الفاتحة
 بل كانوا ذوي قوى عقلية معتدلة وجلد لا يمل . وكثيراً ما سبق
 البلاده النبلاء في ميدان الحياة لانهم كانوا اكثر منهم مواظبة .
 قال المثل الابطالي من يسر متمهلاً يسر طويلاً لذلك كانت
 المزاولة من اول دلائل النجاح لان بالمزاولة نال السرور وبرت
 ييل ما جملة زينة وفخراً لمجلس السنات الانكليزي لانه وهو بعد
 ولد صغير كان من عادة ابيه ان يقيمه على المائدة لينكلم ارنجالاً
 وقد عوده ايضاً على اعادة كل ما يذكره من المواظ التي يسمعا
 نهار الاحد ومع ان نجاحه كان قليلاً في اول الامر الا ان المواظبة
 على ذلك قوت فيه قوتي الانتباه والذاكرة حتى صار بمسنة
 ان يعيد موعظة بكاملها حرفاً بحرف . ثم لما دخل في البرلنت
 وكان يناقض ما يقوله اضداده ببلاغة تفرد فيها قلب من ظن
 ان تلك المحافظة الفريدة التي فاق بها اقرانه قد اكتسبها بارشاد
 ابيه وهو بعد حدث

وما اعجب ما تفعله المزاولة حتى في الامور البسيطة فاللعب
 على الرماية يظهر في بادئ الرأي امراً سهلاً لكنه يستدعي ممارسة
 طويلة متعبة جداً . قيل قال شاب لجيردني في كم من الزمان
 اتعلم اللعب على الرماية فاجابة في عشرين سنة اذا مارسته اثنتي

عشرة ساعة كل يوم . ومن يجهل مقدار التعب الذي يتعبه
 المشغولون قبلما يتمكنون من التخليص . قيل ان نفلوني الشهيرة
 كانت قبلما تشخص شيئاً تصرف ساعتين مع ايها وهي تمارس
 ذلك امامه وعند ما تنتهي الساعتان يغني عليها من شدة التعب
 فنجرد من ثيابها وترش بالماء والمنعشات وكان يصيبها مثل
 ذلك ايضاً عند ما تنتهي من التخليص

الارتقاء في سلم النجاح عمل بطيء والنتائج العظيمة لا يبلغها
 الانسان دفعة واحدة فعلى كل احد ان يقنع بالارتقاء المدرج .
 قال ده ما يسترسر النجاح ان يعرف الانسان كيف يتوقع النجاح
 بالصبر . فعلى الانسان ان يزرع قبلما يجمع وكثيراً ما يضطر
 ان يصطبر وقتاً طويلاً قبلما يصل الى الحصاد وافضل الاثمار
 ابطأها نضجاً قال الشاعر

من جعل الصبر في مقاصده وفي مراقبه سلماً سلماً

وقال الآخر

لا تسهلن الصعب او ادراك المني فما انقادت الآمال الأصابير
 ولا يستطيع الانسان ان يتوقع بلوغ امانيه بالصبر ما لم
 يجتهد في بلوغها بسرور وطيب نفس . والسرور والاجتهاد تسعة
 اعشار الحكمة وهما حياة النجاح وروحه . ولعله لا توجد لذة في الدنيا
 اتم من لذة العامل بعلمه اذا كان مسروراً به . قيل ان سدي سمث
 الشهير لما كان كاهناً في احدى القرى لم يحسب نفسه عاملاً في

العمل المناسب له لكنه اخذ فيه بسرور عازماً ان يبذل فيه جهده
فقال قد صممتُ نيتي ان احب هذا العمل واولق نفسي له فلذلك
خير من التفرغ عليه والتذمر منه . وما يائل ذلك قول الدكتور
هوك عند ما انتقل الى عمل جديد قال حيثما اكون سافعل
بقوتي كل ما تجده يدي وان لم اجد عملاً صنعتُ عملاً لنفسي

ومن الذين عليهم ان يشتغلوا مدة طويلة بالصبر المشتغلون
في صالح العموم لان كثيرين منهم قد زرعوا زرعهم فغثرته ثلوج
الشتا وقبلما جاء الربيع وانفتح منبتهم ففضوا ولم يروا نتيجة نعيمهم .
وفي مثل هذه الاحوال لا شيء افضل من الرجاء ولا شيء يفور
مقامه فالرجاء او الامل هو الذي يشجع الانسان ويقويه على
انتهام المصاعب قال الشاعر

اعل النفس بالآمال ارقبها

ما اضيق العيش لولا فسحة الامل

ان كاربي المبشر الشهير فاق من سواه في الانتاب ولكنه
كان دائماً مسروراً وذلك لرجائه الثابت وامله الوطيد . قيل
انه وهو في الهند كان يشغل ثلاثة كتّاب فاكتفوا واذا تعب من
عمل واراد ان يستريح يبدله بعمل آخر وكان معه اثنتان وهما
ورد ومرشام (١) وبواسطة انعام هولاء الثلاثة اقيمت مدرسة كلية
في سيرمبور وستة عشر مركزاً للتبشير وترجم الكتاب المقدس

(١) ان كاربي ابن اسكاف وورد ابن نجار ومرسام ابن حانك

الى ست عشرة لغة وصار انقلاب ادبي عظيم في كل الهند الانكليزية
ومع ان اصل هذا الرجل وضع كما اشرنا لم يكن منجمل من اشهار
ذلك قط قيل انه دعي مرة الى وليمة عند الوالي فسمع وهو على
المائدة احد الروساء يقول لمن يجانبه ألم يكن كاري اسكافاً
فاجابة كاري على الفور كلاً يا مولاي بل كنتُ مرفعاً احذية
عنيقة . قيل انه وهو ولد صغير حاول طلوع شجرة فسقط وكسر
رجله فلانم الفراش الى ان جبرت واول ما امكنه النهوض والمشي
ذهب الى تلك الشجرة وظلمها وما زال ذلك طبعه الذي غلب
به كل المصاعب الشديدة التي حالت دون اتمام مقاصده .

كان من جملة مبادئ الدكتور بين الفيلسوف ان كل انسان
يقدر ان يصنع كل ما صنعته انسان آخره . وما احسن ما قاله ابن
الوردى

لا تفل قد ذهبت اربابك كل من سار على الدرر وصل
ومن المعلوم ان بن المذكور لم ياخذ في امره ولا عنه جهداً
روى بعضهم انه اول ما ركب الخيل ركب فرساً نجوحاً وسار
بصحبة الفارس الشهير حفيد مستر بركلي . فوصل الى جدار رفيع
فوثب الفارس بجواده من فوقه خاراد بن ان يتندي به فسقط
من عن ظهر فرسه فركب وحاول ثانياً فسقط ولكنه نهض قبلما
وصل الى الارض وحاول ثالثة فنجح . وما يماثل ذلك الحادثة التي
صارت لاوديون العالم بالطيور وقد اخبر عنها بقولوا اصابتني

مصيبة عطلت مني رسم من رسوم الطيور التي رسمتها ولاشت كل
 انعالي في هذا الفن فاني وضعت هذه الرسوم في صندوق واتممت
 بوجلا من معارفي بهد ان طلبت منه ان يجرس علي كل
 الاحتراس لانه ضمنه نتيجة انعاب سنين عديدة . ثم مضيت لامي ما
 وبعد ان لبث غائبا بضعة اشهر رجعت وانتقدت الصندوق
 الذي كنت اسميه كتري ولما فتحته وجدت ما تقنت له الاكباد
 وجدت ان كل انعالي اخضت فريسة لجرذين كبيرين دخلاء
 من احدي جوانبو وقضا كل ما فيه من الاوراق وطحناها طحنا
 ولما بينها عائلة كبيرة . فصعد الدم الى راسي بجمارة شديدة
 واصابني رجفة ورعدة وانطرحت على ظهري ومضى علي عدة ايام
 وانا في سبات عميق ولما رجعت الى نفسي اخذت بندقيتي وقلبي
 وانطلقت الى الغابات كأن لم يكن من الامر شي بل كنت
 مسرورا باني صرت اقدر ان ارسم رسوما افضل من الاولى وهكذا
 كان لانه لم يمض علي الا ثلاث سنوات حتى عوضت عن كل
 ما خسرت

ومن قبيل ذلك ما اصاب اوراق السرايحي نيوتن وذلك
 ان كلبه المسي ديامند رمى عليها شمعة مشتعلة فاحترقت وتلاشى
 بذلك حسابات كبيرة كان قد تعب ذلك الفيلسوف سنين
 عديدة على استخراجها ويقال انه حزن من جرى ذلك حزنا
 مفرطا اثر في صحته تاثيرا بليغا واضعف فهمه . ولقد حدث

ما يماثل هذا للجلد الاول من كتاب مستر كارليل في الثورة
الفرنساوية وذلك ان جارا له استعار هذا الكتاب ليطلع عليه
فحدث انه الفاه في ارض القاعة ونسيه هناك وبعد مدة ارسل
المؤلف في طلبه ليطبعه فرد اليه الجواب ان الخادمة وجدته
ملقى على الارض فظنته رزمة ورق لا منفعة لها واخذت تضم
النار به . فمن يقدر ان يقصّر مقدار الانزعاج الذي اصاب ذلك
المؤلف عند ما سيع بهذا الخبر . ولم يكن عنده شيء من اصله
فالتزم ان يجهد ذاكرته ويؤلفه ثانية فتعجب في ذلك تعباً لا يوصف
ولا يصدق ولكنة آفة ثانية وتأليفة اياه في مثل تلك الاحوال
يشهد له بما تفرد به من قوة العزم وعلو الهمة

وما يظهر قوة المواظبة باكثر ابصاح حياة المخترعين . روى
بعضهم انه كان من عادة جورج ستفنسن ان يقول للشبان
عندما ينصح لهم افعلوا كما فعلت اي واطلبوا . قيل انه بقي يحسن
في مركبة البخار البرية التي اخترعها خمس عشرة سنة قبلما فازت
بالسبق . اما جيمس وط فنضى في عمل آتو البخارية ثلاثين سنة
قبلما اتما . والمواظبة امثلة كثيرة مدهشة في كل نوع من العلوم
والصنائع ومن الذما الحوادث المتعلقة باستخراج اثار نينوى
واكتشاف قراءة الكتابات السفينية او السهمية المرسومة عليها
وقد فُتدت قراءتها من العالم منذ عصر الاسكندر اما كيفية
اكتشافها فكما ترى

كان في فرمان شاه من بلاد فارس جندي انكليزي اسمه
 رولنصن (وقد لقب بعدئذ بلقب سر) من شراكة الهند الشرقية
 فرأى كتاباً سنينية قديمة في جوار فرمان شاه فنسخها وكان
 من جملة ما نسخته الكتابة المرسومة على صخر بهستون وهو شاق
 يبلغ ارتفاعه ألف وسبع مئة قدم وعلى صفحاته كتابات بالفارسية
 والسكيتانية والاشورية ومن مقابلة المجهول بالمعلوم من هذه
 الكتابات عرف شيئاً من مجهولها وركب حروفها اللغائية . ثم
 ارسل رسم ما نسخته الى انكلترا لكي يطلع عليه رجال العلم ويحلوا
 فيه نظرهم . ولم يكن حينئذ احد من اساتيد المدارس الاوربية
 عرف شيئاً من امر هذه الكتابة . الا ان رجلاً اسمه نوريس كان
 سابقاً كاتباً في محل الشراكة المتقدم ذكرها وقد اتعب الى هذه
 الكتابة وجعلها دوساً ونجح في حلها بعض الفجاح واطلع على الرسم
 الذي رسمه رولنصن ونخب ان امعن فيه نظره قال ان في نسخته
 بعض الخطا مع انه لم ينظر صخر بهستون قط وكان رولنصن لم
 ينزل بجوار ذلك الصخر فراجع الرسم فرأى ان نوريس مصيب في
 تخطئه وسمه فاصحته . ثم قام رجل ثالث اسمه استن ليرد واحضر
 لها شيئاً كثيراً من هذه الكتابة لكي يتسع مجتمها . كان ليرد كاتباً
 عند فقيه بلندن . ولما كان له من العمر اثنان وعشرون سنة
 طاف المشرق فاصداً ان يقطع الاراضي الواقعة عبر الفرات
 وليس معه سوى رفيق واحد فر في وسط قبائل كثيرة متحاربة

ولم ينل منهم اذى ولم يكن معه ما يحويه منهم سوى قوة ذراع
 وطلاقة وجهه وانس محضه وعلوه منته وسداد رايه وقوة عزمه
 وشدة صبره فوصل الى اطلال نينوى ونقبها واستخرج منها كنوزاً
 تاريخية جزيلة الفائدة لم يستخرج مثلهما انسان واحد قط لانها
 لو وضعت قطعها الواحدة حذاء الاخرى لاشغلت مساحة ميلين
 مربعين فنقلت نقابة هذه الآثار الى لندن ووضعت في محل الخنف
 البريطاني وقررت فاذا بها تنفق اتفاقاً غريباً مع نص الكتاب
 المقدس في حوادث جرت من مضي ثلاثة آلاف سنة ونيف
 فكانت كما نوحى جديد للبشر. ولم يكن ليرد المذكور باستخراج
 هذه الآثار بل ألف فيها كتاباً جليلاً صادق الرواية حسن
 الانجاء يشهد بعلو همته وكثرة اقدامه

الذين كانوا مثلاً للصبر والاجتهاد بفنون الشهد
 الذي قال ان الموهبة الفاتحة هي الصبر. كانت قوى هذا الرجل
 العقلي في حداثته متوسطة بل خاملة تقريباً وكان كسلان طبعاً
 وعرضة لعيشة الترف لانه كان من قوم ذوي ثروة ووجاهة الا
 انه قد اقلع عن ذلك في حداثته ولم يعط نفسه هواها بل انكر
 عليها لذاتها وانعطف على الدرس حاسباً الوقت كترًا محدوداً.
 ولما رأى انه يضيع ساعات عديدة بعدم قيامه باكراً عزم ان
 يبطل هذه العادة واجتهد وقتاً طويلاً على كسرها ولكنه الآ دون
 ذلك جهداً ولم يقدر على القيام في الساعة التي عينها فاستعان

بمخادمو ووعده ان يعطيه ريالاً في كل يوم بقيمة فيه قبل الساعة السادسة صباحاً الا انه كان عند ما يدعوه للقيام يدعي انه مريض او يظهر الغضب فلم ير الخادم انه ربح شيئاً سوى التوجه من سيده لانه لم يقم باكراً. فعزم ان يكسب الريال على اي وجه كان فالح عليه يوماً ان يقوم فلم يقم فاتي بهام مبرد بالثلج وسكبه في فراشه فنهض لوقتو فلما رأى الخادم انه نجح بهذه الوسيلة واظب على استعمالها الى ان اعتاد سيده على القيام باكراً وكان يقول انه مديون لخادمو بثلاثة او اربعة مجلدات من كتابه التاريخ

الطبيعي

وكان هذا العلامة يشتغل في الدرس والتأليف احدى عشرة ساعة كل يوم مدة اربعين سنة الى ان صار ذلك فيه ملكة راسخه. قال مؤرخ حياته ان الشغل من لوازمه والدرس من لذات حياته ولم يكن يتعب من تهذيب كتاباته فكان يفتحها مراراً كثيرة لكي يجمل عبارته بسيطة طلية. ومن كتبه ما كتبه احدى عشرة مرة قبلما حسبه اهلاً للنشر. وكان مع علوهتمو كثير الترتيب والتدقيق ومن قولو ان الموهبة بلا ترتيب تخسر ثلاثة ارباع قوتها. وكل ما حصلت انما حصلت بتعب واجتهاده. قالت مادام نكران بفون كان يقول ان ما يدعى موهبة فائقة ليس الا حصر الفكر في موضوع واحد وانه كان بل عند ما يكتب شيئاً المرة الاولى ولكنه كان يلزم نفسه ويعيد ما كتبه ثم

بعيدُهُ ثَانِيَةٌ وَثَالِثَةٌ وَآخِرًا كَانَ فَيَجِدُ فِي تَنْجِيهِهِ وَتَهْدِيهِ لَذَّةَ عَوْضًا
 عَنِ التَّعَبِ . اه . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ أَلْفُ كُلِّ مَا أَلْفُهُ وَبِهِ دَائِمُ الْيَمِّ
 مِنْ أَشَدِّ الْأَدْوَاءِ الْمَعْرُوضِ لَهَا الْجِسْمُ الْإِنْسَاوِي

وَيَبِينُ الشُّعْرَاءَ وَالْأَدْبَاءَ رِجَالًا كَثِيرِينَ أَمْثَلَةَ لِلْمَوَاطِبَةِ مِنْهُمْ
 السَّرُّ وَلْتَرِ سَكُوتَ الشَّاعِرِ الْأَسْكَنْسِيِّ الشَّهِيرِ الَّذِي تَمَرَّنَ عَلَى
 الشُّغْلِ وَهُوَ كَاتِبٌ أَوْ بَالِحِي نَاسِخٍ عِنْدَ مُشْتَرِعٍ وَكَانَ عَمَلُهُ مِنْ
 نَسَقٍ وَاحِدٍ فَسَمِيهُ وَخَصَّصَ كُلَّ سَاعَاتِ الْمَسَاءِ بِالدَّرْسِ وَالْمَطَالَعَةِ
 وَكَانَ مَا بِحِصَّةٍ مِنْ صِنَاعَةِ النَّسَاخَةِ سِتِينَ بَارَةً عَلَى كُلِّ صَفْحَةٍ
 تَحْفُوِي عِدَدًا مَعْلُومًا مِنَ الْكَلِمَاتِ وَآحْيَانًا كَانَ يَنْسِخُ مِئَةً وَعِشْرِينَ
 صَفْحَةً فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً فَيَأْخُذُ عَلَيْهَا ثَلَاثِينَ سَلْتَنَا فَيَشْتَرِي
 بِهَا كِتَابًا مَا لَا يَسْتَطِيعُ ابْتِيَاعَهُ لَوْلَا ذَلِكَ

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ بَعْدَ أَنْ تَقْدِمَ فِي السَّنِ وَالشُّهُرَةِ أَنْ يَفْتَخِرَ
 بِكَوْنِهِ كَثِيرَ الْعَمَلِ وَيُنَاقِضُ الْفَائِلِينَ أَنْ أَهْلَ الْمَوْهَبَةِ الْفَائِئِمَةُ
 لَا يَضْطَرُّونَ إِلَى إِتْمَامِ الْوَأَجِبَاتِ الْيَوْمِيَّةِ وَجَزَمَ أَنْ الْأَفْضَلَ أَنْ
 يَصْرِفَ كُلَّ قِسْمٍ مِنَ الْوَقْتِ فِي إِتْمَامِ عَمَلٍ مَا مَرْتِنِيًّا أَنْ ذَلِكَ يَعِينُ
 الْقُوَى الْعَقْلِيَّةَ . وَمَا دَخَلَ مَجْلِسَ اسْكُوتْسِيَا الْعَالِي كَانَ يَوْلِّفُ كُلَّ
 مَا يَرِيدُ تَأْلِيْفَهُ مِنْ نَظْمٍ وَنَثْرٍ قَبْلَ الْغَدَاةِ وَيَصْرِفُ بَقِيَّةَ النَّهَارِ فِي
 الْمَجْلِسِ . وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ يَصْرِفُ نِصْفَ وَقْتِهِ فَقَطْ فِي التَّصْنِيفِ
 وَالنِّصْفَ الْآخَرَ فِي الْفِيَامِ بِوَأَجِبَاتِ مَنْصُوبِهِ لِأَنَّهُ حَكِمَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ
 يَحْصَلَ مَعِيشَتُهُ مَا يَعْمَلُهُ لَا مِمَّا يَوْلِّفُهُ . وَقَالَ ذَاتَ مَرَّةٍ أَنِّي عَقَدْتُ

قلبي ان اجعل التأليف قضييَا امسكه بيدي والعمل عكازًا
 اتوكأ عليه وان لا اعتمد في معيشتي على ما ارجحه من التأليف
 ولو كان كثيرًا

اما التدقيق في الوقت فكان ملكة راسخة فيه ولولاه ما
 امكنه ان يصنف كل ما صنّفه فقد جعل لنفسه قاعدة ان يجيب
 كل كتاب يرد اليه في اليوم الذي يرد فيه ما لم يكن فيه شيء
 يقتضي تاخير الجواب ولولا ذلك ما امكنه ان يجيب المكاتيب
 الكثيرة التي كانت ترد عليه . فكان ينهض من فراشه الساعة
 الخامسة اي قبل الظهر بسبع ساعات ويصرف ساعة في الحلاقة
 واللبس المرتب ويجلس في مكتبته الساعة السادسة واوراقه وكتبه
 مرتبة امامه اكمل ترتيب فياخذ في اشغاله الى ان يجتمع اهل بيته
 للغداء بين الساعة التاسعة والعاشره وكان يكتب في غضون
 ذلك ما يكفي لكسر رقبة شغل النهار كما كان يقول ومع كل
 جده واجتهاده وعلمه الجزيل الذي هو نتيجة درس سنين عديدة
 كان دائماً ينسب الى نفسه قصر المعرفة وضعف القوى العقلية .
 وقد قال من فم ان جهلة كان يعرّسه في كل عمل اخذ فيه . وهذه
 هي الحكمة الحقيقية والاتضاع الحقيقي لانه كلما ازداد الانسان معرفة
 قل اعتداده بنفسه . قيل ان احد الطلبة ذهب الى استاذ
 واستاذنه بالانصراف بناء على انه قد اكمل دروسه فاجابه
 الاستاذ اني ارى عجباً في ما تقول لانني انا اراني قد ابتدأت في

دروسي الآن . وكل من لم يرتشف إلا اليسير من بحار المعارف
 بعد نفسه غالباً قد بلغ من الحكمة اقصاها واما الحكيم الحقيقي
 فيتر على رؤوس الاشهاد ان كل ما يعرفه هو انه لا يعرف شيئاً
 او كما قال نيوتن انه كجامع اصداف على شاطئ بحر الحقائق
 وفي المؤلفين الذين يعدون من الطبقة الثانية امثلة كثيرة
 للمواظبة منها حياة جون برتون مؤلف كتاب "بدائع انكلترا وويلس"
 فانه ولد في كوخ حدير في كستون من ولشهير وكان ابوه خبازاً
 وقد جنَّ بسبب خسارة مالية لحقته حيناً كان برتون صغيراً فلم
 تكن الاحوال مساعدة له ليتعلم العلوم بل ليتعلم الخصال الذميمة
 ولحسن الاتفاق لم تنفس اخلاقه . وقد وُضع وهو حدث عند
 عمه الذي كان فلتجاً حاناً فبقي عنده خمس سنوات ونيف وصناعة
 فتح الفئاني وصب المسكرات ثم مرض فتركه عمه ليهم على وجهه
 وفي جيبه ليرتان فقط وها نتيجة الخمس سنوات التي خدمه فيها
 فضى عليه وهو على هذه الحال سبع سنوات قاسى فيها مشقات
 لا توصف الا انه سعى فيها وراء المعرفة فقد قال في تاريخ حياته
 "انني كنت نازلاً في منزل حدير ولم يكني ان اشترى وقوداً في ليالي
 الشتاء فكنت ادرس في فراشي" . ثم سافر الى باث ماشياً وبعد
 ان اقام فيها برهة رجع الى لندرا حافياً عارياً . ثم وجد عملاً في
 حان لندن وكان هذا العمل في دهلز تحت الارض فآثر في صحوه
 تأثيراً شديداً لانه كان يعمل فيه عملاً ثمانى عشرة ساعة كل

يوم فتركه ودخل كاتباً عند رجلٍ فقيهٍ وكان يأخذ خمسة عشر
 شلناً كل اسبوع لانه كان قد اتقن الكتابة فصار يمكنه ان يتردد
 على مخازن الكتب في ساعات الفراغ ويقراً ما لا يستطيع اتباعه
 من الكتب فاقطف كثيراً من ثمار المعرفة وما دخل في الثامنة
 والعشرين من العمر كتب كتاباً سماه مساعي بيزارو ومن ثم
 عكف على التأليف والتصنيف ودام على ذلك خمسين سنة اي
 الى ان ادركته الوفاة. ومؤلفاته المطبوعة تنيف على سبعة وثمانين
 كتاباً اشهرها كتاب آثار كنائس لندن في اربعة عشر مجلداً وهو
 تذكارة لا يضجل لاجتهاده ومواظبته

وما يجري هذا المجرى حياة لودن البستاني الذي كان
 يدرس ليلتين كاملتين كل اسبوع وهو صانع عند بستاني فتعلم
 اللغة الفرنسية وترجم حياة ايلرذ قبل ان بلغ الثامنة عشرة
 وكان مع ما ذكر ذا رغبة شديدة في النجاح حتى انه لما بلغ
 العشرين من عمره كتب في مفكرته "الآن قد بلغت السنة
 العشرين وربما ان تلك حياتي قد مضى ولكن ما هو العمل الذي
 علمته لافادة بني البشر" أفليس ذلك بمستغرب من شاب في
 هذا السن. وبعد ان اتقن الفرنسية درس الجرمانية واتقنها
 في برهة وجيزة واقنتى ارضاً واسعة واستعمل فيها الاصلاحات
 الاسكتسية في فن الزراعة ففجج واثري في وقت قصير. ثم ساج في
 مالك اوربا مرتين لكي يطلع على احوالها الزراعية وكتب نتائج

سباحته في انسكوليداته الشهيرة التي تضمن ما جمعه باجهاده
القديم النظير

وما يماثل ذلك ايضاً حياة صموئيل درو. فهذا كان ابن
فاعل فقير الحال من سنت أستل في كورنول وكان له اخ اكبر
منه يدعى جابز فوضعها ابوها في مدرسة صغيرة وكان يدفع عليها
اربعين بارة كل اسبوع فافلح جابز في دروسه وكان هادئاً فطناً
واما صموئيل فلم يفلح بل كان مشهوراً بطيشه ومحبته للعب فلما بلغ
الثامنة من عمره اخرجته ابوه من المدرسة ووضعه في معدن
قصد بر باجرة ثلاثين بارة كل يوم ولما بلغ العاشرة وُضع عند
اسكاف ليتعلم صناعة السكافة فلقى منها ما لا يقدر من التعب
حتى انه عزم مراراً كثيرة على الهرب واتباع الفرصان وكان يتقدم
بالشقاء مع تقدمه في السن فاشتهر بسرقة الجناثن وتهريب
الامتعة ولما بلغ السابعة عشرة هرب من معلمه عازماً ان يدخل
في خدمة سفينة حرية ولكنه لم يبلغ مائة. ثم انتقل الى جوار
بليموث وشرع يعمل في حرفته السكافة. وبينما هو هناك وقع في
خطر ففد حياته بسبب التهريب من الكدرك والذي حمله على
ارتكاب هذا الامر القبيح محبة انتقام المخاطر والامل بالرجح لانه لم
يكن يحصل مجرته اكثر من ثمانية اشلان في الاسبوع. اما تفصيل
هذه الحادثة فكما ترى. وردت في احد الايام اخبار الى كرفتهول
ان سفينة تهريب مقبله وقد قاربت البر فخرج جميع رجال المكان

الذين صناعتهم تهريب البضائع في فريقين فريق بني علي الشاطي لينذر بالخطر ويقبل البضائع وفريق ركب القوارب التي كانت هناك وبينهم درو وكانت الظلمة حالكة جداً. وقبل ان انزلوا قسماً كبيراً من الشمن عصفت الرياح وتعالق الامواج الا انهم كانوا متعودين اقتحام المخاطر فلم يرعهم ذلك بل عزموا على تفرغ الشمن كلهم وفيها هم كذلك اطارت الريح قبع احد رجال القارب الذي فيه درو فقال لكي يمسه ففقدت موازنة القارب وقلب ففرق ثلاثة من رجاله والنصق الباقيون يولكنهم وجدوا انه اخذ في التوغل في البحر فتركوه وشرعوا في السباحة وبينهم وبين الشاطي نحو ميلين . وبعد ثلاث ساعات وصل درو الى صحر بجانب الشاطي مع ثلاثة من رفاقه ويقول عليه الى الصباح وقد كادوا يموتون برداً فعلم بمكانهم بعض رفاقهم فاتوا اليهم وسفوه شيقاً من العرق للذي هربوه فافاقوا . اَبْصَدَقَ اِنْ هَذَا اَلْاِسْكَافُ الَّذِي صَرَفَ شَبَابَهُ فِي السَّرْقَةِ وَتَهْرِيْبِ الْبَضَائِعِ صَارَ مَبْشَرًا فَاضْلًا وَمَوْلًى بَارِعًا لَكِنَّ هَذِهِ فِي وَاقِعَةِ الْحَالِ فَاِنْ اِبَاهُ سَمِعَ بِمَا هُوَ عَلَيْهِ وَاَرْجَمَهُ اِلَى سِنْتِ اَسْتَلْ فَصَارَ يَسْمَعُ مَوَاعِظَ الدُّكْتُورِ اَدَمِ كَلْرُكْ فَانْتَرَتْ فِيهِ نَائِبَةً بَلِيغَةً ثُمَّ مَاتَ اَخُوهُ فَزَادَ مَوْتَهُ فِي تَحْوِيلِ افْكَارِهِ عَنِ الْجَهْلِ وَالطَّبِيشِ اِلَى التَّعْتَلِّ وَالرِّزَاةِ . وَكَانَ قَدْ نَسِيَ مَا تَعَلَّمَهُ فِي صَغُرِهِ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ فَاخَذَ يَدْرُسُ بِاجْتِهَادٍ وَبَعْدَ نَعْبِ سَنِيْنٍ عَدِيْدَةٍ اَنْتَنَ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ

بعض الاتقان ثم اخذ يطالع الكتب الكثيرة ويقتبس ما فيها من الفوائد . وما قاله عن حاله حينئذ اني كلما كثرت المطالعة كثر شعوري بجهلي واشتدت رغبتي في المطالعة وكنت استغفر كل فرصة للدرس وكان الوقت الذي يمكثني ان اخصمه به قصيراً جداً لاني كنت مضطراً ان اعجل كل النهار لاجل تحصيل ما يقوم باودي فكنت افصح كتاباً امامي وقت الاكل فاقراً في وقت كل وجبة نحو خمس صفحات . اه . وهو ذلك الوقت قرأ مقالة لوك في الفهم فكانت اول باعص على توجيه افكاره الى المتافيزيك (ما فوق الطبيعيات) وتزع ما فيها من الخماسية والوهم

ثم شرع يعمل في حرفه وحده لانه كان كل هذه المدة صافئاً عند اسكاف وكان راس مالو دريهات قليلة الان احد جيونو وكان طحاناً عرض عليه شيئاً من المال قرصة فقبله منه واشترى الادوية اللازمة واخذ في عمله ولم تمض عليه سنة حتى وفاه وكان قصارى مرغوب الاستقلال في العمل والاقتصاد حتى كان بنام ايماناً بلا هشاء مخافة ان يصح عليه دين . ولم ينس مهديب عقله فكثر من المطالعة ودرس الفلك والتاريخ والمتافيزيك وعكف بالاكثرو على المتافيزيك لان كتبه اقل من كتب الفلك والتاريخ وقد قال اني اعلم ان هذا المسلك خشن لا يسلكه من كان مثلي ولكني عازم على الولوج فيه . ثم زاد على

السكافة والمتافيزيك الوعظ والبحث في المسائل السياسية فاضحي
حانوته نادياً لرجال السياسة من اهل قريته حتى اذا انقطعوا
عن الحجة اليه ذهب اليهم . فانهمك في ذلك واي انهماك واضاع
قسماً كبيراً من وقته حتى كان يضطر ان يعمل الى نصف الليل
لكي يعوض عما اضاعه في النهار . فحدث ذات ليلة انه كان بطرق
نعلاً في حانوته فتر به ولد صغير ووضع فمه في ثقب المفتاح وصرخ
” يا اسكاف يا اسكاف اشتغل في الليل ودر في النهار “ . قال
درو فيما بعد انه لو اطلقت طبيخة حينئذ يجانب اذني ما كنت
انتبهت اليها اكثر ما انتبهت الى صوت ذلك الولد فطرحت
النعل من يدي وقلت في نفسي لقد اصاب فلا بد من ان اترك هذه
العادة حتى لا ادعه يقول مثل ذلك مرة اخرى ما دمت حياً .
ولا ريب عندي ان هذا الصوت من الله فتعلمت منه ان لا اترك
للغد ما يمكيني عملة اليوم ولا اتكاسل في عملي ابداً . ومن تلك
اللحظة طرح السياسة جانباً وعكف على عمله صارفاً اوقات
العطلة في الدرس والمطالعة ثم تزوج ومال الى القريض بعض
الميل وكانت مكتبة المطبخ وطاولة المنفخ . وفي ذلك الوقت
انتشر كتاب بين المعنون بعصر العقل ووقع عند البعض موقعاً
حسناً فألف درو رسالة ردّاً عليه نقض فيها كل ادلتها وكان
يقول بعد ذلك ان عصر العقل صيره مؤلفاً ثم كتب عدة رسائل
ونشرها ومنها كتابة الشهير في جوهرية النفس وخلودها كتبه

وهو يعمل في حرفة السكافة وباعه للطبع بعشرين ليرا حاسبا
 ذلك ثمنا كبيرا . وقد طُبع هذا الكتاب مرارا عديدة ولم ينزل
 معتبرا الى يومنا هذا . اما هو فلم يفتّر بما صادفته من الجحاح ولم
 يتفتخ ككثيرين من المؤلفين الاحداث بل بقي يعمل في حرفته حتى
 بعد ان اشتهر بالتأليف وكان يكس امام باب دكانه يده ولم
 يتوقع ان يعيش من قلمه بل من مخزونه وابرتوه على انه اعتمد ان
 يخصص كل اوقات العطلة للقراءة والتأليف ولكنه زاد علما
 وشهرة حتى استخدمته البعض منشئا لاحدى الجرائد ومحمررا البعض
 الكتب وكان يكتب في جريدة الاكلكتك و ألف تاريخا لوطنو
 وكتبا اخرى وكان يقول حتى آخر دقيقة من حياته اني خرجت
 من ادنى الدرجات واجهدت دائما على البلوغ الى اعلاها
 بالاجتهاد والاقتصاد والاستقامة وقد وفقتني العناية الالهية وكللت
 مساعي بالنجاح

ومن اشهرها بالمواظبة يوسف هيوم الذي مع ان قواه
 العقلية كانت معتدلة فاق من سواه بالاجتهاد والمحزم والمروءة
 فان اياه مات وهو ولد صغير فعائلته امة بتعب يديها ووضعتة
 عند جراح ليتعلم الجراحة فتعلم وسافر الى الهند مرارا عديدة (١)

(١) لما كان هيوم جراحا في السفن تعلم سلك البحر من نفسه فماد
 عليه بالنفع بعد سنين كثيرة وذلك انه سافر مرة من لندن الى ليك
 وصادف السفينة التي كان فيها نوحه شديد وجن الناختاة (القبطان)
 فاستلم هو ادارة السفينة ونجاها من الغرق

جراحاً في السفن ثم دخل في خدمة الشركة الهندية فقام
 بعبد خدمته بكل نشاط ونال اعتبار من هم اعلى منه فرفعوا
 مرتبته. وصنة ١٨٠٢ دخل في فرقة من الجند تحت قيادة الجنرال
 هول في حرب مهرتا فمات الترجمان فاقم مقامه لانه كان قد
 درس اللغات الهندية واثقها ثم جعل رئيساً لاطباء الجند واخذ
 ايضاً رياسة البريد ودفع المال وتهد بتقديم المون للجنود وقام
 بعبد هذه الاعمال كلها وبعد ان قضى نحو عشرين في العمل
 المتواصل رجع الى انكلترا بهال وافرو كان اول شيء عمله ان
 اعطى فقراء عائلته ما يكفيهم. ولم يكن ممن يتمتعون بنتيجة انعامهم
 بالكسل والتراخي بل كانت لذته العظي في انصبايه على العمل
 فطاف في كل مدن المملكة الصناعية لكي يطلع على حالتها الادبية
 والماضية ثم طاف في البلدان الاجنبية لكي يطلع على احوال صناعتها
 ومعاملها ورجع الى بلاده ودخل البرلمان سنة ١٨١٢ ودام فيها
 نحو اربع وثلاثين سنة واول خطاب مدون انناه في البرلمان
 كان في التعليم العمومي. وفي كل مدة عضويته كان مهتماً في هذه
 المسئلة وغيرها مما يوول الى رفع شان الامة كاصلاح السجون
 والقصاصات واقامة بنوك الاقتصاد وحرية التجارة والاقتصاد
 في النفقات وامتداد العلاقات وما اشبه. ولم يتعرض لموضوع
 الا فرغ فيه جهده ولم يكن فصيح اللسان الا انه كان لكلامه وقع
 عظيم لان السامعين حسبه كلام رجل مستقيم مدقق وكثيراً ما

كانوا يضحكون عليه ويهزأون به ويغلبونه بأكثرية الاصوات
ولكنه كان يدافع عن آرائه بحجاسة شديدة فتحصل الثالثة من
كلامه ولو كان المحكم ضده . وكانت اعماله كثيرة جداً فكان يقوم
قبل الظهر بست ساعات ويكتب مكاتيبه ويهيئ اوراقه للمجلس
ويتناول غذاه ويقابل نحو عشرين من لم اشغال معه ثم يذهب
الى المجلس وكثيراً ما كانت اجتماع المجلس تمتد الى الساعة الثالثة
بعد نصف الليل فكان يلزمه من اوله الى آخره . والمخالصة انه
باشراعمالاً عظيمة وواظب عليها سنين كثيرة وكثيراً ما كان يقوم
كل اعضاء المجلس ضده ويهزأون به ويغلبونه ولكنه لم ينثن عن
عزمه ولا خارت قواه ولا ضعفت آماله . وقد عاش حتى رأى
الجميع يسلمون باكثر مبادئه ويعلمون بها وهذا من اعظم ما جاءت
به ترجمات البشر واكبر الادلة على قوة المواظبة

الفصل الخامس

في المساعدات والفرص

قال الفيلسوف بآكون . لا يقدر العقل ولا اليد اذا تركا وحدهما ان
 يفعلا كثيراً ولا يتم عمل الآ بادوات ومعونات يحتاج اليها العقل كما يحتاج
 اليها اليد

وقيل في اللاتينية . ان الفرصة عجز هزيمة قد تناثر شعر قنالها وتكاثر
 شعر ناصيتها فان ابتدرتها من قبل مسكتها واذا تركتها حتى جاوزتك لم
 تقدر على مسكها انت ولا زفس نفسه

الصدفة لم تفعل كثيراً في النتائج العظيمة . والاجتهاد الطريق
 الوحيد السليم للنجاح الاكيد . يحكى ان المصور الشهير كولسن كان
 اذا صور صورة بعد عنها قليلاً ووضع قلماً في راس عصا طويلة
 واحدق بنظره الى الصورة ثم لمسها براس القلم لمسات قليلة فزادت
 بهاء ورونقاً ولكن ما كل من وضع قلماً في راس عصا يقدر ان

يفعل كما فعل ولسن لأن ولسن لم يبلغ هذا المبلغ إلا بعد تعب
سنين عديدة. فمن حاول ذلك ولم يكن متمرناً كان خطاهُ أكثر
من صوابه X

الانتباه الشديد والاجتهاد الدائم صفتان لازمتان للعامل
الحقيقي. والرجال العظام لا يغفلون عن امرٍ مما كان صغيراً
ولا يملون من التعب والتكرار. حكى ان الشهير ميخائيل انجلو كان
مرة يبين لاحد اصحابه ما فعله في تمثال كان امامه بعد زيارة
صاحبه هذا السابقة فقال انني قد رفعتُ هذا الجزء وخفضتُ
ذاك ودققتُ هذا وغلظتُ ذاك فقال صاحبه ولكن ذلك امرٌ
طفيف جداً فقال لعلك مصيب في ما قلت ولكن اعلم ان الكمال
مجموع من امور طفيفة وان لم يكن طفيفاً. ويروى ان المصور نقولا
بوسن كان واضعاً دستوراً لاعماله وهو ان كل ما يستحق ان يعمل
يجب ان يُعمل جيداً وقيل انه بعد ان تقدم في السن سألته صاحبه
فغفل ده مرقيل ثم حصلتَ هذا الاسم العظيم بين مصوري ايطاليا
فاجابه على الفور بعدم اهمالي شيئاً

ومن الاكتشافات ما يُنسب الى الصدفة ولكننا اذا معنا
النظر وجدنا انه قلما يوجد فيها ما يستحق ان ينسب الى الصدفة
ويمكننا ان نقول ان ما يدعى صدفة ليس الا فرصة مناسبة
استغناها اولو الدراية. ومن هذه الاكتشافات التي ينسبها البعض
الى الصدفة سقوط التفاحة امام نيوتن ولكن ألا يعلم هولاء ان

عقل نيوتن كان مشتغلاً قبل ذلك بسنين عديدة في البحث عن
سبب الثقل وكان سقوط الفناخه وسيله لامتناه افكاره الى
حقيقه هذا الموضوع . ومن ظن ان فقايع الصابون تقود
الفيلسوف بن لاكتشافه المتعلق بالتحلل الدور . والمعارف ان
الرجال العظام لا يلتفتون الا الى الامور العظيمة وليس ذلك
بسديد لان نيوتن ومن كانا يلتفتان الى الامور الصغيرة كما الى
الكبيرة وما من اعظم رجال الدنيا

من اكبر علل الفناضل بين الناس عدم تعاونهم في الملاحظة
قال المثل المسكوبي ان عدم الملاحظة بطرف الغابات ولا
يرى فيها خشباً يصلح للوقود وقال الجامعة الحكيم عيناه في
راسه اما الجاهل فيسلك في الظلام وقال السر جونسن لطريف
عند رجوعه من ايطاليا قد يستفيد البعض من مرشح همدند
اكثر مما يستفيد غيرهم من سياحة كل اوروبا وحيث لا يرى الجهال
شيئاً يرى العلاء اموراً كثيرة ومجتزق نظرم ما امامهم من
الحوادث ويرون ما بينها من المشابهة والمخالفة ويقيسون بعضها
على بعض ويعرفون اسبابها . مثلاً ان كثيرين قد رأوا ثقلاً معلناً
يجعل يتحرك الى امام والى وراه ولكن ما منهم من استنتج من ذلك
شيئاً سوى غاليليو فانه رأى يوماً قنديلاً يتحرك في قبة كنيسة بينما
فاتحه اليه مع انه كان فقي في الثامنة عشرة وما زال يعمل فيه
فكرته مدة خمسين سنة حتى استنتج له ان يستفهم حركة لنياس

الوقت وما من احد من رجال العلم ينكر اهمية هذا الاختراع
 او ينسب بولختراناً آخر. وقد سمع غالباً مرة ان انساناً هولندياً
 اسمه ليبرشي صانع عوينات اهدى للكونت موريس آلة اذا نظر
 بها الى الاشياح البعيدة بانث قريبة فاشتغل في هذا الموضوع
 وما زال يعمل فكرته فيه حتى اصطنع التلسكوب الذي هو اساس
 علم الهيئة الحديث. فلا يمكن لاحد ان يكتشف اكتشافات مثل
 هذه ما لم يكن شديد الانجباء

قيل ان المرصوميل برون كان يتأمل كثيراً في اقامة
 قنطرة لنهر تويد فكان متبينة وقليلة النفقة فحدث في احد الايام
 انه شاهد عنكبوتة مائة خيطها من شجرة الى اخرى وكانت تسير
 عليه كما على جسر فخطر على باله انه يمكن ان تصنع جبال او
 سلاسل من حديد وتعلق من جانب الى آخر فيكون منها جسر
 متين رخيص فاصطنع الجسر المسمى بالجسر المعلق على هذا المبدأ
 وقد تعلم السرايسميرت برتل طريقة عمل السرداب المشهور تحت
 نهر التمس من الارضة التي تنفر الخشب بمشفرها وتدهن الازج
 الذي تنفره بمادة لزجة التوام فقل هذا العمل تماماً واحضر ذلك
 السرداب العجيب

والرجل الننيه يستفيد من الحوادث التي يراها منها كانت
 طفيفة ألا ترى ان كولبس مكتشف اميركا سكنت شعب رجاله
 واقنعهم انهم مصيبون براً بعد قليل اذ رأى شيئاً من العشب

طافياً على وجه الماء . وما من امرٍ الألة شيء من المنفعة مها كان
 طفيفاً . فعلى بال من خطر ان أكثر الجبال والصخور الكلسية
 بنتمها حيوانات صغيرة لا تدرك إلا بواسطة المكرسكوب . فليس
 بعجيب اذا تولدت الكباثر من الصغائر وتجتبت النتائج العظيمة
 من المبادئ الطفيفة بل ان سر تقدم العلوم والفنون والصنائع
 والحرف هو ملاحظة الامور الدقيقة الطفيفة . وجميع العلوم مؤلفة
 من مجموع ملاحظات الاجيال السالفة والمحاضرة مع ان كثيراً
 من هذه الملاحظات بان في اول الامر طفيفاً لا طائل تحته وربما
 بقي زماناً طويلاً بدون ان تتج منه فائدة . ألا ترى ان علم قطع
 المخروط الذي وضعه ابولونيوس بروجوس بقي أكثر من عشرين
 قرناً قبل ان استقدم لشيء اما استخدامه فكان في علم الفلك
 الذي لا ينكر احد فائدته في امور كثيرة ولا سيما في سلك البحار .
 ولو لم يتعب الرياضيون اجيالاً عديدة في معرفة نسبة الخطوط
 والسطوح بعضها الى بعض ما تمت كل الاختراعات الميكانيكية
 التي نراها في هذا العصر

✕ قيل انه لما اكتشف فرنكلين وحدة البرق والكهربائية
 قال له البعض ازدرأ ما منفعة هذا الاكتشاف فاجابهم انه
 سيشب كما يشب الطفل فترى منفعته . وعلى بال من خطر ان
 اكتشاف كلثني حركة عضلات الضدع اذا اتصل بها معدنان
 مختلفا النوع تتج منه نتائج عظيمة مثل التلغراف الذي ربط العالم

بعضه ببعض كما تربط الاعصاب اعضاء الجسد وان ثقب قطع
 صغار من الحجارة والاحافير يولد علمين جليلين وهما علم الجيولوجيا
 وعلم المعادن وفوائد هذين العلمين اشهر من ان تذكر ولا سيما علم
 المعادن . والالات العظيمة التي تدبر المعامل وتمشي المراكب
 وتخرق الجبال وتعمل كل عمل صغيراً كان او كبيراً يتوقف فعلها
 على نقط صغيرة من الماء تمددت بالحرارة حتى صارت بخاراً او هي
 وان كانت صغيرة اذا حصرت في آلة فعلت بقوة تزيد على قوة
 ربوات من الخيل وهذه القوة نفسها تفعل في جوف الارض

فتسبب براكينها وزلازها

قبل ان مركزه وسرانه الى موضوع البخار لما كان مسجوناً
 في برج لندن من ملاحظته ارتفاع غطاء اناه متضمن ماء غالباً
 ثم بحث في هذا الامر طويلاً ودون كل ما لاحظته في كتابه المسمى
 عصر الاختراعات ثم قام سثري ونيوكن وغيرها وسعوا في استخدام
 ملاحظات ستر فاصطنعوا الآلة البخارية واصلوها الى الدرجة
 التي رآها فيها وط لما استدعي لاصلاح آلة نيوكن الخاصة بمدرسة
 كلاسكو الجامعة كما تقدم . اما وط فلم يدع هذه الفرصة تذهب
 سدى بل استغناها فكانت باعثاً جعله يصرف عمره في اصلاح
 الآلة البخارية

واعلم ان استغنام الفرص ومراقبة الحوادث العرضية وتحويلها
 الى مقصد من المقاصد هي سر عظيم من اسرار النجاح ومن قصد

النجاج في امر لا بد من ان يجد فرصاً تسرله ذلك الامروان لم
 يجدها بوجودها بنفسه . وليس النجاج متوقفاً على الدرس في
 المدارس الكبيرة والانتظام في الجامعات العلمية لان اكثر العلماء
 والمخترعين لم يكن لهم شيء من هذه التسهيلات بل ان الصعوبات
 جعلتهم ان يفلحوا . وافضل الصناعات لم يكن لهم ادوات مناسبة
 لعمالها بها ولكن ليس الصناعات بادوات بل بمخترعاتهم ومواظبتهم . قيل
 سأل بعضهم اوبي المصور ثم تمزج الالوان حتى تصير يد يعة بهذا
 المقدار فاجابة على الفور اني امزجها بدماعني . وهذا شأن كل
 صانع ماهر . ألا ترى ان فرغوسن صنع ساعة خشب ولم يكن
 معه من الادوات غير سكين صغيرة ما يوجد مع كل ولد ولكن
 ليس كل ولد فرغوسناً . والدكتور بلاك اكتشف الحرارة المخفية
 بواسطة كوبة من الماء وثرمو مترين فقط . والفيلسوف نيوتن حل
 النور وعرف اصل الالوان بواسطة موشور وعدسات وقمرطاس .
 قيل زار احد العلماء الدكتور ولستون وطلب اليه ان يريه عمل
 امتحاناته الذي اكتشف فيه تلك الاكتشافات العظيمة فادخله
 الى غرفة صغيرة وراه كوبة عتيقة فيها قليل من زجاجات
 الساعات واوراق الكشف ومجانبيها ميزان صغير ويوري وقال
 له هذه كل الآلات التي اعلم بها . وستورثد تعلم صناعة تركيب
 الالوان من اجنحة الفراش وقد قال من فيه لا احد يعرف كم انا
 مديون لهذا الحيوان الصغير . ولكي شرع يتعلم التصوير وقلمه

فحة وقرطاسة باب مذود . وبيوك تعلم الرسم وقلمه الطباشير
 وقرطاسة الابواب ايضاً . وفرغوسن عمل خارطة للاجرام السموية
 على هذه الكيفية وهي انه كان يذهب الى البرية ويطحف بازار وينام
 على ظهره ويقيس البعد النسبي بين جرم وآخر بواسطة سمط فيه
 عدة خرزات . وفرنكلين عرف ماهية الصاعقة بواسطة الطيارة .
 ووط استعمل حفة صغيرة في مثال الآلة البخارية التي صنعها
 وجفرد كان يحل المسائل الرياضية وهو صانع عند اسكاف على
 قطعة من جلد بعد ان بصلها بالطريق . ورتنوس الفلكي كان
 يحسب الكسوفات والخسوفات اولاً على مقبض المحراث وحوادث
 الحياة التي اعتدنا على مشاهدتها يوماً فيها ما يكفي الانسان
 من القُص والوسائط اذا لم يتاخر عن استغناها . فالاستاذ لي
 الشهير تحرك الى درس اللغة العبرانية اذ كان نجاراً برومه توراة
 في العبرانية في مجمع دعي اليه ليصلح مقاعده فاشترى كتاب
 نحو عيوناً في العبرانية بثمن زهيد واخذ يدرس تلك اللغة مجد
 حتى اتقنها وصار مدرساً فيها . قيل سال ديوك ارجيل ادمند
 سلون كيف امكنت وانت ولد فقيران فقرأ كتاب الاصول
 لنيوتن في اللاتينية فاجابة اذا تعلم الانسان الحروف الهجائية امكنة
 ان يقرأ كل الكلمات المألوفة منها . نعم ان الانصباب والاجتهاد
 والمواظبة واستغنام الفرص تمكن كل انسان من تعلم لغة ولو لم
 يعرف منها سوى الحروف الهجائية

ان السروانر سكت وجد سيلا لتوسيع معارفه في كل عمل
 اخذ فيه وكان يستفيد من كل حادثة ولو حدثت صدفة فلما كان
 كاتباً اضطره عمله ان يزور البلاد العالية (في اسكتسيا) فتعرف
 بالابطال الذين خاضوا معامع الحروب القديمة واقتبس منهم
 اخباراً كثيرة جعلها اساساً لاكثر تأليفه . ثم لما تقدم في السن جعل
 رقيباً على جراية الفرسان في ادنبرج فأنفق له ان فرساً ابطة فتمت
 عن المشي فلانم بينه مدة ولكنه كان . مطبوعاً على علاوة الكسل
 فاخذ في التأليف فصنف الجزء الاول من شعره المسمى اغنية
 المغني الاخير في ثلاثة ايام واثمة بعد ايام قلائل وهذا الشعر من
 اول مبتكراته التي اشتهر بواسطتها . واول شيء نبه الدكتور
 بريستي مكشف الغازات الى موضوع الكيمياء رويته الوانا مختلفة
 في الاقباس التي تنطفئ في الغازات الصاعدة عن السائلات
 المخضرة وعند ما لاحظ ذلك كان ابن اربعين سنة ولم يكن يعرف
 شيئاً من علم الكيمياء فاخذ يفتش في الكتب عساه يجد سبباً لذلك
 لانه فلما كان يعرف من هذا الموضوع حينئذ فاعد لنفسه بعض
 الادوات وشرع يمتحن بها وتدرج من امتحان الى آخر فوجد علماً
 قائماً بنفسه هو الكيمياء الغازية وفي ذلك الحين كان شيل الاسوجي
 يشتغل في هذا الموضوع في قرية من اسوج فاكشف عدة غازات
 وليس له من الادوات سوى قليل من القناني والمئات . والسر
 همري دافي امتحن امتحانات كثيرة وهو عند صانع صيدلي بواسطة

ادوات صغيرة جداً مثل المثالي والقدرور والقناني وغير ذلك
وحدث مرة أن سفينة فرنساوية غرقت بقرب لندس اند ونجا
جراحها فتعرف بدائي واهداهُ حُفنة عتيقة كان قد خلصها من
الغرق ففرح بهذه الهدية فرحاً لا مزيد عليه واصطنع بها آلة
لتفريغ الهواء استخدمها في البحث عن ماهية الحرارة ومصدرها .
وكذلك الاستاذ قرداي خليفة السر همفري دائي امنح اول
امتحان في الكهر بائية بقنينة عتيقة وهو بعد صانع عند مجلد كتب
ومن الغريب انه مال الى درس الكيمياء بسماعه خطاب فيها من
السر همفري دائي في المدرسة الملكية وفي ذات يوم اتى الى حانوت
معلمه رجل من عمدة تلك المدرسة فوجدهُ عاكفاً على درس
الكهر بائية في انسكلوبيديا كان يجدهُ وبعد البحث وجد ان له
رغبة شديدة في درس هذا العلم فاذن له بدخول المدرسة
فدخل وسمع فيها اربع خطب من السر همفري دائي فدوّن شيئاً
من هذه الخطب وراهُ للخطيب فشهد بصحة واندهل لما علم ان
ذلك الشاب لم يكن سوي صانع عند مجلد كتب ثم ان قرداي
اطلع السر همفري على قصده وهو تخصص نفسهُ بالعلوم الكيماوية
فنهاه عن ذلك فلم يتو بل لازم الدرس الى ان ادخل المدرسة
معاوناً للسر همفري واخيراً جلس صانع مجلد الكتب في منصب
صانع الصهدي (اي السر همفري) . وما يستحق الالتفات الكلام
الذي كتبه دائي في مفكرته وهو ابن عشرين سنة قال "ليس لي

ثروة ولا قوة ولا شرف لكن اذا فسخ الله لي في الاجل خدمت
 جلي اكثر ما لو كنت غنياً قوياً شريفاً" وكان لدائي استطاعة
 على توجيه كل قوى عقله الى الموضوع الباحث فيه والى كل
 متعلقاته ومن كانت هذه الصفة صفة لا بد من ان ياتي بتأنيج
 كثيرة. قال كلردج في وصف دائي ما معناه ان عقله كسيف
 فيه صنفا المرونة والصلابة فلم ينسب عن مسألة الا يرجع اليها حالاً
 وفصلها كيف لا ولم يُعرض عليه مشكل الا حلة وانا رظلمته بنور
 حكمته وبرهانه السديد / اما دائي فقال في كلردج ما مفاده
 انه شديد الذكاء واسع الفكر رحب الصدر ولكنه عديم النظام
 قليل التدقيق

وكوفيه العظيم كان من اشد الناس اتبهاً واكثرهم اجتهاداً
 وتدقيقاً في الامور. قيل انه مال الى درس التاريخ الطبيعي وهو
 صبي صغير برويته مجلداً من كتاب بنون فاخذ من ساعته في
 نقل الصور التي فيه وتلوينها حسب الشرح. ولما كان في المدرسة
 اهله بعض معلميه كتاب نظام الطبيعة للينوس النباتي فكان
 هذا الكتاب كل ما يملكه من الكتب في التاريخ الطبيعي مدة
 عشر سنين. ولما بلغ الثامنة عشرة جعل معلماً لاولاد عائلة ساكنة
 بقرب البحر واذ كان ماشياً ذات يوم على شاطئ البحر رأى
 اخطبوطاً مطروحة على الشاطئ فاستغرب منظرها واخذها
 الى بيته ليشرحها ومن ثم شرع في درس الحيوانات الرخوة العلم

الذي اشتهر به بعدئذ شهرة فائقة وكان كل يوم يرى امورا جديدة فتوثريه رؤيتها اكثر من صورها واصافها . فر عليه ثلاث سنوات قابل فيها بين الحيوانات البحرية والاحافير (ما يحفر من الاصداف والاسماك المتحجرة) اثني في تلك النواحي وشرح كل حيوان بحري وصات اليه بده وبعد البحث المدقق اعدّ طريقا للاصلاح الكامل في ترتيب انواع المملكة الحيوانية . ونحو ذلك الوقت تعرّف بالعالم الشهير الاب تسيه فكتب هذا الى اصحابه في باريس من جملتهم جسو يدح كوفيه ومعارفه الطبيعية وبالغ لم في مدحه حتى انهم طلبوا من كوفيه ان يرسل بعض ما كتبه في هذا الفن الى لجنة التاريخ الطبيعي . ثم عينوه معاونا لمدير جردن ده بلنت (معرض التاريخ الطبيعي) . قال تسيه في كتابه الى جسو ألا يخطر ببالك انني انا الذي قدمت دليلا الى الاكادمي وانا الآن اقدم لها دليلا آخراه . ومن ينكر ان كلام تسيه قد تم اكل تمام

يظهر ما تقدم ان ليس الفضل للصدقة في نجاح الذين نجحوا ولا للفرض بل لاجتهادهم وحزمهم . واحسن الفرص وافضل الوسائط لاتنفع الكسلان المتهامل شيئا لانه لا يتجاوزها ولا يرى فيها نفعاً ولكن النجاح الذي يحصل من استغنام الفرص والانتفاع بها يفوق التصديق فان وط مثلاً درس الكيمياء والميكانيكيات وهن بصنع الآلات الرياضية وكان في ذلك الحين يتعلم اللغة الجرمانية

من صباح سويسراي . وستفنين درس الحساب والمساحة في
 بدل الليل وهو يوقد في آلة بخار وكان يعمل المسائل الحسابية في
 فرص الاكل بنقطة طباشير على جوانب مركبات الفحم ويزوي
 عن دلتن الشهير انه كان يقيم في المدرسة شتاء ويعود في الصيف
 الى حراثة الارض وكان يتبارى هو ورفقاؤه في الدروس على رهان
 يكسبه السابق فكسب مرة ما امكنه من اتباع شموع تكفي فصل
 الشتاء . وداوم على اخذ الرصد المتيورولوجية الى يوم اوبومين
 قبل وفاته وكانت جملة رصوده ٢٠٠٠٠٠٠٠ رصد

ان اهل المواظبة يستقدمون فضلات الوقت لتفاد جليلة
 ويتفعمون بها نفعاً عظيماً لان الانسان الذي عقله في درجة وسطى
 يقدر ان يتقن بعض العلوم في اقل من عشر سنين اذا درسها
 ساعة فقط كل يوم . فيجب ان لا تصرف ساعة من الوقت بدون
 ثمره عقلية او مادية اذ نتعلم شيئاً يستحق التعلم او نقوي فيها خلقاً
 من الاخلاق المحسنة او عادة من العوائد الحميدة والله در الفائل
 اذا فاتني يوم ولم استفد به ولم اكتسب علماً فما ذاك من عمري
 قيل ان الدكتور مازون كود ترجم لكراتيوس في جولائه من
 بيت مريض الى بيت مريض آخر والدكتور درون الف كل
 كتبه على الطريقة نفسها والدكتور برني تعلم الفرنسية
 والاطالية وهو ذاهب الى بيوت تلامذته ليعلمهم الموسيقى وكرك
 هويت تعلم اليونانية في ذهابه الى مجلس القضاء وايابه . والمؤلف

يعرف رجلاً معتبراً تعلم اللاتينية والفرنساوية وهو يحمل المكاتب
 الى اربابها في اسواق منشستر . ودَعَسُو احد مشيري فرنسا
 الف كتاباً ضخماً في الفترات على المائدة بين طعام وطعام . ومام
 ده جنلي الفت عدداً من كتبها في الدقائق القليلة التي كانت
 تمضيها في انتظار الاميرة التي كانت تدرسها . واليهو برت نسب
 نجاحه الى استغناءه وفضلات الوقت فقد اتفق ثمانى عشرة لغة
 بين قديمة وحديثة على عشرين لغة من لغات اوريا وهو يحصل
 معيشته من صناعة الحداة

الوقت ثمين وهو راس مالنا الوحيد وان فات لا يرجع قط .
 قال جكسن الاكستري اذا اسرف الانسان اليوم ماله امكنه ان
 يقتصد غداً بما يعوض الخسارة ولكن من يمكنه ان يقول ساقصد
 في سادات الغد ما يعوض عن ساعات اليوم . قيل ان ملنكثون
 كان بدون كل ساعة اضاعها حتى يزيد اجتهاداً بما يعوض
 عنها . وقبل كتب احد العلماء الايطاليين على بابو من دخل الى
 هذا البيت يجب ان يشترك مع الذين فيه في عملهم . وقيل ان
 قوماً دخلوا مكتبة بكستري بقصد الزيارة وقالوا له من باب النجمل
 نخاف ان نكون قد اضعنا وقتك فاجابهم حقاً قد اضعتم

ومن الامور الغريبة التعب الذي تهبه بعض الناس في اتمام
 اعمالهم فان نيوتن كتب كتابه المسمى بالخرنولوجيا خمس عشرة
 مرة قبلما اتم تهذيبه وكيون كتب كتابه (الموار) تسع مرات .

من صباغ سويسراني . وستفنسن درس الحساب والمساحة في
 بدل الليل وهو يوقد في آلة بخار وكان يعمل المسائل الحسابية في
 فرص الأكل بقطعة طباشير على جوانب مركبات الفحم وبرزى
 عن دلتن الشهير انه كان يقيم في المدرسة شتاء ويعود في الصيف
 الى حراثة الارض وكان يتبارى هو ورفقاؤه في الدروس على رهان
 بكسبه السابق فكسب مرة ما امكنه من ابتغاء شموع تكفيه فصل
 الشتاء . وداوم على اخذ الرصود المتيورولوجية الى يوم او يومين
 قبل وفاته وكانت جملة رصوده ٢٠٠٠٠٠٠ رصد

ان اهل المواظبة يستقدمون فضلات الوقت لمقاصد جليلة
 ويتفنون بها نفعاً عظيماً لان الانسان الذي عقله في درجة وسطى
 يقدر ان يتفنن بعض العلوم في اقل من عشر سنين اذا درسها
 ساعة فقط كل يوم . فيجب ان لا تصرف ساعة من الوقت بدون
 ثمره عقلية او مادية اذ نتعلم شيئاً يستحق التعلم او نقوي فينا خلقاً
 من الاخلاق الحسنة او عادة من العوائد الحميدة والله در القائل
 اذا فاتني يوم ولم استفد به ولم اكتب علماً فما ذاك من عمري
 قيل ان الدكتور مازون گود ترجم لكراتينوس في جولائه من
 بيت مريض الى بيت مريض آخر والدكتور درون الف كل
 كتيبه على الطريقة نفسها والدكتور برني تعلم الفرنسية
 والاطالية وهو ذاهب الى بيوت تلامذته ليعلمهم الموسيقى وكرك
 هويت تعلم اليونانية في ذهابه الى مجلس القضاء وايابه . والمؤلف

يعرف رجلاً معتبراً تعلم اللاتينية والفرنسوية وهو يجمل المكتسب
الى اربابها في اسواق منشستر . ودَعَسُو احد مشيري فرنسا
الف كتاباً ضخماً في الفترات على المائدة بين طعام وطعام . ومدام
ده جنلي الفت عدداً من كتبها في الدقائق القليلة التي كانت
تمضيها في انتظار الاميرة التي كانت تدرسها . واليهو برت نسب
نجاحه الى استغناء وفضلات الوقت فقد اتفق ثمانى عشرة لغة
بين قديمة وحديثة على عشرين لغة من لغات اوريا وهو يحصل
معيشته من صناعة الحدادة

الوقت ثمين وهوراس مالنا الوحيد وان فات لا يرجع قط .
قال جكسن الاكستري اذا اسرف الانسان اليوم ماله امكته ان
يقصد غداً بما يعوض الخسارة ولكن من يمكنه ان يقول ساقصد
في سادات الغد ما يعوض عن ساعات اليوم . قيل ان ملنكثون
كان يدون كل ساعة اضعافها حتى يزيد اجتهاداً بما يعوض
عنها . وقيل كتب احد العلماء الابطاليين على بايو من دخل الى
هذا البيت يجب ان يشترك مع الذين فيه في علمهم . وقيل ان
قوماً دخلوا مكتبة بكستر بقصد الزيارة وقالوا له من باب التجمل
نخاف ان نكون قد اضعنا وقتك فاجابهم حقاً قد اضعتم
ومن الامور الغريبة التعب الذي تهبه بعض الناس في اتمام
اعمالهم فان نيوتن كتب كتابه المسمى بالخرنولوجيا خمس عشرة
مرة قبلما اتم تهذيبه وكيون كتب كتابه (الموار) تسع مرات .

وهل درس سنين عديدة وكان معدل دروسه ست عشرة ساعة كل يوم ولما كان يتعمق من درس الشريعة كان يربح نفسه بدرس الفلسفة والرياضيات . وهيوم كان يكتب في تاريخه ثلاث عشرة ساعة كل يوم . وقال مُتسكبو للاحد اصحابه انك تقرا هذا الكتاب في ساعات فلائل ولكنني اؤكد لك انني قد تعبت في تاليفه نعباً شيب رأسي

ومن الامور المفيدة التي يمارسها اكثر رجال العلم تدوين كل ما يخطر لهم من الافكار او يسمعونها من الفوائد مخافة ان تضع من حيز الذاكرة فان اللورد باكون ترك بعد وفاته كتب خط كثيرة اسمها افكار فحائية كتبت لتستعمل . والدكتور باي سمث كان يلخص كل الكتب التي يقرأها وهو عامل مع ابيه في صناعة التجليد ويتفقد ما يكتب الملخص والانتقاد ويجري على ذلك حياته كلها حتى قال فيه كتاب سيرة انه على الدوام عامل جامع متقدم اما الكتب التي جمعها على هذا الاسلوب فمكعبن للعلم والمعرفة . وقد جرى هذا المجرى الشهير جون هنتر تعويضاً عما يوه من ضعف الذاكرة وشبهه من يقرأ كتاباً ولا يدون ما يبقى في ذاكرته منه بتاجر لا يكتب اسماء بضائعه ليعلم كم عنده من كل صنف . ويليقي بنا ان نذكر طرفاً من سيرة هذا الشهير فنقول انه لم يتعلم القراءة الا بعد ان بلغ عشرين سنة من العمر ثم صار طباعاً في كلاسكو ثم التصق باخيه الذي كان مقياً في لندن معلماً

في التشريح وكان معاوناً له في التشريح العملي ثم فاقته بواسطة
 اقتدامه واجتهاده وكان اول من خصص نفسه في البلاد
 الانكليزية بتشريح المقابلة وجمع فيه مجموعاً كبيراً رتبته فيما بعد
 الدكتور ^{أون} ولكن لزم له لترتيبه مدة عشر سنين. وفي هذا المجموع
 اكثر من عشرين الف راموز ولم يجمع انسان واحد مجموعاً مثله
 قط. وكان مع ذلك يمارس صناعة التطبيب في بينو والجراحة
 في مستشفى مارجرس وبين الجنود ويخطب خطباً في هذا الفن
 ويدبر مدرسة تشريحية في بينو. ومع هذه الاشغال الكثيرة ألف
 كتباً كثيرة وامتنح امتحانات عديدة في نظام الحيوان. وكان ينام
 اربع ساعات فقط في الليل وساعة بعد الظهور ولولا ذلك ما
 قام بهذه الاعمال الكثيرة العظيمة. سألته بعضهم كيف عملت حتى
 نجحت في كل اعمالك فقال اني قبل ان اشرع في عمل اقف وانامل
 في امكانيته فان لم يكن ممكناً تركته وإلا اخذت فيه وما زلت
 حتى امكنته ولو هما نالني منه من التعب والعناء هذا هو سر نجاحي.
 وقد صرف قسماً كبيراً من وقته في ملاحظة امور كثيرة بعدها
 اهل عصره طفيفه لا طائل تحتها ولا يرجى منها كبير فائدة فقد
 تمهته معاصروه انه اضاع وقته في ملاحظة نمو قرن الغزال. الا
 انه كان يرى ان لا شيء من التدقيق في الامور العلمية عديم
 الفائدة. وكانت نتيجة دروسه في نمو قرن الغزال ان عرف كيفية
 نمو الشرايين ونقلها بتقلب الاحوال فتجاسر مرة على ربط جزع

شريان فرعي حدث فيه انيورزم فانقد العليل من الموت ولم
يخسر احد على هذه العملية قبله . وسار كل حياته معتقاً على نفسه
ولم يرَ معاصروه غاية ابحاثه الا انه واظب عليها بهمة عالية حاسباً
الجري فيها من الواجبات التي لا يقنط من يسى في اتمامها
وماك مثالاً آخر للانتباه والصبر والاقدام والمواظبة في
حياة امبروز بارى الجراح الفرنسي الشهير الذي ولد في
لاقال سنة ١٥٠٩ من ابوين فقيرين جداً لم يقدر ان يرسله
الى مدرسة بل وضعه عند خوري قريبها خادماً املاً بان يقتبس
منه شيئاً من العلوم ولكن الخوري المذكور استخدمه في سياسة بقله
وغيرها من الاعمال الدنية حتى لم يجد وقتاً للدرس . وبينما هو في
خدمته دُعي الشهير كوتو لعملية حصة المثانة في لاقال وكان
بارى حاضراً مع من حضر فانشف لبه بتلك العملية حتى انه
عزم من تلك الساعة على تخصيص نفسه بصناعة الجراحة فترك
خدمة الخوري وخدم عند حلاق جراح وتعلم منه الفصد وقلع
الاسنان وعمل بعض العمليات الصغيرة مع الحلاقة . وبعد مضي
اربع سنوات انتقل الى باريس وتلمذ في مدرسة التشرنج والجراحة
وكان يحصل من الحلاقة ما يقوم باوده ثم صار معاوناً في هوتل
ديه وكان يُضرب المثل بحسن سلوكه واجتهاده ونجاحه حتى ان
كوبل راس الجراحين سلمه المرضى الذين لم يقدر ان يقف عليهم
هو ولما انهي المدة المعينة للدرس عُيِّن معلماً في المدرسة ثم عين

جراحاً لجند منمورسي فلم يكتفِ بما اقتبسهُ من العلم ولا بالسيل
 الذي سار فيه من سلفه من الاطباء بل كان كثير الافتكار
 والتامل في اسرار صناعته واصولها ومصدر الامراض ومسببها
 والبلوغ الى العلاج الشافي . وكان الجراحون في ايامه وما قبلها
 يعذبون المجرى اكثر ما يعذبهم الاعداء لانهم كانوا يوقفون
 الدم من جروح الرصاص بالزيت الغالي والتزف الدموي
 بالكي بالحديد الحى واذا الجأهم الامر الى تدريض كانوا يبترونه
 بسكين عمدة الى درجة الحمرة . اما بارى فكان يداوي المجرى
 بالاسلوب المتعارف حينئذٍ ولكنه حدث يوماً انه لم يكن تحت
 يده زيت غالي فاسا المجرى بمضادات الالتهاب ونام تلك الليلة
 في قلق عظيم مخافة ان يكون اخطأ في العلاج ولكنه رأى في
 الصباح ان الذي عاجته هذه المعالجة مقلباً على الشفا والذين
 عاجهم المعالجة المعتادة في عذاب اليم . هذا اصل الاصلاح الذي
 احدثه في علاج جراح الرصاص فصار يعتمد عليه دائماً ثم ادخل
 اصلاحاً آخر اهم من الاول وهو قطع التزف بربط الشرايين بدلاً
 من الكي فقام عليه الجراحون وقالوا ان معالجته هذه شديدة الخطر
 وغير اصولية واعنصبوا ضده عصبه واحدة وطعنوا فيه انه عديم
 العلم ولا سيما لجهله اللاتينية واليونانية واثبتوا غلظة بعبارات
 اقتبسوها من كتب الاقدمين لم يقدر ان يشبها ولا ان يدحضها . الا
 ان افضل جواب قدر ان يجيبهم به فجاح معالجته . وكان المجرى

يدعون باسمه دائماً ولم يقبلوا علاج احد غيره فعالجهم بشقفة
وحنو وكان بعد ان يضد جراحاتهم يودعهم قائلاً قد عملت ما
عليّ وعلى الله الشفاء

وبعد ان مضى عليه ثلاث سنوات في خدمة الجند رجع الى
باريس وله شهرة عظيمة فعين جراحاً للملك . ولما اتى كارلوس
الخامس بجيوش اسبانيا وحاصر متس هلك من المحاصرين خلق
كثير وكان الذين ماتوا بيد الجراحين اكثر من الذين قتلهم
العدو فارسل دوك كويس رئيس المحاصرين يتضرع الى الملك
ان يرسل له باري فارسله وبعد معاناة مشقات كثيرة
واخطار عديدة اخترق جيوش العدو ودخل متس بالسلامة
فتاهل به الدوك والقواد والروساء واما الجنود فلموا سمعوا
بتقدمه صرخوا "لسنا نخاف الموت من جراحنا فيما بعد لان
صديقنا صار بيننا" وفي السنة التالية كان باري في مدينة هسدن
فتتمها دوك سافوا واخذهُ اسيراً الا انه شفى بعض قواد جنده
فاطلق سبيله بلا فدية فرجع الى باريس وصرف باقي حياته في
الدرس والتأليف والاعمال الصالحة . وطلب منه بعض العلماء
المعاصرين له ان يكتب اعماله الجراحية فكتبها في ثمانية وعشرين
مجلداً طُبعت في ايامه . وكتاباتُه من الطراز الاول ولا سيما الكثرة
المواد المدونة فيها التي عالجهما ونجح مجتنباً كل علاج لم يتأكد
فعلة بالفجربة . وفي جراحاً للملك مع انه كان بروتسطنتي المذهب .

ونجاة الملك شارل التاسع من القتل في مذبحه مار برثلماوس
لانه كان قد شفاه من جرح مميت اوقعه به جراح غبي في فصد
اياه. وقد ذكر برنتوم في كتاب السير قصة انقاذ الملك لباري
في ليلة مار برثلماوس فقال ان الملك ارسل دعاه اليه وابقاه
مع كل الليل قائلاً انه ليس من العدل ان يقتل انسان قد
خلص حياة كثيرين. فنجنا من احوال تلك الليلة الرهيبة وعاش
بعدها سنين عديدة ومات حنف انه بشيبة صالحة واکرام يليق

بثله

ومن الذين اشتغلوا بلا ملل في ترقية صناعة الطب هرقي
الشهير مكتشف دورة الدم الذي بحث وامعن ثماني سنوات قبلما
اشهر هذا الاكتشاف. وقد اشهره على اسلوب بسيط مقنع ولكنه
عومل بكل نوع من الاهانة والاحقار وبقي وقتاً طويلاً ولم
يصادف انساناً يختم على صدق مقالته بل كان الجميع يزعمون
انه جاء امرافياً مناقضاً اراء الاوائل والكتاب المقدس والديانة
والآداب ورماه البعض بالمجنون والخداع وهجره اصحابه وخلانه
وآل حاله الى اسوأ الاحوال. ولكن هذا الحق المبين الذي
حامي عنه سنين عديدة دخل بعض العقول وابتغ فيها ولم يرض
عليه الا خمس وعشرون سنة حتى عد من اثبت الحقائق الطبية
كرومن الذين قاسوا صعوبات كثيرة اكثر من هرقي الطبيب
ادورد جنر الذي اكتشف تطعيم الجدري. ولا بد من ان كثيرين

قبله شاهدوا جدري البقر وسمعوا الكلام الجاري على السنة
 الحلابات وهوان الذي يجدر بجدرى البقر يسلم من الجدرى
 العادي ولكنهم عدوه اشاعة كاذبة وما منهم من ظنه يستحق
 الامتحان حتى طرق مسامع هذا الشهير عند ما كان يدرس في
 سربري وذلك ان ابنة فلاحه دخلت حانوت معلمه لكي تسنشه
 في مسئله ما وحدث حينئذ ان بعض الحاضرين ذكر ما كان
 من امر الجدرى فقالت الابنة انا لانا انعمدي بهذا المرض لانني
 تجدرت بجدرى البقر. فاتبه جنر الى هذا الامر واخذ من ساعته
 يتعنه ثم كاشف البعض من اصحابه الاطباء بذلك فضحكوا به
 ويهددوه بالطرد من بينهم اذا تجاسر مرة اخرى وذكر لم هذا
 الامر. ثم درس قليلاً في لندن على جون هنتر وكاشفه بما في
 نفسه فقال له لا تظن ظناً بل امتحن امتحاناً وكن صبوراً مدققاً في
 بحثك . فتتوت عزائمها بهذا الكلام . ثم انتقل الى الجبال لكي
 يارس صناعته ويجرب الطعيم ويتعنه ملياً فدام على ذلك عشرين
 سنة وكانت ثفته في الطعيم قوية جداً فطعم ابنة ونشر امتحاناته
 في رسالة تحذوي سبعين صفحة ذكر فيها انه طعم ثلاثة وعشرين
 شخصاً بجدرى البقر فلم يعد ممكناً للجدرى العادي ان يصيبهم
 لا بالمخالطة ولا بالعلقج لكن انظر كيف قبلت هذه الرسالة او
 بالحري هذه الاكتشاف . ففي اول الامر لم يكن ثرت له احد ثم
 قام على جنر خصوم كثيرين بسببه حتى انه لما اتى لندن بقصد

استعمال التطعيم بقي ثلاثة اشهر بدون ان يطعم احداً ولم يقبل احد من الاطباء ان يستعمل التطعيم . فرجع على عقبه وقام عليه خصومة ونسبوا اليه اموراً يضحك منها الاطفال في هذا الجيل منها انه قصد ان يحول البشر الى بهائم بادخال مادة بقرية في بنينهم اما رجال الديانة فنادوا في الكنائس بان التطعيم صناعة شيطانية شريرة وتطرف بعضهم فقال ان الاولاد المتطعيمين تصير وجوههم مثل وجوه البقر ويتبث لهم تنوات على شكل قرونها وتتغير هيئتهم رويداً رويداً الى هيئة البقر ويصير مزاجهم بقرياً وصوتهم خواراً . وكانوا يرجحون المتطعم اذا خرج من بيته . ومع كل هذه المقاومات وهؤلاء الاضداد كان التصديق بالتطعيم يتد يوماً بعد يوم . ولول من اقدم على استعماله السيدتان الشريفتان السيدة دوسي والكوتة بركلي فطعمتا اولادها فانكسرت شوكة المقاومين ومال الاطباء الى تصديق جزر . ومنهم من حاول ان يسلبه شرف هذا الاكتشاف ولكن خاب مسعاهم وثبت الحق لجنر وجوزي علانية . ثم دعي للسكنى في لندن واكد له البعض انه يمكنه ان يحصل هناك عشرة الاف ليرة سنوياً فاجابهم اني في شهيتي فضلت وادي الحياة على جبلها والان في شيخوختي لا يلبق بي ان اطعم بثروة ولا بشهرة . اما التطعيم فانتشر في كل العالم المتحضرين في حماة جنر واقرلة الجميع بالنצל من عال ودون . قال كيثيه اذا كان التطعيم الاكتشاف الوحيد الذي اكتشف

في ذلك العصر فيه الكفاية لاشهاره الى الابد ولو كان قد قرع ابواب المدارس عشرين مرة قبلها قبلته

ومن الذين اظهروا حزمًا وعزمًا واقدامًا السر تشارلس بل الذي اكتشف امورا كثيرة في المجموع العصبي فان كل ما عرفه العلماء قبل ايامه عن هذا الجهاز كان اوهم من بيت العنكبوت ولم يزيدوا شيئا نظريا على ما كان يعرفه ديقورات وانكساغوراس من مضي ثلاثة آلاف سنة . واما السر تشارلس بل هذا فابتداء سنة ١٨٢١ ينشر رسائل في هذا الموضوع مبنية على اجاث مدققة وامتحانات متواليه وقد تتبع للمجموع العصبي من ادنى الحيوانات رتبة حتى الانسان اعلاها وشرح ذلك شرحا وافيا . وهو الذي قال ان الاعصاب الشوكية مزدوجة الوظيفة وانها تنشأ باصبعين من الحبل الشوكي وان احدها للحس والآخر للحركة . ودام هذا الموضوع شاغلا افكاره مدة اربعين سنة وحينئذ اشهر اراءه علانية امام الجمع الملكي وذلك سنة ١٨٤٠ ولكن اصابه ما اصاب هرقي وجنر وهو انه بعد ان تعب تعباً جزيلاً في تسكيت المستهزئين والحام المضادين وجد اناسا كثيرين قد قاموا وادعوا بحق هذا الاكتشاف وخسر ايضا ممارسة صناعتهم واعتباره بين الناس مثلهم وفي الاخر اثبت له حق الاكتشاف واقرله الجمع بالفضل من قاص ودان حتى ان كوفيه نفسه لما رأى وجهه قد انحرف الى الجانب الواحد وهو على فراش الموت اشار الى

الحاضرين وقال ان هذا برهان قاطع على صدق مذهب السر
تشارلس بل

ومن الذين يجب ذكرهم في هذا المقام الطيب مرشل هل
فان هذا القاضل مارس صناعة الطب بنشاط وامانة وكان
يبحث في اسرارها ويتعمق في غوامضها باجتهاد لا يفوقه اجتهاد
متبها الى كل حادثة مها كانت طفيفة . والاكتشاف العظيم
الذي اكتشفه وخلصه اسمه بين رجال العلم حدث اصلاً باسباب
بسيطة لانه كان مرة يتمن الدورة الرئوية في حلزونة مجرية فنقطع
راسها ونزع ذنبها ووكرها بالصدفة في الغشاء الخارج فتحركت من
ذاتها وتلوت مرات كثيرة ولم يكن قد لمس عضلة ولا اعصاباً عضلية
وربما ان كثيرين شاهدوا هذه الحادثة قبلة ولكنه كان اول من
نظر اليها نظر الخبير المدقق واخذ من تلك الساعة يجرب
ويتمن عساه ان يعرف سبب هذه الحركة ويقال انه صرف اكثر
من خمسة وعشرين الف ساعة باحثاً في هذا الموضوع حتى عرفه
تماماً وكان في الوقت نفسه يطيب ويدرس في مستشفى مارتوما
وفي مدارس اخرى طبية . ومن العجيب ان الجمع الملكي رفض
اكتشافه هنا ولم يتبله الا بعد مضي سبع عشرة سنة حينما قبل
في كل الاقطار

ومن هم مثال للاجتهاد والمواظبة ايضاً السر وليم مرشل
الشهير الجرمانى الاصل . كان ابوه مغنياً فقيراً الحال وله اربعة

بين فعلهم حرفته فاتي احدهم وليم انكثرا في طلب رزقه ودخل
 مغنياً في فرقة حربية وفي احد الايام مرّ الدكتور ملر فسمعه
 يغني على الرياب فاعجبه ذلك الغناء وتحدث معه مدة فانسر
 بجديته وطلب اليه ان يترك مركزه ويقم في بيته فاجابه الي
 طلبه وكان في بيته مدة وهو يستغنى كل فرصة ليدرس في كتب
 ذلك الدكتور وحينئذ صنع ارغن لكنيسة هليفكس وطلب له
 مغني فوق الانتخاب عليه . ثم انتقل الى باث وكان يغني في
 بعض المراح ويدق على الارغن في الكنيسة . ونحو ذلك الوقت
 اكتشف اكتشافات جديدة في علم الهيئة فانشغل باله بها ومال
 الى البحث في هذا العلم فاستعار من احد اصحابه نظارة من
 النوع الغريغوري وكان يرصد بها ثم سام تلسكوباً لاتباعه
 فطلب فيه مبلغ كبير جداً فعزم من ساعته على اصطناع تلسكوب
 مها كلفة من النعب . والذين يعرفون ما هو تلسكوب الانعكاس
 وما يقتضي لمراة من النعب والحذاقة يعرفون جسامه العمل
 الذي اقدم عليه هرشل ولكنه نجح ولو بعد تعب شاق وصنع
 تلسكوباً عاكساً طوله خمس اقدام نظر فيه حلقات زحل واقماره
 ولم يكتب بذلك بل صنع عدة نظارات منها ما طوله سبع اقدام
 وعشر اقدام واخيراً صنع واحدة طولها عشرون قدماً ولما كان
 يعمل التي طولها سبع اقدام صنع اكثر من متني مرآة قبل ان
 وجد واحدة مناسبة وهذا دليل قاطع على شدة مواظبه وكان في

غضون هذه المدة يحصل معيشته من صناعة الغناء. ثم اكتشف اورانوس وحسب مقدار دائرته ومعدل حركته وارسل النتيجة الى المجمع الملكي فاشتهر بذلك شهرة عظيمة وعين فلكياً ملكياً ورفاه الملك جورج الثالث الى منصب يليق به . فبقي مع ما حازه من الرفعة والشهرة متضعاً رقيق الجانب كما كان قبل ان عرف شي من امره ولعله لا يوجد في سير البشر من ضاهاه في الرقة والصبر والنجاح

ومن ثم مثال للصبر والاجتهاد واستغنام الفرص ولهم سميت منشى الجيولوجيا الانكليزية فان هذا الشهير ولد سنة ١٧٦٩ من اب فلاح ومات ابوه وهو صبي صغير فكان يرسل الى مدرسة قريبه الا انه تعلم شيئاً يسيراً لانه كان طائشاً يفضل اللعب على الدرس . ثم تزوجت امه وتركته فضمة عمه اليه وهو فلاح ايضاً . وكان مغرمًا بمجمع الحجارة المتنوعة فلم يستحسن عمه ذلك بل اشترى له كتباً في مبادئ الهندسة والمساحة لكي يدرس فيها ويصير مساحاً . وما امتاز به وهو بعد حدث دقة النظر وحسن الذاكرة حتى انه لم ينس شيئاً امعن فيه نظره . ثم اخذ يتعلم صناعة الرسم والتلوين ويستعمل المساحة وقياس الاراضي كل ذلك بدون ان يدرس على استاذ فصار معاوناً لمهندس وطني شهير فدعاه عمه ان يجول مراراً كثيرة في مقاطعة اكسفر د وما جاورها ولول شي وجه اليه افكاره انواع تربة تلك الاراضي

وترتيب طبقات صخورها . ودعي مراراً كثيرة لمساحة معادن الفحم
 فزاد فصلاً واختباراً حتى انه لما بلغ السنة الثالثة والعشرين من
 عمره عزم ان يصنع مثلاً يشخص طبقات الارض . وفيما كان يصحح
 بعض الاراضي لخرترعة لاحظ ان الطبقات التي فوق الفحم لم
 تكن افقية بل مائلة الى الشرق وتاكّد ذلك فيما بعد بملاحظته
 الطبقات في واديين متوازيين فرأى انها جميعها تندرج نحو الشرق
 فتغور من طرفها الشرقي ويظهر فوقها تضد آخر ثم مكتة الفرصة
 من ان يتاكّد ذلك اذ عيّن لبعض الاراضي الموافقة لخرترع
 في انكلترا وويلس فجاء فيها وكان يراقب هيئة اراضيها وصخورها
 ويخزن كل ما يراه في ذاكرته فاثبت له المراقبة ان الصخور في
 الانحاء الغربية من انكلترا تميل الى الشرق والجنوب الشرقي وان
 الحجر الرملي الاحمر الذي فوق طبقات الفحم يمر تحت الطبقات
 الطفالية والكلسية وهذه تمر تحت الرمال والحجارة الكلسية الصفراء
 وهذه تمر ايضا تحت الرواسب الطباشيرية الشاغلة لاجزاء الشرقية
 من انكلترا . ولاحظ ايضا ان لكل طبقة من الطفال والرمل
 والكلس نوعاً خاصاً من الاحفوير . وبعد التأمل الطويل في
 هذا الامر استنتج منه نتيجة لم يسبق اليها احد قط وهي ان كل
 مجتمع من الحيوانات البحرية المتجمدة في هذه الطبقات يدل على
 انها كانت في قاع البحر وقتاً ما وان كل طبقة من الطفال والرمل
 والطباشير والحجر تدل على حصة مخصوصة من تاريخ الارض

فانشغف لُبُه بهذا الموضوع حتى لم يعد يفكر ولم يعد يتكلم
 الأيو . فصار اذا حضر حضر الترع او جز الغنم او غير ذلك يفتح
 هنا الموضوع فلقب سمث الطبقات . ومع هذا كله بقي مجهولاً لدى
 رجال العلم . ثم اخذ في اصطناع خارطة لانكلترا حسب ترتيب
 طبقاتها الا انه اضطر الى تاجيلها بداعي اشتغاله في ترعة سمرستشير
 ولكنه لم يفتك عن البحث والتنقيب والمراقبة حتى صار يعرف بنه
 طبقات الارض من ههنا الظاهرة وصار الناس يستشيرونه في
 انزاح مياه الارض واشتهر بذلك شهرة فائقة

وحدث ذات يوم انه اطّلع على مجموع الاحافير الذي جمعه
 النفس صموئيل رنشر دسن في باث فنلب ترتيبه ورتبه ترتيباً آخر
 قائلاً ان هذه الاصداف خرجت من الطبقة الثلاثية وتلك من
 الطبقة الثلاثية فلنذهل النفس المشار اليه كل الانذهال وصدق
 قول سمث وصار من انصاره . الا ان جيولوجي العصر لم يقبلوا
 آراءه بل لم يريدوا ان يعرفوا مساحاً خامل الذكر يقوم ويعلمهم
 الجيولوجيا وكانوا يجهلون ان له عيناً حادة البصر تخترق طبقات
 الارض وتكشف خفياتها كيف لا وقد املى مرة على مستر رنشر دسن
 شرح ثلاث وعشرين طبقة متواليه وما فيها من الاحافير فكتب
 مستر رنشر دسن ذلك وطبعه سنة ١٨٠١

ثم شرع في فحص الاراضي التي تبعد عن باث بمقدار
 ما سمحت له وسائطه فجال مدة سبعين عديده وهو يعرض عما

بضع من سير النهار بسري الليل وكان اذا دعي الى اماكن
 بعيدة لعمل مساحي يعتسف عن الطريق لكي يلاحظ صفات
 الارض الجيولوجية . وبقي سنين عديدة وهو يسافر من مكان الى
 آخر في انكلترا وايرلندا . وكان يقطع اكثر من عشرة آلاف ميل
 سنوياً وفي كل ذلك لم يدع امرأاً معها كان طفيفاً ان يقطي عينيه
 بدون ان يمين فيه نظره ولم يترك فرصة تذهب سدسى . وتظهر شدة
 حنانيه الجيولوجية من القصة الآتية وهي انه كان ماراً ذات يوم
 بقرب تلال طباشيرية فقال لرفاقه اذا رأينا ارضاً مكسورة عند
 سفح هذه التلال وجدنا فيها اسنان كلب البحر فلم يتقدموا مسافة
 طويلة حتى التفتوا ستاً منها من جانب حنرة محفورة حديثاً .
 وقد قال من فهو ان عادة الملاحظة ربحت في عقله وصارت
 ملكة فيه وكانت نهج عند اول فكر بالسفر حتى انه كثيراً ما
 كان يسير مصحوباً بمخارطات وقد كتب عليها موضوع مجئيه في
 سيره والامور التي سيشاهدها فصار ذهنه كقرطاس معد لرسم
 كل شيء براه من اول وهلة

ولكن مع كل انعايه واجتهاده وحنانيه تصدّت له موانع
 كثيرة منعتة عن اشهار خارطة طبقات انكلترا وويلس التي صنعها
 ودام على ذلك حتى سنة ١٨١٤ حينما تمكن من نشر ثمره انعايه
 بمساعدة بعض اصحابه وقد التزم ان يصرف كل ما حصله من
 صناعته وان يبيع ماله من الاملاك لكي يتمكن من طوفان

الاماكن البعيدة . ونحو ذلك الوقت ففتح مقال الحجارة بقرب باث
فحسرها والتزم ان يبيع مجموعته الجيولوجي للبيوزيوم البريطاني
وباع ايضا اثاث بيته ومكتبته ولم يبق الا اوراقه وخرائطه التي لا
تنفع احداً غيره . واحتمل كل هذه المصائب والخسائر بصبر جميل
ولم ينفك عن البحث برغبته المعتادة . وتوفي في شهر آب احد
شهور سنة ١٨٢٩ وهو ذاهب ليحضر الاجتماع البريطاني في
برمنهام

وان التلم يضيق ذرعاً عن ان يقوم بما يستحقه هذا الفاضل
من المدح الجزيل ولا سيما لاجل الخارطة الجيولوجية التي صنعها
فانها وان كانت الاولى من نوعها فهي في غاية ما يكون من الدقة
وهي اساس ما تلاها من خرائط انكلترا وغيرها من البلدان .
ولم تنزل في الجمعية الجيولوجية شاهدة بفضل مخططها مع ما مر
عليها من السنين لاننا اذا قابلناها بالخرائط الحديثة من هذا
النوع وجدنا بينها موافقة عجيبة في كل الامور الجوهرية . وقد
فاننا ان نذكر ان اهل عصره اقرؤاها بالفضل ففي سنة ١٨٢١
اجازته المجمع الجيولوجي بلندن بنيشان ولستن مجازاة لاكتشافاته
الجيولوجية كوحدة طبقات الارض في كل الجهات وتمييزها بما
تتضمنه من الاحافير . ولقد اجاد من قال انه ما من اكتشاف
في هذا العلم يضاهي هذا الاكتشاف الا اذا اكتشف اصل الحياة
وسيفني اسم هذا الفاضل مكرماً مشرفاً ما دام هذا العلم موجوداً

ومن الذين كانت حوة الانتباه فيهم قوية جداً وبلغوا بهما
 شأواً بعضهما مِثل الذي درس العلوم برغبة وصبر لا مثيل لما
 وكتب تاريخ حياته في كتاب هو غاية في الجودة والفائدة ويظهر
 منه ما كان في هذا الانسان من التعويل على نفسه واكرامها وهالك
 جملة وجيزة في سيرة حياته وهي انه لما كان فتى صغيراً مات
 ابوه غرقاً فلم تمكنه الفرص من الدرس على اساتيد كبار الا انه
 طالع في كتب كثيرة فارتشف اليسير من بحر المعرفة من مصادر
 مختلفة وعاشر اقوالاً متنوعة صناعاتاً ونجارين وصيادين وملاحين
 واستفاد منهم جميعاً وكان يجول ويبدد مطرقة كبيرة يكسرها
 الحجارة وياخذ منها كسراً من الميكال والمجيب وما اشبه وكان في
 بعض الاحيان ينضي يوماً كاملاً في الثغبات مناملاً في مناظرها
 الجيولوجية فيجده البعض ويسألونه بنهم اذا كان مفتشاً عن
 معدن فضة . ولما ترعرع وُضع عند بناء ليتعلم صناعة البناء
 التي كان مغرمًا بها فتابتداً يعمل في مقلع بقرب كرمرتي فريث
 فانفتح له باب واسع لتعلم الجيولوجيا في ذلك المقلع وكان يرى
 فيه اموراً كثيرة تدعشه فيها لا يرى احد من العاملين شيئاً فانخذ
 يقابل بين ما يراه من طبقات الارض فيرى ما يبعثها من المطابقتها
 والطباق وما يمتاز به بعضها عن بعض وجرى على هذا النمط فافتح
 بصره وبصيرته وكان رصيناً مجتهداً مواظباً وهذا هو سر نجاحه
 وما زاد عجبته واتباهه البقايا الآلية التي رآها في الحجارة التي

كسرها او في الصخور التي سطحها امواج البحر كالاسماك والاصداف
والاشنجان ودام هذا الموضوع شاغلاً عقله سنين عديدة وفي اخرها
ألف كتابه في الحجر الرملي الاحمر القديم فحاز به شهرة عظيمة بين
رجال العلم وعلو من علماء الجيولوجيين . وكان هذا الكتاب
ثرة اتعاب سنين عديدة صرفها في التنقيش والتنقيب بصبر وجلد
عظيمين ولقد قال في سيرته اني اني انسب نجاحي الى
البحث بالصبر الامر الذي يقدر كل انسان ان يجاريه فيه او ان
يفوقه ولا ريب عندي ان الصبر اذا استعمل حتى الاستعمال
نجمت منه نتائج خارقة المادة لا يقدر على باوعها من كانت له
موهبة خاصة

وكان جون برون الجيولوجي الانكليزي الشهير في اول
حياته بناءً مثل ملر فاقمادته الاحافير الكثيرة التي كانت تقع
تحت نظره الى درسها فدرسها وجمع منها مجموعاً معتبراً من
افضل الجامعات الانكليزية . وهو الذي اكتشف بقايا معتبرة من
بقايا النيل والكركدن واهداها الى المتحف البريطاني ثم عطف
في آخر حياته على درس الاصداف التي في الطباشير واكتشف
عدة اكتشافات معتبرة في ذلك . وتوفي سنة ١٨٥٩ وله من العمر
ثمانون سنة وكان شهياً مفيداً لابناء جنسه ومكرماً من الجميع
من مدة وجيزة اكتشف السرردرك مرتشسن رئيس الجمعية
الجيولوجية جيولوجياً عظيماً في صفة خباز في شمالي اسكتسيا

يسمى روبرت ديك ولما زاره السرردرك في فرنو رسم له روبرت
 ديك هيئة بلاده الجيولوجية بالطمين وإشار الى الخطاء الذي في
 المحارطات الموجودة حينئذ قائلاً انه قد تاكد ذلك بطوفانه في
 البلاد في ايام العطله . وبعد الفحص وجد السرردرك ان ذلك
 الخباز الشهير كان جيولوجياً بارعاً ونباتياً من الطراز الاول
 وهاك ما قاله السرردرك بهذا الصدد انني وجدت ان ذلك
 الخباز يعرف علم النبات احسن ما اعرفه بعشرة اضعاف وعندهُ
 مجموع نباتي حاوي كل انواع النبات الا عشرين او ثلاثين وهو
 مرتب افضل ترتيب وتحت كل نوع اسمه العلمي

اما السرردرك المذكور فعالم شهير بهذه العلوم وما قاربها
 وهاك ما قاله فيه بعضهم في جريدة الكورنرلي ريفو قال ان هذا
 الناضل صرف اوائل حياته جندياً ثم عكف على طلب العلم
 باجتهاد ورغبة لا مثيل لها ونال بذلك شهرة بعيدة واسماً خالداً
 وذلك انه ابتاع ارضاً قفراء وصرف سنين كثيرة بفحص في تركيب
 صخورها ثم رتبها حسب بنائها الطبيعي مشيراً الى ما في كل طبقة
 منها من انواع الاحافير وهو اول من حل قضيتين كبيرتين من
 تاريخ الارض الجيولوجي وها تذكاري لا ينحى لاسمه وعلو ولم يكنف
 بذلك بل جال بلداناً كثيرة وفحصها فحصاً جيولوجياً مدققاً
 واكتشف اموراً كثيرة في هذا الفن ولم يقتصر على الجيولوجيا بل
 عكف على علوم كثيرة حتى صار يعد من اشهر رجال العلم

الفصل السادس

في المصورين والنقاشين



قال ميلنس ان كان ما تراه عظيمًا عن يد بضعل عند ما تصل
اليو فلانال جهنم لان الفضل بالطلب لا بالجلب
وقال جوهر تقدم نحي



لانجاح الآ بالاجتهاد والتعب سواء كان في التصوير والنقش
ام في غيرها ولا يمكن للصدفة ان تصور صورة جميلة ولا ان تنقش
تمنأ لا بد يعا لان كل لمسة من لمسات قلم المصور وكل ضربة من
ضربات ازميل النقاش ناتجة من درس غير منقطع . وكان من
راي السر يشوع ريندس احد آحاد المصورين ان كل انسان
يندر ان يكون مصورًا ماهرًا ولو نسبت المارة في التصوير الى الموهبة
او الذوق او العطية السموية . وقد كتب الى بري يقول كل من

يقصد ان يهر في التصوير او في ابي صناعة كانت يجب ان يوجه كل ذهنه الى تلك الصناعة من ساعة قيامه الى ساعة منامه وقال في مكان آخر ان الذيف يفقدون ان يهروا يجب ان ياخذوا في عملهم نهارة وليلآ ان اخيارآ وان قسراً . الا اننا لانكر ان الاجتهاد والتعب لا بصير ان الانسان مصوراً اذا لم يكن ذا موهبة للتصوير ولو كانا ضروريين لجملة مصوراً ماهراً . لان الموهبة امر طبيعي ولكنها تتقوى بالتهذيب الشخصي الذي هو اقوى من كل تهذيب المدارس

والبعض من اعظم المصورين نبغوا من وسط الفقر والمسكنة ونجحوا رغماً عن الصعوبات الكثيرة المحيطة بهم مثل كلود لورن الحلواني ونيوتون الصباغ وكر فدمجوسا حق الاصباغ وكر فدمجوسو جمال الطين وسلفاتور روزا رقيق اللصوص وكنو الفلاح وزنكارو النوري وكافدونا الشحاذ وكنوفا القطاع فهؤلاء وكثيرون غيرهم برعوا في التصوير بالاجتهاد والتعب تحت اشد المصاعب

والذين اشتهروا في التصوير في البلاد الانكليزية اكثر من غيرهم لم تكن احوالهم افضل من احوال هؤلاء كثيراً فان كنتسبرو وياكون ابنا خياطين وهرى ابن بحري ايرلندي ومكليز كان صانعاً عند بنكي واوي ورمني وانجوجونس نجارين ووست ابن فلاح وثرنكوت كان صانع ساعات وجكسن خياطاً واتي طباعاً ورينلدس وولسن وولكي اولاد قسوس واورنس ابن

عشار وترنر ابن حلاق اما فلكنهن فكان ابوه يبيع تماثيل جسين
 وبرد كان يفتش صواني الشاي ومرتن كان يدهن المركبات
 وريت وكلين كانا يدهنان المراكب وتشتري كان حفاراً ومذهباً
 وداود كوكس وستنفيلد وروبرنس كانوا يصورون صور المراسم .
 فلم يتقدم هؤلاء الرجال كلهم ويهروا في التصوير بالصدفة ولا
 بالنصيب بل بالجهد الجهد والتعب والنصب والسهر والارق
 والبعض منهم اثروا ولكنهم كانوا قلائل جداً بالنسبة الى البقية بل
 لا يمكن ان ينكر الصانع نفسه ويعكف على صناعه اذا كان
 طامعاً بالربح وما من جواه انتظره هؤلاء الصانع والوه الأ اللذة
 التي يجدها كل عامل بعلمه . اما ما كان يتبع ذلك من الغنى
 فامر ثانوي لا يعتد به فضلاً عن كونه نادراً . وقد أثر كثير من
 الصانع اتباع ميلهم في اتقان صناعتهم على مساومة الناس كما ان
 سينيوتو رفض كل اسباب الرفاهية بعد ان بلغها موثراً عليها
 حياة الفقر والمسكنة جاريماً على مجرى اكرنيفون . قبل سئل ميخائيل
 انجلو ذات يوم عن مصور صور صورة وتعب فيها تعباً جزواً لا قصد
 الربح فقال انه سيبقى فقيراً ما دام راغباً في الربح

وكان ميخائيل انجلو هذا يعتقد مثل السريشوع رينلدس ان
 كل ما تصوره الخيلة تقدر اليد على عمله بشرط ان تكون مطبوعة
 للعقل اما هو فكان لا يتعب من العمل ولا يمل وقد نسب قدرته
 على مداومة العمل الى بساطة معيشته فانه لم يكن يأكل في اكثر

النهار الا قليلاً من الخبز والخمر وكثيراً ما كان يقوم في منتصف الليل وياخذ في عمله وهو لابس قبعاً من الورق في رأسه شمعة مضيفة وكان ينام احياناً بالثياب التي يلبسها وقت العمل لكي يقوم الى عمله حالما يرى انه قد ارتاح وكان عنده صورة حظية وهي صورة شيخ في مركبة عليها ساعة رملية وعلى الساعة هاتان الكلمتان Ancora imparo اي لم ازل متعلماً

وتيشيان الشهير كان لا يمل من العمل وقد عمل في صورة بطرس الشهيد ثمانى سنوات وفي صورة العشاء الاخير سبع سنوات وقال في كتاب ارسله الى كارلوس الخامس انني مرسل الى جلالتم صورة العشاء الاخير بعد ان عملت فيها سبع سنوات كاملات . وقليلون يعرفون مقدار الصبر والجلد والمزاولة الطويلة التي يصرفها المصور حتى يتمرن على صناعته وتصبر فيه ملكة اوبالمحري تسهل عليه . قال بعضهم لنقاش "انطلب مني خمسين سكوتاً (سكة اي ليرة) بتمثال عملة في عشرة ايام" فاجابه النقاش "ألا تعلم انني تعلمت ثلاثين سنة حتى امكنتني عمل هذا التمثال في عشرة ايام". وقيل ان السراوغسطس كلكوت صنع اكثر من اربعين رسماً قبلما اكل صورته الشهيرة بصورة روشستر ولا عجب لان التكرار الكثير شرط لازم للنجاح في الصناعات وفي غيرها

ولا بد من التعب والعناء في اتقان الصناعة ولو هما كانت

مواهب الانسان عظيمة وقربحته متوقدة . وكثيرون من الصناع
 كانوا نبهاء من صغر سنهم ولكن الذين لم يجتهدوا منهم لم تفهم
 نباهتهم شيئاً . قيل ان المصور الشهير وست رأى وهو في السابعة
 ابن اخيه نائماً فاخذ قلماً وفرطاساً ورسم صورته بجبر اسود واحمر
 ثم عكف على الرسم والتصوير حتى لم يعد ممكناً صرفه عنها ولكن
 نجاحه وهو صغير اضر به كثيراً لانه لم يصادف صعوبات
 كثيرة لم تعلمه التجارب بل اكتفى بما وصل اليه بغير تعب .
 ورتشرد ولسن كان وهو ولد صغير يسك فحبه ويرسم بها صور
 رجال وحيوانات على جدران بيت ابيه وكان مغرماً برسم
 الاشخاص ولكن حدث مرة وهو في رومية انه اتى بيت زكاري
 وكان زكاري غائباً فاخذ بصور الاراضي الواقعة تجاه كوة الغرفة
 التي كان فيها . ثم اتى زكاري ورأى تلك الصورة فاندش من
 حسن منظرها وقال لولسن هل تعلمت تصوير الاراضي فاجابه
 كلاً فقال له اذن انصحك ان تتعلمه واؤكد لك انك مصيب
 نجاحاً عظيماً فاتصح بهذه النصيحة وتعلم هذا الفن وتعب على اتقائه
 نعباً جزيلاً فصار راس مصوري الانكليزي في تصوير الاراضي
 ولما كان السر يشوع رينلدس صغيراً كان يترك مثاقلة
 ويلتقي بالرسم وقد نهاه ابيه عن ذلك مراراً كثيرة فلم يردد الا
 ولعاً وانشغافاً وبقي على ذلك حتى صار مصوراً شهيراً . وكسبرو
 كان يمضي الى الغابات وهو ولد صغير وي مارس التصوير ولم يبلغ

الهانفة عشرة حتى صار مصوراً ماهراً. قيل انه لم ير منظراً يستحق
 التصوير الا صورته. ووليم ابلت كان ابوه يبيع جوارب وكان
 يسلي نفسه وهو صغير برسم صور على قفا قوائم ابيه وعلى مائدته.
 واصور برد كان يصعد على كرسي وهو ابن اربع سنوات ويرسم
 على الحائط صوراً دعاها جنوداً فرنساوية وانكليزية ولما كبر
 قليلاً وضعه ابوه عند رجل يصنع صواني الشاي فتعلم هذه الصناعة
 ثم ارتقى بدرسه واجتهاده حتى صار من اعضاء المدرسة الملكية.
 وهو غرث لما كان في المدرسة كان مشهوراً بالكسل وكان متاخراً
 في دروسه الا انه كان متقدماً على كل التلامذة في الكتابة وفي
 تجميل ما يفرض عليه المعلم كتابته. ثم وضعه ابوه عند صانع
 حفا تعلم الرسم على الملاعق والنقش عليها ثم تقدم الى النقش على
 النحاس وكان مولعاً بنقش صور الفيلان والتنانين وما اشبه ما
 كان يستعمله اهل الفروسة سمته لهم ومن ثم تقدم الى رسم الصور
 البشرية واطهار ما بها من الامارات فيبلغ في ذلك شأواً بعيداً
 بواسطة اجتهاده وتدقيقه وكان اذا رأى صورة غريبة رسمت في
 ذهنه بكل تفاصيلها حتى يرسمها على القرطاس حينما يريد وقد
 مرّن هذه العادة وقتها بالممارسة الطويلة حتى صارت مالكة فيه.
 واذا رأى صورة بديعة او هيئة نادرة رسمها حالاً على ظفراها
 لكي ينقلها على القرطاس عندما تتمكن الفرصة وكان يجد لذة خاصة
 في كل شيء جديد او غريب حتى لم يفك نظره شيء وكثيراً ما

كان يعرج عن الطريق لكي يرى امورا جديدة فخرن في ذاكرته
 قد راجز بلامن الرسوم والاصناف التي ظهرت اخيرا في مصنوعاته
 ولذلك ترى في تصاويره رسما واضحا لعوائد اهل عصره واخلاقهم
 وافكارهم . ولقد كان من رايه ان لا مدرسة لتعليم التصوير الا
 مدرسة الطبيعة . غير انه لم يكن متضلعا من العلوم والمعارف
 لانه لم يدرس في المدرسة اكثر من القراءة والكتابة ولم يكن ذا
 ثروة ولكنه عاش بحسب دخله وكان يتفخر بذلك حتى بعد ان
 صار من ذوي الشهرة واليسار ولقد قال من حجة كلام له انني لم
 انس الزمان الذي كنت اطوف فيه الاسواق منكسر المخاطر
 صفر اليدين ولكنني كنت اذا حصلت بضع دنانير تفقدت سيني
 وخرجت بين الناس كمن في جيبه الف دينار

فيل ان النقاش بنكس الشهير جعل انموذجه هاتين
 الكلمتين الاجتهاد والمواظبة وجرى بموجبها وحث الغير على
 ذلك . وقد اشتهر امره باللطف والانس وسدادة الراي
 واخلاص النصح حتى كان يقصده كثير من الشبان ليستنصحوه
 ويستعينوا به . روي ان فتى قصده ذات يوم لهذه الغاية ففرع الباب
 شديدا فخرجت اليه الخادمة مغضبة من ذلك وانتهرتة واوشكت
 ان تطرده فسمعا بنكس وخرج بنفسه وقال للفتى ماذا تريد
 يا ابني فقال ارغب با مولاي في ان تدخلني الى مدرسة التصوير
 وكان يده بعض التصاوير التي صورها فقال له بنكس (بعد ان

افهمه ان ادخال التلاميذ غير منوط به (ارني هذه التصاوير
 فاخذها وتروى فيها ثم التفت اليه وقال لا تستعمل في الدخول
 الى المدرسة يا ولدي بل اذهب الآن الى بيتك وواظب على
 دروسك واجتهد لكي تصور صوراً احسن من هذه . وتعال اليّ
 بعد شهر وارني تصويرك . فذهب وعكف على التصوير باجتهد
 شديد ورجع اليه بعد شهر فرأى بنكس ان تصويره صار احسن
 الا انه نصحه لكي يلاوم على الدرس والتصوير فرجع اليه بعد
 اسبوع واذا بتصويره قد تحسن كثيراً فطيب خاطره وقال اذا
 فسخ الله لك في الاجل صرت من المصورين العظام وهكذا كان
 ان سبب شهرة كلود اللوريني اجتهاده العظيم فانه ولد في
 شمانيا من والدين فقيرين ووضع في صباه عند حلواني ليتعلم
 صناعته وكان له اخ اكبر منه حرفته نقش الخشب فنقله الى
 حانوته ليتعلم هذه الحرفة فآظف فيها حنافة شديدة وحدث ان
 مسافراً مر به وطلب من اخيه ان يسمح له باستصحابه معه الى
 ايطاليا فقبل طلبه وارسله معه فوصلا الى رومية ودخل كلود في
 خدمة اغستينونسي مصور الاراضي فتعلم منه هذه الصناعة ثم طاف
 في ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وكانت نفقته مما يصوره في طريقه
 من المناظر الطبيعية . ثم رجع الى رومية فتناظر الناس الى طلب
 تصاويره فحاز شهرة عظيمة امتدت في كل اوربا . وكان يصرف
 قسماً كبيراً من وقته في تصوير الالهية والاراضي والاشجار والاوراق

وما اشبه ويبقى صورها الى حين الحاجة لكي يدخلها في ما عساه
ان يصوره. وكان يراقب الجوايا ما كثيرة من الصباح الى المساء
ويلاحظ تغيراته بر السحاب واخلاف النور. وبمواظبته على ذلك
مهر في صناعته مهارة فائقة فنال الاسم الاول بين مصوري
الاراضي

وترنر الذي لقب كلود الانكليزي لم يكن دون كلود
الفرنساويين جداً واجتهاداً. قيل انه كان من قصد ابيه ان يعلمه
حرفته الحلاقة ولكن حدث انه رسم صورة على صينية من الفضة
فراها واحد من زبناء ابيه واعجبه منظرها فعزم ابوه ان يدعه
يتعلم التصوير حسب ميله وفعل فصادف ترنر صعوبات كثيرة
كعبه من الصناعات ولا سيما لضيق ذات يده الا انه كان يحب
العمل ولا يستعفي منه مها كان دينياً لانه كان يرجح به شيئاً من
المال ويهر في صناعته. وما اشتهر به انه لم يتهامل قط في اتقان
عمل ولو كانت اجرة بخسة بل كان يعمل كل شيء بكل ما يمكنه
من الاتقان حتى انه لم يترك رسماً الا بعد ان يجيده أكثر من سلفه
ومن يا ترى يشك في نجاح شخص هذه حاله. فنجح نجاحاً عظيماً
وخلد اسمه في ما صنعه ولا سيما في التصوير التي وهبها للامة

واظالما كانت بغية المصورين والنفاسين زيارة رومية لانها
مركز ارباب هاتين الصناعتين. والسفر اليها يقتضي نفقة عظيمة
والصناعات غالباً فقراء الا انهم كثيراً ما كانوا ياتونها رغماً عن كل

الموانع كما فعل فرنسوا بزّيه المصور الفرنسي الذي تمكن من
 بلوغها بجميله نفسه قائداً للشحاذ اعى وكما فعل جكي كالمال الذي
 كان ابوه من اكبر مضاديه وممانعيه عن معاطاة التصوير الا ان
 ذلك لم يكن ليثني عزمه لانه هرب الى ايطاليا واذ لم يكن معه
 نفقة السفر اختلط بقوم من النوروجال معهم من مكان الى آخر
 مشتركا بسرّاتهم وضرّاتهم وقد درس في غضون ذلك هيئات
 البشر واطوارهم وظهرت تميعة درسه في الصور التي حضرها بعدئذ
 ولما وصل الى فلورنسا رافت حذافته في عيني رجل من اعيانها
 فوضعه صانعا عند نقاش الا انه لم يقنع بالاقامة هناك بل طلب
 البلاغ الى رومية فسدّد خطواته اليها ولم يلبث ان دخلها حتى
 تعرف بيوريجي وثومسين اللذين تيّبا بانه سيكون مصورا ماهرا لما
 رأيا الرسوم التي رسمها (بالكربون) وصادفته هناك احد اصحاب
 عائلته فالزمه ان يرجع معه الى بلاده واهله ولكنه كان قد ولع
 بالمجولان فترك البيت ثانية وضرب في البلاد فذهب اخوه بطلبه
 وارجعه قسرا ولما رأى ابوه منه ذلك سلم له مكرها بالذهاب الى
 رومية والدرس فيها فمضى اليها واقام فيها مدة طويلة وهو يدرس
 التصوير والنقش على مصورين ماهرين ولما كان راجعا الى فرنسا
 شجعه كرمو الثاني على الاقامة في فلورنسا فاقام فيها سنين عديدة
 مارسا التصوير. ولما توفي كرمو المذكور رجع كالمال الى بيت ابيه في
 نسي فاشتهر فيها شهرة عظيمة واثرى اثراء وافرا بقله وازميله ثم

لما أخذت ننسي في مدة الحروب الأهلية طلب منه رشلوان بنفش
 رسم تلك المحادثة فلم يجبه الى طلبه لانه لم يرد ان يبني ذكراً لما
 اصاب وطنه من البلايا فلم يثن رشلوان عن عزه ولذلك طرحه
 في السجن فوجد في السجن بهضاً من اصحابه النور الذين سافر معهم .
 ولما بلغ امر سجنه الملك لويس الثالث عشر امر باطلاقه ووعده
 بان يعطيه مها اقترحه عليه فلم يقترح سوى ان يُطلق سبيل
 اصحابه الدورويون لم بالاستعطاء في باريس فاعطي طلبه بشرط
 ان ينش تراثهم فنشها وطبعها في كتاب سماه الشهازين . وقد
 عرض هذا الملك على كالأول ثلاثة آلاف ليرا جعلاً سنوياً بشرط
 ان لا يباين باريس فلم يرتض محبة بوطنه بوهيميا فرجع الى ننسي
 وواظب على حرفته الى ان ادركته الوفاة فترك وراءه ما ينيف
 على الف وست مئة صورة منقوشة وهنا يدل على انه كان من
 احذق الفنانين واكثرهم جلدًا وانصباباً هذا فضلاً عما في اعماله
 من الدقة والانتان الغريبيين

وماك سيرة من فاق كل من ذكرناهم في اتقان الخاطروهو
 بنشيتو سيني الصانع والمصور وصانع التماثيل والنقاش والمهندس
 والمؤلف . وكان ابوه جوفاني سيني من اللاعبين على آلات الطرب
 في بلاط لورنزودي مديسي في فلورنسا وكان يأمل ان يعلم ابنة
 لعب الفلوت ولكنه لم يلبث طويلاً حتى فقد مركزه فاضطر ان
 يعلمه حرفة اخرى فوضعه صانعاً عند صانع وكان له رغبة طبيعية

في الرسم والتصوير فإظهار حذاقة شديدة في صناعة الصباغة .
 وحدث ذات مرة انه دخل في خصام حدث في المدينة فنتي من
 وطنه سنة فذهب الى سينا وكان يعمل عند صائغ فيها فازداد
 خبرة في فني الصباغة والجوهرية

وكان لم يزل من عزم ابيه ان يعلمه الغنا فبقي يمارس التغي
 بالفلوت كرهاً لانه لم يكن يلتذ إلا بالنقش ثم رجع الى فلورنسا
 ودرس اعمال ليونردودا فنسي وميخائيل انجلو ومن ثم قصد رومية
 ليتقن صناعة الصباغة فانتهمها ورجع الى فلورنسا بشهرة عظيمة
 ولكنه كان نزقاً سريع الغضب فوقع في ما الجاه الى الهرب من
 فلورنسا بزبي راهب فأتى الى سينا ومنها الى رومية . فصادف في
 رومية حظاً وافراً وادخل في خدمة البابا بصفة صائغ ومغني
 وكان يدرس مصنوعات احذق الصناع ويعمل في ترصيع
 الجواهر ونقش الخواتم وحفر الذهب والفضة والنحاس ففاق كل
 معاصريه ولم يسمع بصائغ مشهور في عمل من اعمال الصباغة الا
 وعزم ان يفوقه فيه فلم يترك فرعاً من صناعاته الا نال فيه قصب
 السبق وكان مع اجتهاده الجزيل سريع التنقل لاننا نراه مرة في
 فلورنسا واخرى في رومية واخرى في متواتم في رومية ثم في نابولي
 ثم في فلورنسا ثم في باريس وكان يسافر من مكان الى آخر على
 ظهر الخيل فلم يمكنه ان ياخذ معه امتعة كثيرة ولا آلات ولذلك
 كان حينما نزل ابتداءً في اصطناع الادوات اللازمة له ولم

تخرج من يده قطعة من المصاغ كبيرة كانت ام صغيرة الأوهي في غاية الاتقان في شكلها وصوغها ونقشها لانه كان يصنع كل شيء بيده وفضلاً عن كل ما ذكر كان سريعاً في اعماله حاذقاً جداً. قيل انه دخل جراح ذات يوم دكان دافلو دل مرور الصائع ليعمل عملية جراحية في يده فالتفت سليبي الذي كان من جملة من حضر الى آلة الجراح واذا بها ضخمة عديمة الاتقان فطلب منه ان يتحمل بضع دقائق ثم هرع الى دكانه واخذ قطعة من الفولاذ الجيد واصطنعها سكيناً جميلة المنظر بديعة الاتقان واعطاها للجراح فعمل العملية بها

من التماثيل العظيمة التي صنعها هذا الرجل تماثال جويينر من الفضة صنعة في باريس للملك فرنسيس الاول وتماثال برسيوس من نحاس صنعة للكران دوق كرمو القلورنسي وصنع تماثيل من مرمر لابلو وهياسثيوس ونرسسيوس ونيتون اما تماثال برسيوس فانه صنعه اولاً من شمع وراه للكران دوق فقال انه لمن المحال ان يسكب تماثال من نحاس مثل هذا فدبت الحمية في راس سليبي وقال لا بد من ان اسكبه هكذا ومضى من ساعته وصنع تماثلاً من خزف وشواه ثم غطاه بالشمع وجعل ظاهر الشمع بهيئة التماثال تماماً ثم غطى الشمع بطبقة اخرى من الخزف وشواه ثانية في حفرة محفورة تحت الآتون الذي ذوب فيه النحاس فذاب الشمع وترك خلافاً بين الخزفين لكي يسكب فيه النحاس

المصهور. ولكنه اوقد حطباً من الصنوبر والصنوبر كثير المواد
القلفونية فاحدمت النار حتى احترق المكان الذي كان العمل
فيه ثم عصفت الرياح وهطلت الامطار فاخذت النار ولم يصر
المعدن فمضى عليه ساعات كثيرة وهو يحاول ابقاءها محنمة
وقامى في ذلك تعباً شديداً فاعيا من شدة التعب حتى خاف ان
يقضي نحبته قبل ان يكمل سبك التمثال فترك العمل الى معاونيه
ومضى الى سريره ولكن لم يمض الأبرهة بسيرة حتى دخل واحد
وقال قد فسد كل عملك فهرع اساعده الى الاتون واذا بالنار
قد خمدت والمعدن تجمد فارسل واستحضر حطب سندان
يابس من عند جاره واخذ يوقد بكثرة فاحدمت النار وصر
المعدن الآن ان الرياح كانت لم تنزل تعصف شديداً والامطار
تمطل غزيراً فاقام سدة من الموائد والنسج وجلس تحتها بزوج
الوقود ثم رعى في الاتون قطعة من اللحم فوق المعدن وحركه
جيداً فذاب كله وحين الوقت اسكبه في القالب واذا بصوت
عظيم اشبه بالرعد القاصف ومبيض برق لاح امام عينيه فالتفت
واذا بسداة الاتون قد انفتحت وانبثقت منه الصهارة ولكنهم لم
تجر بالسرعة المطلوبة فاسرع الى المطبخ واخذ كل آتيتو الثمانية
وكانت تنيف على مئتي اناء وطرحها في الاتون فاستقام جريان
الصهارة وهكذا سبك تمثال برسبوس الشهير. واسراع سائني الى
المطبخ وتعرينه اياه من آتيتو يذكرنا بما فعله بالسبي لما احرق اثاث

بيته كما تقدم في الفصل الثالث X

وممن لم المنام الأول بين المصورين نيقولا س بوسن الشهير
 ذو العقل الثاقب والمناقب الحميدة . وهما ك طرفاً من سيرته .
 ولد في اندلس بقرب روان . وكان أبوه يعلم في مدرسة صغيرة
 فتعلم فيها الآلة كان يتغاضى عن دروسه ويصرف أكثر وقته
 في التصوير على حواشي كتبه فحدث ان مصوراً رأى رسومه فاعجبته
 كثيراً وطلب من والديه ان لا ينهياه عن التصوير ثم اخذ بوسن
 يتعلم على هذا المصور فنجح نجاحاً عظيماً حتى انه فاق معلمه وكان
 قد زاد هيأته في هذه الصناعة فترك معلمه هذا وضى الى باريس
 وهو اذ ذاك ابن ثمانى عشرة سنة وكان يحصل ما يقوم باوده من
 تصوير (سات الحوائت) . فصادف في باريس ميلاناً واسعاً
 للصناعات ووجد فيها ما اذهله فدخل مجامع التصوير وتلى
 صوراً عديدة ولم يلبث طويلاً حتى عزم على زيارة رومية ام الملائن
 ومرضعة المصورين فمرك ركابته نحوها ولكنه عجز عن البلوغ اليها
 وابتعد مكان وصل اليه فاورنما فاقام فيها برة يسيرة ثم قفل
 راجعاً الى باريس وبعد قليل سدد خطواته مرة اخرى نحو رومية
 ولكن لم يمكنه ان يتخطى لوان الا انه لم يدع باباً يستناد منه الا قرعه
 ولم يترك ينبوعاً يستقى منه الا ورده . ومضى عليه اثنا عشرة سنة
 ونيف يتعمب في اتقان هذه الصناعة وهو بين تصوير وتصعيد الى
 ان ساعدته التفادير فأتى رومية العظمى واجال طرفه مياً في

اعمال ارباب الصناعات وخصوصاً في التماثيل القديمة العهد
 واقام عند دوكانوا النفاش الشهير وساعده في تمثيل اشهر اصنام
 رومية القديمة وقد ارتأى بعضهم ان هذا العمل اثر تأثيراً عظيماً
 في ذوقه . ودرس في غضون ذلك التشریح ومارس تصوير
 الاشخاص وطالع مؤلفات كثيرة في صناعة التصوير استعارها من
 اصحابه . وكان كل هذه المدة في غاية الفقر الا انه لم يضجر من ذلك
 لانه كان يتقدم في اثقان صناعته . وكان يبيع صورته باي ثمن
 كان فباع صورة نبي بثماني ليرات وباع صورة الوباء الذي
 اصاب الفلستينيين بستين ريالاً وقد بيعت هذه الصورة ثانية
 للكردينال ده رشلو بالف ريال . ثم اعتراه مرض شديد فوق
 ما ألم به من المتاعب فانتهك جسمه لكن رزقه الله من اعنتى به
 وهو الكافير دل بسو فلما نفع صورته صورة الراحة في البرية
 مجازة له على اعنائه به فوفاه وافرقي . وبقي مع كل ما بلغه من النجاح
 غير مكثف فانطلق الى فلورنسا وفينيسيا ووسع دائرة معارفه
 فظهرت اثار انمايه في صور كبيرة اخذ في تصويرها نحو ذلك
 الوقت منها صورة موت جرمانيكوس وصورة المن وغيرها من
 الصور الشهيرة . فاشتهر صيته ولكن بطيئاً لانه كان مائلاً الى
 الانفراد ومجانبة الناس حتى وصفه بعضهم بالتأمل اكثر مما وصفوه
 بالتصوير فانه صرف اوقات العطلة جائلاً في البراري متأملاً
 في كفيات جديدة للتصوير . وكان يحب المعيشة في رومية

ويفضلها على ما سواها لان ليس فيها تغيرات كثيرة تزعم البال
 فهد على نفسه انه اذا حصل فيها ما يقوم باوده لا ينتقل الى غيرها
 وكان في هذا الوقت قد امتد صيته الى خارج رومية ووردت
 اليه دعوات عديدة ليرجع الى باريس وعرض عليه ان يكون
 رأس مصوري الملك فتردد في اول الامر في قبول هذه الدعوة
 قائلاً انه عاش خمس عشرة سنة في رومية وتزوج فيها ولم بعد
 بتظر الا دنوا الاجل ولكن كثرا الالحاح عليه حتى انه ترك رومية
 وعاد الى باريس فصادف فيها الهجم الغفير من الحاسدين .
 وصور مدة اقامته في باريس صوراً عديدة مثل صورة القديس
 زفير وصورة المعمودية وصورة العشاء الاخير وكان يصور كل ما
 يطلب منه مثل صور الكتب الملكية ورسوم البلاط والقاعات
 وغير ذلك فتشكى الى دوشنتالوب قائلاً " انني لا استطيع القيام
 بكل هذه الاعمال لان ليس لي الا بلبان ورأس ضعيف ولا احد
 يساعدي ويخفف اتعابي

قلنا ان نجاحه في باريس اهاج عليه كثيراً من الحاسدين
 فلم تطب له الإقامة فيها ولذلك تركها حالما سمحت له الفرصة
 ورجع الى رومية وسكن في بيته القديم على تل بنسيو وواظب على
 صناعته باجتهاد وكان يعيش بالبساطة ويصرف القسم الكبير
 من وقته في المطالعة وقد قال من جملة كلامه انه انما انقدم في
 السن تزيد رغبتني في احراز الدرجة العليا بين المصورين . فدام

على اجتهاده الى ان حضرته الوفاة سنة ١٧٦٥ ولم يخلف اولاداً
وكانت زوجته قد توفيت قبلة فأرسلت تركته الى اقربائه في
اندلس وكانت تبلغ عشرة آلاف ريال

ومن المتأخرين الذين نستحق سيرهم ان تدون في بطون
التاريخ ادي شفر الذي خصص حياته لخدمة التصوير. فهذا ولد
في درترخت من والد جرمانى حرفته التصوير فاظهر في حلته
ميلاً لهذه الصناعة الا ان اباه مات وهو حدث فعزمت امه ان
تنقل به الى باريس لكي تتمكن من الدرس فيها مع انها لم تكن من
ذوي اليسار فوضعت عند كارن المصور ولكن لم يمكنها ان **تدفع**
له بخصيص كل وقتها لتعلم التصوير بسبب ضيق ذات يدها مع
انها كانت قد باعت كل مصاغها وانكرت على نفسها كل تعلم
لكي يمكنها ان تقوم بتعليم اولادها. فلا بد لهذا الشاب من ان
يسعى في مساعدة امه وقد فعل لانه لما بلغ الثامنة عشرة شرع
يصور صوراً صغيرة ويبيعها باثمان معتدلة فراجت رواجاً
عظيماً. ومارس ايضاً تصوير الاشخاص فربح مالا وتقدم في انقان
صناعته. واول صورة اشهرها واشهر بها هي صورة الممودية وما
زال يتقدم في صناعته الى ان بلغ صيته الدرجة العليا وذلك عند
اشهاره صورة الفوست وصورة فرنسيسكا ده بيني وصورة يسوع
المبزي وصورة النساء القديسات وصورة القديس اوغستينوس
وغبرها

قال مستر كروت ان مقدار التعب والتأمل الذي تكبدهُ
شفر في عمل صورة فرنسيسكا يفوق الوصف وذلك لان معرفته
في اصول العلوم كانت قاصرة جداً حتى انه اضطر ان يتسلى في
عراقبيها الشاهقة وليس له دليل سوى فكره الثاقب وكان عليه
ان يجرب اموراً كثيرة في تركيب الالوان قبلما يصل الى المطالب
وكثيراً ما كان يصور شيئاً ثم يمحوه ويصوره ثانياً وثالثاً الى ان
يوافق ذوقه كأن الطبيعة قد وهبته قوة الصبر والمزاولة تعويضاً
عن نقص معارفه

ومن الصنائع الذين كان شفر يعجب بهم فللكسمن . قال
مرة لاحد اصحابه اذا كنت قد اقتبست شيئاً في فرنسيسكا وان
يكن عن غير قصد فمن صور فللكسمن . اما فللكسمن هذا فهو
ابن رجل فقير حرفته بيع صور الجبسين وكان في صغره نحيف
الجسم حتى انه كان يوضع في دكان ابيه وبُسند بالمساند وكان
اذ ذاك يتسلى بالقراءة والرسم . وحدث ذات يوم ان زار دكان
ابيه الفاضل النفس متيوس فرأى هذا الولد عاكفاً على قراءة
كتاب فتطلع واذا الكتاب نسخة من كرنيلبوس نبوس اشتراها
له ابوه من بعض المكتاتب فتحدث معه قليلاً ثم قال له ان هذا
الكتاب لاتناسبك قراءة ولكني سأتيك بكتاب افضل منه فاتاهُ
في اليوم الثاني ويده نسخة من هومر ونسخة من دون كوزوت فقرأها
بلذة وللحال شغنت له حماسه هومر وكان في دكان ابيه كثير من

التماثيل التي تشخص اجكسس واخيليس فعزم ان بصور صور
الابطال الذين قرأ سيرهم . فكانت هذه الصور خالية من كل
انقان مثل صور غيره من الاحداث المبتدئين . وفي احد الايام
اخذ ابوه هذه الصور واراها لروبلياك النقاش فتأفف من رؤيتها
ولكن ما كان ذلك ليوهن عزم فلكنهن بل زاده رغبة وما لبث
ان صار يصنع تماثيل من جبسين وشمع وبعض هذه التماثيل باقى
تذكارة لأول اثمار قريته

ثم ان مستر ميبوس المتقدم ذكره دعاه الى بيته فقرأ على
امراته هو ميبوس وملتون ودرساه كلاهما اليونانية واللاتينية وكان
تصويره قد تحسن في هذا الوقت حتى ان احدى السيدات طلبت
منه ان يصورها ست صور تشخص امور مذكورة في هو ميبوس
فصنعها واجاد فدفعت له اجرة حسنة واثنت عليه ثناء جميلاً
وكانت هذه الاجرة باكرة ما كسبه من التصوير

ولما بلغ الخامسة عشرة تلمذ في المدرسة الملكية وفي وقت
قصير اشهر امره بين الطلبة مع انه كان يجب العزلة فانتظروا
منه اموراً كثيرة ولم يجب انتظارهم لانه نال الجائزة الفضية وهو في
الخامسة عشرة وكان في السنة التالية بين المستحقين الجائزة الذهبية
وظن الجميع انه سينالها ولكن نالها تلميذ آخر لم يعرف عنه شيء
بعد ذلك وقد استفاد فلكنهن كثيراً من خيبته هذه لان النشل
لايوهن عزم اولي الهمة بل يزيد هم حزماً واقدماً فاسمع ما قاله

لايه حينئذ قال "اعطني وقتاً فاصنع اعمالاً تفخر بها المدرسة".
ثم اخذ يرسم ويصور باجتهاد لا يفوقه اجتهاد ولكن كان بيت ابيه
حينئذ في ضنك عظيم لان تجارة التماثيل الجبسية لم يكن منها
ربح كافٍ فطرح هوميروس جانباً واخذ يسعف اباه في عمله
فتدرب الى احتمال المشقات واستبهاها بالصبر الجميل

وحدث ان شهرته في الرسم طرقت اذني يوشيا ودجود
المخزاف المار ذكره في الفصل الثالث فاستدعاه لكي يصنع له
رسوماً للمخزف الصيني الذي كان يصنعه . وربما ظهر ان هذا العمل
لا يلبق بمصور ماهر كفلكسمن وليس الامر كذلك لان الآنية التي
يقع نظر الناس عليها دائماً تفيدهم رؤيتها مادياً وادبياً اكثر من
الصور الثمينة التي تباع بالوف من الليرات لتعلق في بيت رجل
غني حيث لا يراها الا القليل . وكانت رسوم الآنية المخزفية قبل
ايام ودجود او بالحري قبل ان استخدم فلكسمن شنيعة الى الغاية
فابدها فلكسمن برسوم جديدة لشخص اشخاصاً وحوادث مذكورة
في كتب الاقدمين . واقتبس امثلة من الكوروس الاثرسكانية
ونقشها نقوشاً جميلة . ثم نشر ستورت كتابه في اثينا وفيه رسوم
الآنية اليونانية فاقتبس فلكسمن اجملها منظراً ونقش في رسمها
ونقشها فوضع له انه عاملٌ عملاً اذا طائل لا يقل عن تهذيب
الجمهور كله . وكان يفخر عند ما تقدم في السن انه هذب ذوقه
بهذا العمل وبث محبة التصوير والرسم في اذهان العامة وكسب

مالاً غير قليل واغنى مستخدمة ودجود

وسنة ١٧٨٦ ترك بيت ابيه واستأجر بيتاً صغيراً في سوق
وردر ثم تزوج بفتاة تدعى حنة دَنَمَن وكانت تحب الشعر
والتصوير وتعجب بهارة زوجها . ويقال ان السر يشوع رينلدس
المصور الشهير الذي بفلكسمن بعد زواجه ببرهة بسيرة وقال له
بلغني انك تزوجت فاذا كان الامر كذلك فلم تُعد مصوراً . فغضى
فلكسمن الى البيت وجلس بجانب امرائه وقال لها الاترين يا حنة
اني عدت صناعتي فقالت مَنْ اعدكمها قال انتِ قالت
وكيف ذلك اصدقني الخبر فنصّ عليها ما قاله له السر يشوع
رينلدس الذي كان من رأيه دائماً ان مَنْ يقصد اتقان التصوير
يجب ان يصب كل قوى عقله عليه من الصباح حتى المساء وانّه
لا يمكن لاحد ان يكون مصوراً ماهراً ما لم يذهب الى رومية
وفلورنسا ويشاهد اعمال رافائيل وميخائيل وغيرها ثم التفت اليها
وقال وانا مرادي ان اكون مصوراً ماهراً فقالت وستكون وتزور
رومية ان كان ذلك لا بد منه للمهارة في التصوير . قال ثم قالت
بالاجتهاد والاقتصاد لاني لا اريد ان يقال ان حنة دَنَمَن اعدت
يوحنا فلكسمن صناعته فقال اذا سامضي الى رومية وتكونين
برفقي وسوف اري الرئيس (يريد به رينلدس) ان الزواج
ياول لخير الرجل لالضرة
فبينا خمس سنوات في بيتها الصغير واضعين زيارة رومية

نصب اعينها ولم يصرفا فلساً واحداً بغير لزوم بل كانا يذخران
 كل ما يمكنها ذخيره ليصرفاه في ذلك السفر الطويل ولم يكاشفا
 احداً بما اضراه ولم يطلبوا مساعدة المدرسة بل اعتمدا على عمل
 ايديهما وميل قلبيهما . ولم يكن فلكسمن قادراً على اتباع المرمر
 ونقش التماثيل المتكررة ولكنه صنع عدة تماثيل ما يوضع فوق المحود
 حسب طلب اهلها فكسب بها ما يكفي لنفقة بيته وذخر اجرته
 التي كان ياخذها من ودجود . وكان اعتباره يزداد بين اهل
 وطنه يوماً فيوماً حتى انهم فوضوا اليه رسم الكنيسة
 ولما صار عدده ما يكفي للسفر قام هو وامرأته وتوجهتا الى
 رومية ولما وصلها اخذ ينقل صوراً عن التماثيل القديمة وبيعهما
 للزوار وفي ذلك الوقت رسم هوميروس واسكيبوس ودتي وباع
 كل رسم بمخمسة عشر شلناً ثم صنع رسماً لكوبد (اله المحبة) وآخر
 لاورورا (الهة الفجر) وباعها لتوماس هوب وصنع صورة فوري
 (الهة النعمة) لارل برستول ثم اخذ يتأهب للرجوع الى انكلترا
 لانه كان قد نال بفضله . وقبلما ترك ايطاليا اتفقته جمعيتا فلورنسا
 وكارارا عضواً منها . ولما وصل الى لندن وجد ان شهرته قد
 سبقت اليها وان اعمالاً كثيرة مهيأة له . منها التماثيل العظيم الشهير
 الذي صنعه لينصب فوق لحد اللورد منسفيلد في وستمنستر ولم
 يزل هذا التمثال تذكاراً لحفاظة فلكسمن . قال بنكس النقاش
 وهو في معظم شهرته عند ما رأى هذا التمثال "قد قصرنا كلنا

عن هذا القصير" (يريد يو فلكسمن)

ولما سمع اعضاء المدرسة الملكية برجوعه ورأوا ما اذلهم من
المخافة التي اظهرها في تمثال منسفيد طلبوا اليه بلجاجة ان يدخل
بينهم عضواً ولم يمضِ عليه الا وقت قصير حتى انتخب استاذاً للنقش
في المدرسة الملكية ولم يكن البتة لهذا المنصب كيف لا وقد
حصل كل ما حصله بالسعي والاجتهاد مغلباً على كل ما حال
دونه من الصعوبات

٢ وعاش فلكسمن زماناً طويلاً في الراحة والتوفيق ولم يكدر
صفاء عيشه الا موت امرأته ولكنه عاش بعدها سنين عديدة صنع
فيها صورتين تعلان من اشهر ما صنعه وهما صورة ترس اخيلس
وصورة ميخائيل رئيس الملائكة قاهراً الشيطان

وهاك ترجمة نقاش آخر وهو تشنري الشهير الذي كان
يفتخر بانه تغلب على الصعوبات الكثيرة المحدقة يو باجتهاده .
وهو ابن رجل فقير من نرُن بقرب شفيلد ومات ابوه وهو صغير
فتزوجت امه وكان عمه حينئذ ان يجمل حماراً وطبي لبن ويسوقه
الى شفيلد فيبيعها فيها ولكن زوج امه تدمر من وجوده في يته
فوضعه صانعاً عند سمان . فمر تشنري يوماً امام دكان نقاش
خشب ورأى فيه من الادوات المذهبة ما اذهله فاحب ان يتعلم
هذه الصناعة واخذ يتوسل الى اصدقائه لكي يضعوه عند النقاش
فاستحسنوا ذلك ووضعوه عنده صانعاً ليتعلم النقش والذهيب

بشرط ان يبقى عندهُ سبع سنوات. وكان معلمه يصنع ايضاً تماثيل
 جبسين فتعلم منه هذه الصناعة وكان يمضي كل ساعات العطلة
 في الرسم والتصوير والدرس حتى انه كان يجي قسماً كبيراً من
 الليل في مثل ذلك ولما بلغ الحادية والعشرين وكان لم يتو
 الاجل المعين لبقاته عند معلمه دفع له كل ما كان يملكه حينئذ
 وهو خمسون ليرة لكي يفسخ العقد الذي بينها ففسخه وانطلق الى
 لندن واخذ يعمل عند نقاش فيها وكان يمضي اوقات الراحة
 بالدرس والتصوير والتمثيل . ومن جملة الاعمال التي عملها وحده
 نقش غرفة المائدة لمستر رُجرس الشاعر . وكثيراً ما كان يدعى
 بعد ان اشتهر امره لياكل في تلك الفرقة فكان يرى المدعويين
 معه عمله الذي عمله في اوائل حياته

ثم دعاه عمله ان يذهب الى شفيلد فذهب اليها واعلن في
 الجرائد المحلية انه يصور الاشخاص بالكربون وبالزيت واول
 صورة صورها بالكربون اخذ ثمنها ليرة انكليزية واول صورة
 بالزيت اخذ ثمنها خمس ليرات وحذاء . ثم رجع الى لندن ليدرس
 في المدرسة الملكية ولم يلبث طويلاً حتى عاد الى شفيلد واعلن في
 الجرائد انه يصنع تماثيل الناس بالجبسين ويصورهم تصويراً فطلب
 منه ان يعمل تمثالاً لنفسه متوفياً فعلمه عملاً متقناً . ولما كان في
 لندن صنع تمثال رأس الشيطان ليعرض في معرض التصوير
 وهو اول مبتكراته وكان في غاية المهابة والغرابة . قيل انه دخل

عليه في اواخر حياته صاحب له والفتت الى هذا الراس الذي كان مطروحاً حينئذ في احدى الزوايا فاندش من منظره فالفتت اليه تشنري وقال له ان هذا الراس اول مصنوعاتي في لندن وقد صنعته في تكية (ما بين السقف والقرميد) وعلى رأسي فلسوة من الورق واذ لم يمكني حينئذ ان اشترى اكثر من شمعة واحدة كنت اركزها في فلسوتي لكي تدور معي كيفما درت . ولما عرض هذا الراس في معرض المدرسة الملكية رآه فلکمن المار ذكره فاعجبه حسن صنعه . وكان قوم يطلبون نقاشاً ليعمل اربع تماثيل لاربعة قواد فاشار عليهم فلکمن ان يستعملوا تشنري فاستخدموه فعمل التماثيل واجاد وحينئذ دعي لعمل تماثيل اخرى وكثر عليه الطلب فترك صنعة التصوير واخذ في النقش مع انه كان قد عمل في النقش قبل ذلك ثماني سنوات ولم يربح منه اكثر من خمس ليرات . ومن اشهر ما نقشه راس هورن توك وكان هذا التمثال سبباً لتشغيله باثني عشر الف ليرا . فعُد بين مهرة النقاشين واخير من بين ستين نقاشاً لعمل تمثال الملك جورج الثالث . وبعد ذلك بقليل عمل تمثال الاولاد النائمين الذي لم يزل في كنيسة لشفيلد الكبرى ومن ثم اخذ صنعة يتد في الاخاق وشهرته تزيد يوماً فيوماً ولقد حصل كل ما حصله بالصبر والاجتهاد والمواظبة نعم انه كان ذا موهبة فائقة ولكنه اجتهد على استعمالها حتى الاستعمال وكان كهيرة من اهل زمانه

رصبنا فطناً وقد ادخل البساطة التامة في جميع مصنوعاتنا فان
تمثال وط الذي صنعه بالغ الدرجة الفصوى من الاتقان وهو في
غاية ما يكون من البساطة. وكان كرمياً على ابناء صناعتنا وهوب
النسم الاكبر من تركتو للمدرسة الملكية لترقية صناعتي التصوير
والنقش

وهاك مثالا آخر للاجتهاد والمواظبة في حياة داود ولكي
المصور وهو ابن قسيس اسكتلندي وقد اظهر من حداثته علامات
تدل على ميله للتصوير فكان يمضي اكثر اوقاته في الرسم مستغتماً
كل فرصة لذلك فكنت ترى جدران البيوت ورمال الانهار
مغطاة برسومه . وكان يستعمل كل قلم صادفة وان قطعة من
الغصن ويصور على كل سطح وجده ولو صخرًا امس وقلما زار بيتنا الا
رسم شيئاً على جداره علامة لحيته اليه ولو ضد خاطر صاحبة البيت
وكان ابوه يكره هذه الصناعة محرماً اباها ولكن ما كان ولكي
ليرتدع برده اعطى له بل اعطى نفسه هواها وركب مسلكاً مفعماً من
المصاعب . فعرض نفسه عضواً على مدرسة ايدنبرج فرفض لان
تصاويره كانت بعيدة عن الاتقان فاخذ يجتهد في اتقان التصوير
الى ان قيل فيها . وكان نجاهه بطيئاً جداً الا انه عقد قلبه على
النجاح فنجح ولم يفتد بغيره من الشبان الذين لا يبالون كثيراً
بالاجتهاد لزعيمهم ان لم موهبة فائقة بل كان ينسب كل نجاهه
الى اجتهاده الدائم ثم عزم على الهجر الى لندن لان فيها باباً واسعاً

للعلم والعمل فانها وصور فيها صورته المسماة بقلدج بوليتشبينس
 (رجال السياسة القرويون) فراقت هذه الصورة في عيون
 الجمهور وفتحت له باباً واسعاً للعمل وكثر عليه الطلب ولكنه بقي
 فقيراً وذلك لانه كان يصرف وقتاً طويلاً في عمل كل صورة حتى
 مها كان ثمنها كثيراً يكون قليلاً بالنسبة الى الوقت الذي اضاعه
 فيها ووضع لنفسه نموذجاً مثل نموذج رينلدس وكان يكره
 المصورين الثرثارين ويقول ان المتكلم يزرع والساكت يجصد .
 وكان يوبخ الذين يلهونه بالحديث بقوله لم هلم نعمل عمالاً ما .
 وقال مرة لاهل اصحابه اني لما كنت ادرس في المدرسة الاسكتسية
 كان من عادة المعلم كراهم ان يقول لنا بكلام رينلدس اذا كان
 لكم موهبة فالاجتهاد بقويها وان لم يكن لكم موهبة فالاجتهاد يقوم
 مقامها ولذلك عزمتم ان اكون مجتهداً الى الغاية القصوى لانني
 اعلم ان ليس لي موهبة وكان كريماً جواداً فانه باع صورة القلدج
 بوليتشبينس الى لورد منسفيلد بثلاثين ليرا واشترى بها اربعة
 وارسلها هدية لاهل واخوه مع انه كان فقيراً ومحتاجاً اليها . وفي
 سيرة ريمباخ النقاش شذرات كثيرة تدل على كرم ولكي هذا
 وهاك مثالاً آخر للاجتهاد العظيم والمواظبة المستمرة في
 حياة وليم آتي وهو ابن صانع كعك وامه ابنة صانع حبال . وقد
 وضع في صغره عند طباع ليتعلم صناعة الطباعة ولكنه كان
 يستغنى كل فرصة ويمارس الرسم فكان يملأ المحيطان برسومه ولو

بفحمة ولما انتهت مدة بقائه عند الطباع عزم ان يتبع ميله الطبيعي
 فساعده عمه واخوه حتى نزل في المدرسة الكلية ولم يكن ذكياً
 الا انه كان مجتهداً فارنتى باجتهاده الى اسي الدرجات
 ان اكثر الصنائع قاسوا ضيقات عظيمة واحتملوا ضنك
 المعيشة الشديد قبل ان ينجم النجاح المطلوب وربما ان كثيرين
 منهم برحت بهم المصائب ولم تنفرج حتى اوردتهم حنهم فان
 مرتن المصور اصابته ضيقات شديدة قل من اصابه نظيرها لانه
 مراراً كثيرة اوشك ان يموت جوعاً وهو بصور الصورة الاولى
 الكبيرة روى بعضهم انه مرة لم يكن في كيسه الا شلن واحد وكان
 قد عني بحفظه لانه وجده لامعاً اكثر من غيره اما حينئذ فصار
 مضطراً ان يتناع به خبزاً يسد رمقه فمضى الى الخباز واشترى به
 خبزاً وهم بالخروج فنظر الخباز واذا بالشلن زائف فردّه عليه
 واخذ منه الخبز فرجع الى منزله منصدع الفواد واخذ يفتش في
 مزوده عساه ان يجد شيئاً من فئات الخبز يسد به رمقه . وقد
 احتمل هذا الضنك الشديد بالصبر الجميل وجد في عمل الصورة
 حتى اكملها فعرضها واشتهر امره بها وصار يعد بين المصورين
 العظام . وحياة هذا الرجل تبين كما تبين حياة باقي حياة المصورين
 ان الموهبة المعززة والاجتهاد تكفي للنجاح مما كانت الاحوال
 متعسرة وان الشهرة وان تاخرت لا بد من ان ينالها من يستحقها
 وافضل الوسائط التي تستعملها المدارس لا يمكنها ان تجعل

الانسان مصوراً ماهراً ما لم يجتهد هو على ذلك وهذا الامر
 يصدق على كل نوع من العلوم والصناعات . بروى ان بوجن
 النجار قال بعد ان تعلم من ايده كل ما كان يعرفه من صناعة
 التجارة انه لا يعرف الا شيئاً بسيطاً وانه يجب عليه ان يتقدم من
 المبادئ الاولى فاخذ يعمل كتجار بسيط في بعض المعامل وتقدم
 رويداً رويداً الى ان صار يصنع الاشياء الدقيقة ثم لما انتهى المكان
 الذي كان يعمل فيه اخذ يتاجر في سفينة شرعية بين انكلترا
 وفرنسا وكان كلما سمعت له الفرصة يرسم ما يقع عليه نظره من
 الابنية القديمة كالاديرة والصوامع والكنائس وكان يضرب في
 البلاد طويلاً لهذا المقصد وما زال على مثل ذلك حتى بلغ درجة
 عليا بين ارباب هذه الصناعة

ومن قبيل ذلك فجاج جورج كنب راسم مدفن سكوت
 الشهير فانه ابن راعٍ مسكين مقامة بين تلال بتلند وهناك تربى
 غير متمتع بروية شيء من الصناعات . الا انه لما بلغ السنة العاشرة
 ارسله صاحب الغنم التي كان يرعاها ابوه الى رزلين فرأى قلعتهما
 وكنيستهما الشهيرتين فاندش من حسن منظرهما وبقيت
 صورتها في فكره زماناً طويلاً . ثم طلب من ايده ان يضعه صانعاً
 عند نجار لكي تكون له فرصة للتمتع بصناعة البناء التي مال اليها
 كل الميل فوضعه ولما انتهت ايام تعلمه مضى الى غلاشيلس
 يطلب عملاً واذ كان مارافي وادي نهر تويد وادواته في صندوق

على ظهره مرت به مركبة بقرب برج ألبنك فسأله السائق اين
نقصد فاخبره انه ذاهب الى غلاشلس فاشار عليه ان يصعد الى
المركبة فصعد واذا بالسر ولترسكوت راكب فيها وكان هو
الذي امر السائق ان يصعد الى المركبة . ولما كان يعمل في
غلاشلس ناسهته فرص كثيرة لزيارة اديرة ملروز ودربرغ
وجدبرغ والاطلاع على ما فيها من صناعة البناء . ثم طاف
اكثر شمالي انكلترا ولم يترك بناء غوطياً الا زلوه واخذ رسمه بعد
ان نظر فيه نظراً مدققاً . ولما كان في لنكاشير ذهب الى يورك
ماشياً وذلك مسافة خمسين ميلاً وبقي اسبوعاً كاملاً وهو يبحث
في بناء كنيسنها الكبيرة ثم رجع ماشياً . وبعد ذلك انتقل الى
كلاسكو واقام فيها اربع سنوات وكان يذهب الى الكنيسة
الكبرى كلما مكنته الفرصة ويتامل في بنائها . ثم انتقل الى الجنوب
ودرس كندريري وونشستر وتنترن وغيرها من الابنية الشهيرة .
وسنة ١٨٢٤ عزم على الطوفان في اوربا لهذه الغاية وكان يعول
نفسه على الطريق من عمل يديه فوصل الى بولون ومنها الى
باريس فصرف فيها بضعة اسابيع وكان يرسم كل ما ظنه يستحق
الرسم وبما انه كلن حاذقاً في عمل الآلات والمطاحن وجد عملاً
يعمل به حيثما توجه الا انه كان يفضل الاقامة بقرب بناية غوطية
قديمة لكي ينظر في بنائها كلما سمحت له الفرصة فبقي سنة من
الزمان في هذه السياحة ثم انقلب راجعاً الى اسكوتلاندا وواظب

على دروسه حتى صار ماهراً في الرسم وكانت ملروز احب الخرائب
 اليه وقد رسم لها عدة رسوم وواحد منها يبين هيبتها قبل ان
 خربت . ثم اخذ يرسم رسوماً لواحد كان شارحاً في طبع كتاب
 ذي صور على مبداء كتاب برتون في اثار الكنائس وكان هذا
 العمل يلذ له جداً وقد عمل فيه برغبة شديدة واضطر ان يجول
 نصف اراضي اسكتلندا لاجل ان المؤلف مات فجأة ووقف
 عمل الكتاب فطلب كعب بابا آخر للرزق . ولم يشتهر امره كثيراً
 مع ما وصل اليه من المحذقة واتساع العلم وطول الباع لانه
 كان يميل الى السكوت وعدم التظاهر ولو بما هو في الواقع .
 ولما عينت لجنة مدفن سكت جائزة لمن يرسم الرسم الافضل
 لذلك المدفن اخير رسمه من بين رسوم كثيرة اكثرها مصنوعة
 من امهر صناع العصر وكان حينئذ يعمل في دير كلونين فارسل
 اليه كتاب بعلمه باختيار رسمه ولكنه لم يعيش بعد ذلك الا وقتاً
 قصيراً ولم ير شيئاً من ثمار انعابه العظيمة واسمحه في حجارة ذلك
 المدفن الذي هو اعظم مدفن اقيم لرجل من رجال الانشاء
 ولنا مثل آخر لهجة الصناعة في حياة جون حبسن . كان ابن
 هذا الرجل بستانياً فرأى ميلاً الى التصوير والنقش من الخشب
 الذي كان ينقشه بواسطة سكين صغيرة فارسله الى لثريول
 ووضعه صانعاً عند نقاش خشب فائق هذه الصناعة في وقت
 وجيز وادهم الجميع بحال منقوشاته ثم انتقل من نقش الخشب

الى نحت التماثيل في الحجارة ولما كان ابن ثمانى عشرة سنة صنع تماثلاً للوقت بديع المنظر فاخذهُ اولاد فرنسيس النحاتون بعد ان فكوه من معمله الاول ووضعوه عندهم صانعاً فعل عندهم ست سنوات اظهر فيها الغرائب ثم انتقل الى لندن ومن ثم الى رومية وحينئذ انتشر صيته في كل اقطار اوربا

وروبرت ثيرن ولد من والد فقير صناعة السكافة وكان له اخوان احدهما ماهر في صناعة نقش الخشب وفي ذات يوم دخلت سيده حانوت ابيه فوجدته يرسم رسماً على كرسي صغير فامعنت نظرها في رسمه فرأت انه قابل للنحسين فطلبت منه ان يرسم لها بعض الصور وعينت له اناساً يساعده ويعلونه قواعد الرسم فكان غاية في الاجتهاد والمواظبة والهدو ونحو سنة ١٨٣٠ ساعده بعض محبي الخبز حتى دخل مدرسة التصوير الاسكتسية في ايدنبرج فدرس فيها على اساتيد ماهرين ونجح نجاحاً سريعاً ثم انتقل الى لندن ولاذ بدوك بكليك فعرفته بالاعيان لا غير لانه ما كانت صحبة الدوك ولا صحبة الملك لتصير الصانع ماهراً لان المهارة منوطة بالميل الطبيعي والاجتهاد المستمر

ونوبل ياتون المصور الشهير ابتداءً في صناعته يصنع رسوماً لطريز اغطية الموائد وكان ايضاً يرسم الصور البشرية ولم يشتهر امره حتى عينت جوائز لصور البرلينت فصور صورة روح الديانة ونال جائزة من الجوائز الاولى واشتهر بها شهرة فائقة ثم اشهر

صورة مصالحة اوبرون وتيتانيا وصورة الوطن وغيرها ما بان منه
انه كان يتقدم كثيراً في اتقان هذه الصناعة

ومن المصورين الذين هم من اشهر الامة للمواظبة والاجتهاد
جس شاربلس الحداد فان هذا الشهير ولد سنة ١٨٢٥ واخوته
واخوانه اثنا عشر وهو الثالث عشر وكان ابوه يعمل في سبك
الحديد ولم يعلم احداً من اولاده في مدرسة بل كان يرسلهم الى معمل
حالما يصورون قادرين على العمل ولذلك نرى جس هنا عاملاً
في مسبك قبلما بلغ العاشرة ولما بلغ الثانية عشرة دخل معمل
الآلات وكان عمله فيه احماه المسامير وتقدمها لصانع الخلاقين
وقد اجتمه ابوه في غضون ذلك ان يعلمه القراءة مع انه كان يقيم
في المعمل من الساعة السادسة قبل الظهر الى الثامنة بعده. وكان
من عادته ان يسك خيط الطباشير لناظر المسبك عند ما يرسم
رسوم الخلاقين على الارض ويساعده في الرسم فأغرم بالرسم
وصار حينما يرجع الى البيت يجلس على ارضه ويرسم عليها رسوم
الخلاقين. وفي ذات يوم أخبرته امه ان واحدة من نسيبائها آتية
لزيارتهم فنظفت البيت لاستقبالها بقدر ما يمكن وخرجت فلاقها
وانت بها وكان جس قد عاد في غيبتها من المسبك وجلس يرسم
رسم خلقين على الارض كجاري عادته فاغناظت امه عند ما رآته
غضباً شديداً الا ان نسيبهم مدحت عمله هذا وطلبت من اموان
نقطه قلماً وقرطاساً

ثم اخذ برسم صور الاشخاص والاراضي وينقل الصور المطبوعة وكان يجهل قوانين اللور والاظلال ولكنه استمر على ما هو فيه الى ان برع في النقل . ولما بلغ السادسة عشرة دخل المدرسة الميكانيكية لكي يتعلم صناعة الرسم وكان معلم الرسم فيها حلاق قد تعلم التصوير من نفسه وكان جسد يتعلم في هذه المدرسة مرة واحدة كل اسبوع ودام على ذلك ثلاثة اشهر فتمتعه معلمه لكي يستعير من المكتبة مقالات برنت في التصوير ولم يكن يعرف القراءة فكانت امه تقرأ له وهو يسمع فتضيق من جهله القراءة كل المضايقة وخصوصاً لرغبته في هذا الكتاب فترك الذهاب الى المدرسة وخصص وقته بعلم القراءة والكتابة في البيت ففتح سريعاً ثم رجع الى المدرسة وصار يقرأ في كتاب برنت بنفسه ولم يكتب بقراءة بل كان يكتب ملخص امور كثيرة منه ويبقيها معه الى حين الحاجة وكان يقوم الساعة الرابعة صباحاً ويعكف على قراءته الى الساعة السادسة وجنثاً يذهب الى عمله في المسبك ويبقى فيه من الساعة السادسة صباحاً الى الثامنة مساءً فيرجع الى البيت ويعود الى القراءة ويبقى قارئاً الى نصف الليل وكثيراً ما كان يجهي قسماً كبيراً من الليل او الليل كله في نقل بعض الصور ثم قصد ان يمارس التصوير بالزيت فاشترى قطعة جنفيس ومدّها على برواز ودهنها بالاسفنجاج ثم ابتاع اصباغاً واخذ يصور عليها ولكنه لم ينتج قط لان الجنفيس كان خشناً ولم ينشف الصبغ

عليه فشاور معلمة الحلاق في ذلك فاخبره من اين يمكنه ان يتناع جنيفصا والوانا محضرة للتصوير . فابتاع المواد اللازمة للتصوير لما صار معه ما يكفي لابتياعها واتى معلمة الحلاق فعلمه بعض المبادئ فلم يابث ان فاق معلمة واول صورة صورها نقلها عن صورة مطبوعة تدعى جز الغنم فباعها بنصف ريال . ثم اشترى رسالة صغيرة في فن التصوير بالزيت وصنع لنفسه كل الادوات التي يمكنه صنعها واشترى البقية بدراهم حصلها ما عملة في المسبك فوق المطلوب منه وهذا كل ما امكن لوالديه ان يسعها له به لكبر عائلتها . وكان يذهب الى منشستر ماشيا لكي يجلب شيئا من الالوان والجنيفص وهي على ثلاث ساعات ويرجع والتعب آخذ منه كل ماخذ . وما ياتي ماخوذ من كتاب كتبه للمؤلف

قال "والصورة الثانية التي صورتها صورة ارض واقع عليها نور القمر ثم صورت اثنتين او اكثر وحيثيذ خطر ببالي ان اصور مسبكا وكان ذلك في فكري منذ زمان طويل ولم اجسر عليه قبلا خوفا من النشل ولكني رسمته حيثيذ على قرطاس وشرعت في تصويره على الجنيفص ولم يكن صورة مسبك خاص ولذلك يمكن ان احسبه صورة مبتكرة لكوني لم انقله عن شيء وبعد ان رسمت الخطوط المحددة رأيت انه يلزمني ان ادرس التشرح جيدا لكي يمكن ان اصور اعضاء العمال وعضلاتهم تصويرا صحيحا . وهنا

يجب ان اعترف بفضل اخي بطرس عليّ لانه اشترى لي كتاب
فلكسمن في التشریح الذي لم يكن ممكناً لي ان اشتريه لان ثمنه
اربعة وعشرين شلناً فاعتبرته ككثر ثمن ودرسته باجتهاد لا يفوقه
اجتهاد فكنت اقوم الى درسه الساعة الثالثة صباحاً وغالباً كنت
اعري اخي بطرس واقفته امامي لكي ادرس عليه وارمعه . وما
زلت على مثل ذلك الى ان تيقنت انني صرت كفواً للشروع في
صورة المسبك ولكنني وجدت صعوبة في الاضلال وخطوط
النظر فاستحضرت كتاباً في هذا الموضوع واخذت ادرس فيه .
وحينئذٍ طلبت من رئيس المسبك ان يسمح لي بالعمل في الادوات
الكبيرة لانه يقضي لها وقت طويل لاحمامها فيمكنني في مدة احمامها
ان ارسم رسوماً كثيرة على صفيحة الحديد التي على واجهة الكور اه
وما زال يدرس ويعمل حتى انفن فن التصوير مع كل متعلقاته
وصور اباه صورة بدبعة ثم اكل صورة المسبك ولما رأى رئيس المسبك
منه ذلك طلب اليه ان يصور له عائلته فصورها صورة بدبعة فلم
يكتف باعطائه الجعل الذي قاله عليه وهو ثمانى عشرة ليرة بل
اعطاه فوقها ثلاثين شلناً . ولما كان يصور هذه الصورة ترك العمل
في المسبك وقصد ان يتركه دائماً ويخصص وقته للتصوير فصور
صوراً عديدة بين منقول ومبتكر ولكن لم يصر عليه طلب كاف
فعاد الى صناعة الحدادة . وكان يصرف اوقات العطلة في نقش
صورة المسبك التي صورها . اما سبب اخذه في نقشها فهو انه ارأها

ذات يوم لبائع صور فقال له لو نقشها نقاش ماهر وطبعها لخرجت
ذات روتق بديع . فقال في نفسه على م لا انقشها انا الا انه كان
يجهل صناعة النش على الاطلاق وهاك وصف المشتقات التي
عاناها في نقشها من قلمه

قال ”رايت اعلاناً في بعض الجرائد من رجل من شفيدل
يصنع صفائح فولاذ ما يستعمل لنش الصور وقد عرضها على البيع
باثمان ذكرها في الجريدة فاخترت واحدة ذات قدر مناسب
وارسلت له الثمن المطلوب وزدته قليلاً من الدراهم طلبت منه ان
يرسل لي بو بعض ادوات النش اللازمة ولم يمكني ان اذكر له
انواع الادوات لاني لم اكن اعرف ما هي فاتتني الصفيحة مع
الادوات . ولما كنت اعمل في نقش هذه الصورة اعلنت جمعية
المهندسين انها تعطي جائزة لاحسن صورة تشخيصية تقدم لها
فاعتمدت ان اتعلم على ارباب هذه الصناعة واطلقت فرسي في
ميدانهم ولحسن حظي نلت الجائزة . ثم انتقلت الى بلكرن ودخلت
معمل الخواجات يتس حلاًداً للآلات وكنت اتضي اوقات
العطلة في الرسم والتصوير ونش صورة المسبك وصادفت
مصاعب كثيرة في النش لانه لم يكن عندي الادوات اللازمة
فخطر ببالي ان اصنع هذه الادوات بيدي وبعد تعب كثير صنعت
عدة ادوات توافق ذوقي . وكنت ايضاً محناً الى زجاجة مكبرة
لاني نقشت قسماً كبيراً من صورة المسبك بعوينات ابي قبل ان

وجدت زجاجة مكبرة تقي بغرضي . وحدثت حادثة بينما كنت
انقش هذه الصورة كادت تجعلني ابطل نقشها وذلك انه كان من
عادتي ان اضع هذه الصفيحة جانباً عند ما ادعى لعل آخر بعد
ان ادهن الجزء المنقوش بالزيت حذرًا من الصدأ وذات مرة
افتقدتها بعد ان تركتها زمانًا طويلًا فوجدت الزيت قد جمد
عليها فحاولت اخراجه بواسطة الابرة فوجدت انه يقتضي لاجراجه
وقت قدر وقت النقش فتكدرت من ذلك كدرًا مفرطًا ولكنه
خطر بيالي ان اغليها في ماء الصودا ففعلت ومسحتها بفرشة ناعمة
فزال الزيت عنها تمامًا . ولما زالت هذه الصعوبة رأيت انه لم يبق
عليّ الا الجريان في حفرها بالصبر والمواظبة ولم يكن من يساعدي
ولا من يرشدني في شيء ولذلك اقول بكل جراءة انه اذا كان في
هذه الصورة شيء من الفضل فجميعه لي وليس لي فيه شريك وما
من شيء يدعوني لاشهارها الا اظهار ما يمكن ان يفعل بواسطة
الاجتهاد والمواظبة وهذا هو فخري

وليس من قصدنا ان نتكلم أكثر على هذه الصورة وما تستفهمه
من الاعتبار لان جرائد التصوير قد استوفت ذلك وانما نقول
انه نقشها في اوقات العطلة مدة خمس سنوات ولم برصورة منقوشة
من غيره قبل ان اتم نقشها واتى بها الى المطبعة



وما رأيناهُ من الاجتهاد والمواظبة بين المصورين نراهُ بين
 المغنين لان صناعة الغناء من اخوات التصوير والغناء للاصوات
 والتصوير للالوان كالشعر للكلمات ومن المغنين الذين نذكرهم
 اولاً هندل الذي لم يكن على من المواظبة ولم يباس من الشغل
 على كان يريد همه كلما زاد الدهر له عناداً وعلى وحده اجمالاً
 يعجز عنها اثنا عشر رجلاً وقد قال عن صناعته انها تقوم باخذ
 الموضوع والمواظبة عليه. وقال موزارت المغني الشهير العمل لديني
 المعظم. وقال بينوفن المغني لاشي يصد الجهد عن القدم قيل
 عرض مشايخ كتاب غناه على بينوفن فراه بينوفن كاتباً في آخره
 انتهى بعون الله فكتب تحمينا بالانسان عن نفسك وهذا النموذج
 بينوفن وقال بوحنا سبستيان باخ على قدر الاجتهاد النجاج اما
 موريير فقد قال فيويل انه يارس الموسيقى خمس عشرة ساعة
 كل يوم وهو ليس بذي موهبة خاصة ولكنه منطور على الاجتهاد
 لم يشهر الانكليز كثيراً بالموسيقى حتى الآن ولكنه قد قام
 من بينهم من يحق لهم ان يفتخروا بهم مثل ارن وهو ابن منجد وكان
 ابوه عازماً ان يعلمه الفنه ولكنه كان مغرمًا بصناعة الغناء حتى لم
 يمكن صرفه عنها فتعلم لعب الريباب خفية عن ابيه. وحدث مرة
 ان اياه دخل بيتاً فرأى فيه نفرًا من المغنين وارن وبهم فلم يعد
 يعارضه بعد ذلك عن الغناء فخر العالم فقيهاً ولكنه كسب مغنياً
 حسن الذوق جيد الغناء

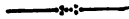
ووليم جكسن مؤلف اغنية "نجاة اسرائيل" من غلوا
 المصاعب هو اخطبهم وهو ابن طحلب من مشايخ مدينة في شمالي
 يوركشير. ويظهر ان حجة الغنا كانت مورثة في عائلته لان اباه
 كان مرتلاً في الكنيسة وجده كان رأس المرثون في الكنيسة وولما
 بلغ وليم هذا السنة الخامسة من عمره كان يدق على صافير ابوه
 وكان فيه بعض الخلل فاشترت له امة فلوناً صغيراً ذا منفاج
 واحد ثم اهداه رجل فلوناً ذا الربعة منفاج من فضة ولم يكن ناجماً
 في المدرسة القرية فلرسله ابوه الى مدرسة بعيدة فدخل هناك مع
 زمرة المغنين وتعلم مبادئ الغنا حسب الاسلوب الانكليزي القديم
 ونجح نجاحاً غريباً ولما رجع الى البيت رجع ويه غرام شديد
 بالموسيقى ثم تعلم اللعب على بيوت ابوه. ونحو ذلك الوقت اشترى
 واحد من جيرانهم ارغناً صغيراً محملاً واجهد لكي يصلح فذهب
 نعبه سدّى فاعطاه لجكسن هذا لصلح لانه كان قد اصبح ارغن
 الكنيسة فاصلح على اتم المراد موحيداً خطير به الى جكسن ان
 يصنع ارغناً مثله فشرع هو وابوه في هذا العمل مع انهما لم يكونا
 نجارين. وبعد معاناة مشقات كثيرة استتب لها عمل ارغن يدق
 عشرة الحان. فنظر الجميع الى هذه الآلة بين الاندهاش وصاروا
 يدعون جكسن لاصلاح الارغن فكان ياتي بالفرائب

وفي ذلك الوقت تالف صف من المغنين فصحبهم جكسن
 فعينوه قائماً لم وكان يدق على كل الآتهم ونظم لهم عدة الحان.

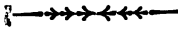
ثم تعين للعب على ارغن جديد كان قد اهدى للكنيسة وكان قد ترك صنعة الاولى الطماعة واخذ في عمل الشمع الابيض وصار يخصص كل اوقات العطلة بممارسة الموسيقى وسنة ١٨٣٦ نشر اغنية مطلعها لتغن الاودية المخصصة فرحاً وبني السنة التالية نال الجائزة الاولى على اغنية نظمها اسمها اخوات المرح ثم نظم ترنيمة مطلعها يا رب كن لي راحماً ونظم غناء مزدوج الدور للزمور المنة والثالث . وفي غضون ذلك كان آخذاً في نظم خروج بني اسرائيل من بابل ثم طبعة في اجزاء بين سنة ١٨٤٤ و ١٨٤٥ وقد انتهى من طبعه يوم بلوغه السنة التاسعة والعشرين وشهرة هذا المصنف تغني عن التفصيل . ثم صار استاذاً للموسيقى في برّد فرد وتشرف بالمشول لدى حضرة الملكة فكتوريا في قصر بكنهام وفي قصر البلور وغنى لما شيئاً من نظمه ونال منها الثناء الجميل . وقبل ان انتهت الطبعة التي ترجم منها هذا الكتاب وردت الاخبار بموت هذا الشهيرة من العمر خمسون سنة اما ما كتب عنه في هذا الفصل فقد نقله المؤلف عن لسانه حينما كان يصنع الشمع . وهنا نهي الكلام عن المصورين والناشرين والمغنين الذين ارتقوا الى اسي درجات المجد بواسطة اجتهادهم في العمل ومواظبتهم وتغلبوا على كل الموانع التي حالت في طريق تقدمهم

الفصل السابع

في العجل وذوي السيادة



قال مركيز مندوز . من لا يعرض نفسه للربح والخسارة فهو جبان
او صملوك
وقيل في بشارة لوقا . انزل الاعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين



ذكرنا في ما مضى ان كثيرين من عامة البشر ارتقوا من
ادنى الطبقات الى اعلاها بواسطة علمهم واجتهادهم والآن نقول
ايضاً ان كثيرين من الخاصة واولي السيادة نجحوا هذا النحو لاننا اذا
بجشنا عن سبب تقدم اشرف الانكليز واحرازهم ما لم من السيادة
جيلاً بعد جيل خلافاً لاشرف بقية المالك راينا ان سبب ذلك
هو انه قد دخل في سلكهم من وقت الى وقت اناس من اشد
اهالي البلاد اجتهاداً واكثرهم عملاً

كل بني البشر من دم واحد وان كان كثيرين لا يقدر
 ان يتدوا في اتساعهم الى اكثر من جد واحد فالجميع بدون
 استثناء يمكنهم ان يتصلوا الى آدم وحده والصحادة والشرف لا
 يدومان لفئة من البشر فكم من عظيم انحط ووضع سما والدهر
 في الناس قلب ان دان يوماً لشخص في غدا يتغلب ابن الاكاسرة
 الجبابرة الاولى كغول الكوز فاد بيق ولا يتعلم بل انعت رسومهم
 واخفى اسمهم واخطط نسلم بعامة شعبيهم والعباد كالبلاد تشقى
 وتسعد والناس بين تصويب وتصعيد لا فاذا راجعنا كتاب برك
 في ادوار العيال راينا ان بلايا الخاصة اكثر واشد من بلايا
 العامة وقد ذكر مؤلف هذا الكتاب انه لا يوجد الآن رجل
 واحد في مجلس الاشراف من الخمسة والعشرين يارونا الذين
 اتخبوا لاجراء البراءة العظيمة لان المحروب الاهلية والثورات الوطنية
 اهلكت كثيراً من الاشراف وشنتت شمل اولادهم واكثر من بني
 من نسلم مخطط بالعامة وعائش بين ادنى للترتب . قال فلران
 كثيرين من نسل بوهرن ومرسيهر وبلتجيت اخططوا بالعامة حتى
 عنا اثرهم . وقال برك انه رأي اثنين من نسل اول كشمدايين
 السادس للملك ادورد الاول بهذا الاسم احدهما فاصلب والآخر
 جاني وان حميد مرغريته بلتجيت ابنة ديوك كلارنس المخط الى
 ان صار اسكافا وان واحداً من نسل ديوك كلوستر ابن الملك
 ادورد الثالث بهذا الاسم صار قنصلنا في كنيسة مار جرجس في

هنري سكوي وبنال ان واحدا من نسل سيمان ده معترف
 راس اشراف انكلترا بصنع الآن السروج في سوق نولي و يوجد
 واحد من عائلة برسي له حتى بان يكون ديوك نرثمبرلند وهو
 الآن يصنع صناديق في دبلن ومن مدة وجيزة كان واحد يعمل في
 ملجم فحم و يدعي بلقب ارل برث . قال هو ملكر الله لما كان بيني
 بعض البيوت بقرب ادنبرج كان معه ولد يحمل الطين يدعي
 بارليه كروفرد ولم يكن ينقصه شيء لتثبيت دعواه سوى كتاب
 زينة نقد منه . قال وكنا نتاديو يا جون ارل كروفرد هات نهر
 طين . و واحد من احفاد اوليفر كرمول صار مجانا وكثيرون من
 الاشراف ماتوا على شجرة عائلتهم بعد ان التهموا كل اورانها وغيرهم
 داهتهم المصائب فخطمهم الى حفوض القدر والحوان . هذه هي
 مهابة ايجاد هذا العالم الغرور

ان اكثر اصحاب السيادة الحاليين في البلاد الانكليزية قد
 ارتقوا الى السيادة حديثا و اكثرهم ارتقوا اليها بواسطة جدم في
 عملهم اما في قديم الزمان فكان القنى مصدر السيادة لانه كان
 ثمره الاجهاد فاؤل من انشا اريه كرنولس هو توماس كرنولس
 التاجر و اريه اسكس وليم كابل بائع الاقمشة و اريه كرفن وليم
 كرفن الخياط و اريه وروك الحديفة وليم كرفل الصواف ودوكية
 نرثمبرلند الحديفة هو سيمسن الصديلي والذي اسس عائلة
 درنووث جلاذ وعائلة ردنور حائك وعائلة دوسي خياط وعائلة

بمفرت تاجر . والذين اسسوا بيريه تنكرفل ودرور وكوفنيري
كانوا بائعي اقمشة . واسلاف ارل رمني ولورد ددلي وورد كانوا
صاغة واللورد داكرس نفسه كان بنكياً في عهد الملك تشارلس
الاول بهذا الاسم كما كان اللورد اوفرستون في عهد الملكة فكتوريا .
وادورد أسبرن موسس دوكة ليدس كان صانعا عند وليم هيوت
الخياط وحدث ان ابنة معلمه سقطت في نهر التمس فخاطر بنفسه
وانشلها من الماء ثم تزوج بها . ومن جملة الارليات التي اسسها
ارباب الصنائع ارلية فتر وليم ولي ويندر وكوبر ودرنلي وهل
وكرتون . واصل عائلة فولي ونرميني رجلان شهيران وفي سيرتهم
فائدة جريئة فمخاض شبيهاً منها

كان ابو رنشرد فولي موسس العائلة ساكناً في جوار
ستوربرديج في عهد الملك تشارلس الاول بهذا الاسم وكان ذلك
المكان حينئذ مركز المعامل الحديدية فترني رنشرد في معمل منها
وتعلم صناعة عمل المسامير . وكان دائماً يلاحظ مقدار التعب
الشديد الذي يقاسيه العاملون في تقطيع الصنائح وعملها مسامير
ثم اخذت المسامير ترد من اسوج وكانت تباع باثمان بخسة
فكسدت مسامير ستوربرديج . وشاع ان الاسوجيين يصنعون
المسامير بطريقة سهلة حتى يمكنهم ان يبيعوها بارخص الاثمان
وبرجوا واذا تاكد رنشرد فولي ذلك عزم ان يكتشف سر هذه
الصناعة فاخفى بغتة من ستوربرديج ولم يعرف احد الى ابن

ذهب حتى ولا اهل بيته لانه لم يجبر احدًا مخافة ان يخيب مسعاه
فضى الى هل ورأى سفينة ذاهبة الى اسوج فتل فيها وكان يعمل
فيها بما يقوم باجرة سفره كما يحدث كثيرًا ولم يكن معه شيء سوى
عود يغني عليه. ولما وصل الى اسوج قوم خطواته نحو معادن
دلمور التي بقرب ابسالاهو يتسول في طريقه ويلعب على العود
وكان جيد اللعب لطيف المحضر فانس به الحدادون واكرموا
مشواه فكان يلاحظ اعمالهم والآلات التي يستعملونها ويذخر ذلك
في ذهنه ولما ظن انه قد فهم كل شيء اخفى من بينهم ولم يعلم
احد منهم الى اين ذهب. اما هو فرجع الى انكلترا وكاشف مستر
نيط ورجلاً آخر بما فعله وطلب منها ان يمدها بالمال لبناء معمل
وعمل الآلات اللازمة ففعلوا ولكن لما ترتب كل شيء رأى ان
الآلات لا تصلح للعمل فاخفى ثانية وحينئذ زعم البعض انه هرب
تجلاً ولن يرجع ابناً ولكن لم يكن الامر كذلك بل انه رجع الى
اسوج لكي يعرف ما هو النقص في الآلات التي عملها فلما دخل
معامل الحديد قابلته العمال بكل ترحاب وكان يلعب على العود
كجاري عادته فنوموه بينهم داخل المعامل مخافة ان يهرب كما
هرب اولاً ولم يرتابوا فيه قط بل ظنوه مغنياً مسكيناً ولم يختر
ببالم انه اتى ليسرق صناعتهم. فاخذ يعين نظره في الآلات
فعرف سبب النقص في آلاته وبقي زماناً كافياً لطبع الآلات في
ذهنه بعد ان صور البعض منها حسب طاقته ثم ترك المعامل على

حين غفلة ورجع الى بلاده ووجد الى مشروعه واصبح حاله ونجح
 فيه نجاحاً كاملاً وكسب غنى وافراً وهياً عمالاً لكثيرين من
 الصناع وكان يساعد في كل الاعمال الخيرية وانشأ مدرسة مجانية
 في سنوربرج على ننتو . وابنه توماس صار رئيساً وسترشير
 وانشأ مقاماً لتربية الاولاد في ألدسونفورد . وقد أدخلت هذه
 العائلة في سلك العمال العريقة في خلافة الملك تشارلس الثاني
 بهذا الاسم

١٠ ووليم فبس مؤسس عائلة ملكرف او تومني كان ابوه
 فرداحياً ساكناً في ولوبك احدى مهاجر الانكليز في اميركا . ولد
 سنة ١٦٥١ وكان له عشرون اخاً وخمس اخوات ولم يكن لم ميراث
 من ابيهم الا صحة اجسادهم اما وليم هذا فكان يحب سفر البحر
 وبفضله على عيشة الرعاية التي صرف صباه فيها وكان يشتهي
 دائماً ان يصير بحرياً ويجول في العالم وحاول الدخول في مركب
 فلم يجد باباً لذلك فضى وصار صانعاً لباني مركب وتعلم هذه
 الصناعة جيداً واتقن القراءة والكتابة في اوقات الفراغ ثم انتقل
 الى بستان وتزوج بارملة غنية وانشأ مبنى للمراكب وبني مركباً
 ونزل فيه واخذ يغير بالاختساب وبقي على ذلك عشر سنين
 وحدث انه كان ماراً ذات يوم في اسواق بستان فسمع بحرياً
 يقول لاخر قد انكمركم مركب اسبنيولي فيه مال كثير عند جرائر
 بهاما فلما سمع فبس ذلك جمع فرقة من البحرية ونزل في مركبه

وقصد السفينة المكسورة فامتدى اليها وخلص كثيرا من شعبها ويسيرا
 من الدراهم وكل ما خلاص لم يزد على النفقة التي انفقها الا ان نجاحه
 هذا اضرم فيو رغبة شديدة في التحمل المخاطر. ثم بلغه ان سفينة اخرى
 انكسرت قرب بورت ديه لا بلانا منذ خمسين سنة وكانت مشهورة
 بالذهب والفضة فعزم ان يذهب في طلبها ويصطادها اصطفا
 السمك. ولكن هذا العمل يقتضي نفقة وافرة ولم يكن معه شيء
 منها فغضى الى انكلترا وكان خبره تخلصه وشمخ السفينة المكسورة في
 جزائر بهاما قد سبقه اليها فلما بلغها طلب مساعدة السولة واقنع
 عقول رجال السياسة بصحة طلبه حتى ان الملك تشارس الثاني
 بهذا الاسم ملك قيادة سفينة فيها ثمانية عشر مدفعا وخمسة وثلاثون
 مجرما فاقبل بهم الى شاطي مسينولا ولكن رأى امامه شاطيا واسعا
 ومجرا لا نهاية له فاخذت رجالة تفوس الى ابحاق البحر يوما بعد
 يوم واسبوعا بعد اسبوع لعلمها تجد اثرا يدل على بقايا تلك السفينة
 التي كان قد مضى عليها في قعر البحر خمسون سنة وكانت كل
 اخبارها منقولة واكثرها ميم. ولكن فبسا كان رجلا لا يقاس به
 رجل في شجاعة العزم وعلو الهمة وعظم الامل فلدام على هذا الامر
 مدة حتى فلق البحرية واي فلق واخذوا يتناجون قائلين ان رثيمهم
 من اخصل الناس سبيلا ثم جاؤوا بالعصيان وهم قوم منهم على
 القرة وطلبوا منه ان يرجع بهم الا انه لم يخف من وعيدهم بل قبض
 على رؤسائهم وارسل البقية الى اعمالهم المتنوعة. وعند ذلك الوقت

اضطروا ان يشططوا على جزيرة لكي يصلحوا السفينة فشططوا
 وانزلوا قسماً من المؤونة الى البر فانفق البحرية على ان يقبضوا على
 السفينة ويقتلوا فبساً وصبروا قرصاناً وبنزوا المراكب الاسبانيولية
 في الابحر الجنوبية ولكنهم راوا انه من اللازم ان يكون معهم رئيس
 تجاري المركب فكاشفوه بمكيدتهم فمضى من ساعتهم واخبر فبساً
 بذلك فجمع فبس الذين يعلم انهم مطيعون له وامر ان تحشى
 المدافع التي تجاه الجزيرة وان يرفع سلم السفينة فلما اقبل البحرية
 الذين صهوا على العصاف منهم عن الدخول وقال لهم انه
 يطاق عليهم المدافع اذا اقتربوا من المؤونة التي كانت لم تنزل على
 البر فنفخوا عنها فامر ان ترجع الى المركب تحت حماية المدافع
 فلما رأى العصاة ذلك خافوا ان يتركوا على تلك الجزيرة الفقراء
 فيموتون جوعاً فطرحوا سلاحهم وتوسلوا اليه ان يردهم الى السفينة
 ويعفوا عن ذنبهم فعفا عنهم ورددهم الى وظائفهم الا انه اخذ
 الاحتياطات اللازمة خوفاً من مكيدة اخرى . وحالما امكنه ترك
 المتذمرين منهم تركهم واستخدم غيرهم مكانهم . وحينئذ رأى نفسه
 مضطراً ان يرجع الى انكلترا لكي يصلح السفينة فرجع وعرض كيفية
 فحصه على وزير البحر وكانت الدولة وقتئذ في اضطراب فلم تسمع
 له بمركب آخر ولكنه لم ينفك عن عزمه بل اخذ يبحث الاغنياء
 والشرفاء على مساعدته في هذا المشروع وتنظيم لجنة لذلك وما
 زال يفرع اذانهم مدة اربع سنوات حتى اتظمت لجنة لهذا العمل

رئيسها ديوك البارل ابن الجنرال منك وجمعت له الاموال
 اللازمة. فكان سفره الثاني ناجحاً مثل سفر فولي لانه وصل بسرعة
 الى بورت ده لابلاتا في جوار الصخور التي يظن ان السفينة
 الاسبانيولية انكسرت عليها وبقي قارباً قوياً بسبع ثمانية مجاذيف
 او عشرة وكان يعمل فيها بنفسه ويقال انه اخترع آلة تشبه ناقوس
 الغواصين ولم يكن هو اول من اخترعها ولكنه لم يكن عارفاً بها
 والارجح ان اختراعه اياها من باب توارد الخواطر. واستخدم
 ايضاً غواصين من الهنود لانهم اقدر من غيرهم على الغوص فبقي
 الغواصون يغوصون ويبحثون في قاع البحر عدة اسابيع على غير
 فائدة وذات يوم كان واحد من الملاحين يتطلع الى البحر وهو في
 القارب فنظر في العمق نوعاً من النبات بديع المنظر نامياً في شيء
 كقعر الصخر فطلب الى غواص هندي ان يغوص ويأتي به
 فغاص ولما طلع على وجه الماء قال انه رأى كثيراً من مداخل
 السفن مطروحة في القعر فلم يصدق احد قوله ولكنهم وجدوا
 لدى الفحص انه مصيب ثم وجد واحد من الغواصين سبيكة كبيرة
 من الفضة فلما راها فبس قال الحمد لله قد نجحت مساعينا. ثم انزل
 الغواصين والنواقيس حيث وجدت السبيكة وفي ايام قلائل
 استخرج من الفضة والذهب ما قيمته ثلاث مئة الف ليرة انكليزية
 فعند ذلك اقلع راجعاً الى انكلترا ولما بلغها حسن قوم للملك ان
 يفض عليه وعلى المال الذي رجع به زاعمين انه لما اخبره بهذا

المشروع لم يفصله كما ينبغي فلم يفتد الملك الهم بل قال انا اعلم
 ان فبسا امين صادق ولذلك هو والذين ساعدوه الحق بهذا
 المال من كل واحد فاقسم فبس وعضاء اللجنة المال فكان له
 مئة عشرون الف ليراثم ان الملك لفة بلقب نبط اظهار الامانة
 ونشاطه وجماله هامي شريف فهو انكفد فخدم الدولة خدماً كثيرة
 ثم صار والياً على ولاية مستوشوسنس وبعد ذلك رجع الى انكلترا
 ومات فيها سنة ١٦٦٥ ولم يكن يجعل من ذكر أصله الوضع بل
 كان يتفخر انه ربي فجار مراكب فصار غنياً ثم والياً وحين كانت
 تشكل عليه الهام السياسية كان يقول انه بفضل الرجوع الى
 قدومه على الولاية . وقد ترك اسماً عظيماً في الاستقامة والشجاعة
 ومحبة الوطن يحق اعامله نرمني ان تتفخروا على مدى الاجيال
 ووليم بيتي اصل بيت لنسبون ولد سنة ١٦٤٣ وكان مثل
 فبس في الاجتهاد والمنفعة للجمهور . كان ابوه خياطاً فقيراً فلم
 يعلم في صباه الا بعض المبادئ ثم انتقل الى مدرسة كابين الكلية
 في نورمدي وكان يبيع شيئاً من البضاعة فيربح ما يقوم بنفقته ثم
 رجع الى انكلترا وخدم ربحان سفينة لكي يعلم سلك البحر فاحقره
 الربان للقب معظرة فترك البحر وعزم على درس الطب فضى الى
 باريس واخذ يمارس المشرح العملي وكان في غضون ذلك يرسم
 اشكالاً لميس المذي كان اخذ في تاليف مقالته على البصرات
 وكان ربيته من ذلك يسيراً جداً فوصل الى الفلانة الشهيدة حتى

انه اقتات ثلاثة اسابيع على الجوز فعاد الى البيع والشراء ولم يرض
 عليه الا قليلاً حتى رجع ما امكنه من العود الى انكثرا فعاد اليها
 واخذ يولف في الصنائع والعلوم واستعمل الكيمياء والطبيعات
 واشتهر امره فيها . ثم عرض على البعض من اصحابه العلماء انشاء
 جمعية علمية فوافقوه وانشأوا الجمعية الملكية وكانت جلساتها
 الاولى في يونيو . ثم عين نائباً لاستاذ التشریح في أكسفورد . وسنة ١٦٥٢
 عين طبيباً للجنود في ايرلندا وطبيب فيها ثلاثة من رؤساء الجيش
 وهم لمبرت وفيلينود وهنري كرمول . وحين اخذت الدولة تهيب
 الاراضي المضبوطة لبعض العساكر رأى ان نفوسها لم يكن صحيحاً
 فاخذ على نفسه امر نفوسها بالضبط ولما كثرت اعماله واجوره اتهمه
 الحساد بالارتشاء فعزل ثم رد الى مناصبه بعد حين

وكان بقي من نوادر الزمان في الاجتهاد والاقلام والاختراع
 فقد اخترع اختراعات كثيرة منها مركب مزدوج القعر يسير
 ضد المد والنور والفتك كتباً في الصباغة والفلسفة البحرية ونوع
 الصوف والحساب السياسي وفي مواضع اخر مختلفة واصس معامل
 حديد وفتح معادن رصاص وانشأ تجارة في الاسماك والاختشاب
 ومع كل هذه الاشغال لم يتأخر عن القيام بواجباته في الجمعية
 الملكية . وترك لاولاده ثروة وافرة واكبرهم صار بارون شلبرن .
 ووصيته في غاية الغرابة وتظهر منها صفاته على اجلي بيان قال
 فيها لما القراء والمساكين الذين يستعطون فلا اوصي لهم

شيثاً واما المصابون من الله فعلى الامة ان تعني بهم واما
الذين لا حرفة لهم ولا مفتى فيجب ان يعنى بهم انسابهم . . .
الى ان قال واني عالم اني قد ساعدت كل انسابي الفقراء
ودربت بعضهم على تحصيل معيشتهم بكدهم وقد اشتغلت في
المصالح الجمهورية واخترعت اختراعات كثيرة فاصلاً بها خير
البشر واني انذرا الذين يرثون تركي ان يفعلوا مثلي دائماً. وجرباً
على العادة الجارية اهب لاشد مساكين قريتي فاقفة عشرين
ليراً. ثم مات ودفن في كنيسة رُمزي حيثما ولد ولم يزل قبره الى
الآن في تلك الكنيسة جنوبي الخورس وعليه هذه الكتابة "ضريح
السروليم يتي"

ومن العيال التي ارتقت الى منصب الشرف في ايامنا بواسطة
الاختراع والصناعة عائلة سنرت وبلير واول من احرز لها الشرف
جد ياسنرت سنة ١٧٥٨ لما اخترع آلة لاصطناع الجوارب المضلعة
وهذا الاختراع سبب غناه وغنى نسله من بعده. كان ابوه فلاحاً
ولم يعلم اولاده الا قليلاً ولكنهم افلحوا جميعاً وجدياً هذا ثاني اولاده
وكان يساعده في الفلاحة فاطهر من حلاته ميلاً الى عمل الآلات
وعمل عدة تحسينات في ادوات الفلاحة المستعملة وقتئذ ثم مات
عنه فاخذ حنلة وتزوج بمس ولوت ابنة رجل حرفة بيع الجوارب
فاخبره اخوها ان كثيرين قد اجهدوا على اختراع آلة لعمل
الجوارب المضلعة ولم يقدروا فعزم جدياً ان يمتحن ذلك فاستحضر

آلة لاصطناع الجوارب ونظر فيها جيداً حتى عرف كيفية العمل
 بها ثم اخذ بغير تركيب ابرها ويزيد ما حتى صارت تسح اجربة
 مضلعة فعرضها على الدولة ونال اجازة المحصر ثم انتقل الى دربي
 واخذ بعمل الجوارب المضلعة فيها ثم اشترك مع اركريت المار
 ذكره ونفعا معامل في كرفورد في دريشير وبعد انتهاء مدة الشركة
 انشأ سترت واهله مهمل قطن في ملفورد قرب بيلر فلقبوا عائلة
 بيلر. وكان اولاد جديا مثله في الاجتهاد والمخافة. قيل ان احدهم
 وليم اخترع آلة تشتغل من تلقاء نفسها ولكن بما ان معرفة اصطناع
 الآلات كانت قاصرة في تلك الايام اهمل امرها. وادورد ابن
 وليم اخترع الدولاب المعلق وصنع ثلاث مركبات حولها معلنة
 وقد اشتهرت هذه العائلة شهرة فائقة لانها استخدمت ثروتها لاعمال
 حميدة ولا سيما لانها لم تترك واسطة لتهديب اخلاق العاملين في
 معاملها الا استخدمتها وكانت تشترك في كل عمل خيري يستغاه من
 ذلك الروض الواسع الذي وهبه يوسف سترت لاهل مدينته
 وقال من خطبة وجيزة تلاها عليهم حينما وهبهم اياه " بما ان
 السعد قد خدمني مدة حياتي فلا يلقى بي الا ان اخصص قسماً
 من ثروتي بالذين ربيت بينهم واعضدت بهم "

ويمكن ان نقول ان اكثر الذين احرزوا الشرف والسيادة
 براً وبحراً قديماً وحديثاً احرزوها بكدهم واجتهادهم فمنهم من
 احرزها في حومة الوغى كنلسن وسنت فنسنت وليونس وولنتن

وهل وهردن وكليد وغيرهم من نالوا شرفهم بذراعتهم ولكن أكثر
 اشراف الانكليز ارتقوا الى سدة الشرف بالعمل والكدح لا بقيادة
 الجيوش فان نحو سبعين شريفاً حصلوا الشرف بواسطة الفقه
 وكثيرون غيرهم من اشرافنا كانوا ابناء محامين وسامين وقسوس
 وتجار وغيرهم من اهل الكدح . فاللورد لندهرست ابن مصور
 وسنت ليونرس ابن مزين وادورد صكدن كان خادماً . واللورد
 نتردن من اصل حنبر جداً ولكنه لم يكن ينجل به قيل انه اخذ
 مرة ابنة تشارلس بيده وراه دكاناً صغيراً وقال له انظر الى هذا
 الدكان فان ابي جدك كان يجلس فيه للناس وياخذ على الراس
 عشرين بارة وهذا هو فخري العظيم . وارتقاء كسبيون والنبروالى
 منصب امانة ختم الملك ليس اقل غرابة من ارتقاء اللورد نتردن
 وكذا ارتقاء اللورد كمبل الذي هو ابن مغن قيل انه لما ارتقى الى
 هذا المنصب كان يجول ماشياً لفقره ولكنه تدرج في مراقي
 الشرف والاعتبار كشأن كل عامل امين مجتهد

وبين كل الذين ارتقوا الى هذا المنصب ليس من ارتقاؤه
 اغرب من ارتقاء اللورد آلدن فانه ابن بائع فحم من نيوكسل
 وكان في صغره طائشاً مشهوراً بسرقة الجنائن فقصده ابوه ان
 يضعه صانعاً عند سمان ولكنه عدل عن ذلك وعزم ان يعلمه
 حرفته وهي بيع الفحم . وحينئذ ارسل اليه ابنة وليم (وهو الذي دعي
 فيما بعد اللورد ستول) وكان تلميذاً في اكسفورد يقول ابعت جاگاً

الى علي ادبرلة عملاً مناسباً فمضى الى اكسفورد وتعلم فيها بواسطة
 اجتهاده واجتهاد اخيه ولكنه لم يلبث طويلاً حتى هوي فتاة
 فحفظها ومضى بها وقطع الحدود بين انكلترا وسكوتلاندا وتزوج
 بها ولا بيت له ولا مال فرُفض من المدرسة ومن الكنيسة (لانه
 كان معيناً للقسوسية) فعزم على درس الفقه وكتب الى صاحب
 له يقول قد تزوجت جهلاً ولكني عازم ان ابذل جهدي لا قوم
 باحتياجات المرأة التي احببتها. ثم اتى لندن واستأجر بيتاً في زقاق
 كرستور واقام فيه يدرس الفقه برغبة شديدة فكان يقوم الساعة
 الرابعة صباحاً (قبل الظهر بثماني ساعات) ولا يلقي الكتب حتى
 يمضي اكثر الليل واذا داهمه النعاس ربط رأسه بمندبل مبلول
 بالماء حتى لا ينام. ولم يكن قادراً ان يدرس على مشرع فنسخ
 يده ثلاثة مجلدات كبار من كتب الدعاوي ولما صار امين الختم
 قال لكاتم اسراره وها ماران في ذلك الزقاق ههنا كان مقرري
 الاول وكثيراً ما يخاطر بيالي كم كنت امر بهذه السوق ويدي
 ثلاثة غروش لابتاع بها عشاء ثم مضى الى المحكمة لكي يستعمل
 المحاماة فانسدت في وجهه كل الابواب ولم يربح في السنة الاولى
 اكثر من تسعة اشلان وبقي اربع سنوات ملازماً محاماً في لندن
 وغيرها وهو على مثل ذلك فعزم ان يترك محكمة لندن ويقوم في
 بعض المدن الصغيرة محامياً ولكنه نجح من ذلك كما نجح من ان
 يكون سماناً وقحماً وقسيساً لانه صادف فرصة لاطهار كل معارفه

الفتحية وذلك انه كان يجامى في دعوى فحكم لخصمه فاستأنف
الدعوى الى مجلس الاشراف فنقض اللورد ثلثو الحكم الاول
وحكم له وهذه اول درجة في سلم ارتقاؤه . كان من عادة اللورد
منسفيد ان يقول لا اعرف انه كانت فترة بين المدة التي كنت
فيها بلا عمل والمدة التي صارت فيها اجري في ثلاثة آلاف ليرة سنوياً
وهذا يصح ان يقال في هذا الرجل لان نجاحه كان سريعاً جداً
لانه عين مشيراً للملك وصار رئيس الدائرة الشمالية وعضواً في
البرلمنت قبل ان ناهز الثانية والثلاثين من عمره وما زال يرتقي
من درجة الى اخرى مجده واجتهاده الى ان صار امين ختم
الملك وهو اعلى منصب يستطيع الملك ان يرتقي اليه وبقي في هذا
المنصب نحو خمس وعشرين سنة

وهنري بكرسنت كان ابن جراح ودرس الطب في ادنبرج
واظهر في دروسه اجتهاداً عظيماً وبعد ان اكمل دروسه في المدرسة
رجع الى بيت ابيه وكان يساعده في الجراحة الا انه كان يكره هذه
الصناعة فالح على ابيه حتى ارسله الى كمبردج وكان مراده ان
ياخذ ديلوما تلك المدرسة لكي يسوغ له التطبيب في لندن الا
ان اجتهاده العظيم في الدرس الفاه في مرض . فعرض عليه
ان يكون طبيباً للورد اكسفرده وهو مسافر فارضى املاً بارجاع
صحته وسافر مع ذاك اللورد فدرس وهو في السفر اللغة الايطالية
وغرم بادائها ثم رجع الى كمبردج واخذ الديلوما والرتبة . وكان

عازماً ان يدخل العسكرية فلم يُج له ذلك فدخل المدرسة
 الفقهية واخذ في درس الشريعة وكل الذين رأوه تنبأوا بنجاحه لما
 رأوا فيه من الاجتهاد . ولما صار له ثمانية وعشرون من العمر اذن
 له بالدخول الى المحكمة ولم يكن معه مال فاضطر ان يعيش من
 احسان اصحابه ومضت عليه عدة سنين قبل ان مسك دعوى
 فضاق به الامر واشتدت عليه الفاقة فكتب الى اصحابه الذين
 يعاونونه انه قد يش من النجاح وعزم ان يرجع الى كمبردج فارسلوا
 له شيئاً من المال ونشطوه على الصبر ريثما يفتح الله باباً للفرج فلم
 يلبث طويلاً حتى اقبلت عليه الدعاوي ونجاحه في الدعاوي
 الصغيرة اناه بدعاوي كبيرة فصار يرجع ما يكفيه ثم زاد ربحه وكان
 منتصباً فوفى كل ما استقرضه من اصحابه مع الربا وما زالت تنفتح
 الغيوم عن سعه حتى اضاء كالبدر في كبد السماء وصار عضواً في
 مجلس الاشراف باسم البارون لننال وقد نال ما ناله من
 الشرف والنحر بصبره وكده ومواظبه

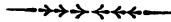
فهذه امثلة قليلة من الرجال العظام الذين مهدوا لانفسهم
 طريقاً للبلوغ الى اعلى المراتب باستعمالهم قوام الطبيعية وتقويتها
 بالصبر والكد والمواظبة

الفصل الثامن

في النشاط والشجاعة



قال جاكس كر . لاستقبل على القلب الشجاع
وقال المثل الجرمني . الارض للنشيطين
وقيل عن الملك حزقيا ان كل عمل ابتدا به انما عمله بكل قلبه وافلح
اي ٣١:٢١



بروي ان احد جاهلية الجرمانيين قال اني لا اركن الى
الاصنام ولا اخاف من الشياطين بل انما ننتفي بقوة جسدي وعقلي
وقيل ايضا ان اهالي اسوج ونروج كان لهم الهة حامل مطرقة
وهذا دليل على اجتهادهم لان حمل المطرقة من علامات الهمة
والنشاط. وقد يستدل على اخلاق الانسان واحواله من اعمال
طنيقة يعملها . قيل ان رجلا فرنساويا قال لصاحب له وهو عازم
على الانتقال الى ما بين قوم والسكنى في بلادهم "اياك وهؤلاء
الناس لاني رايت ان ضربة مطرقة اولادهم الذين يدخلون
مدارس البيطرة ضعيفة دلالة على انهم ليسوا من ذوي النشاط

فاذا سكنت بلادهم خسرت ولم ترحم". ولقد اصاب في ما قال
لانه كما يكون الاحاد يكون الشعب وكما يكون الشعب تكون
البلاد

والنشاط والهمة اساس لكل نجاح (وما احسن ما قاله
بعض بلغاء العرب قال الارتكاض باب الافلاح والنشاط
جلباة والفظنة مصباحة والفتحة سلاحه ويجب على طالبه ان يفرع
باب رعيه بسعيه وان يجوب كل فج ويلج كل لجة ويتبع كل روض
ويقتني دلوئه في كل حوض وان لا يسأم الطلب ولا يمل الدأب لان
من طلب جلب ومن جال نال والكسل عنوان الخوس لبوس
ذوي البوس ومنناج المترية ولفاح المتعبه وشيمة العجزة الجبهة
وشنينة الوكلة النكلة وما اشتار العسل من اخنار الكسل ولا ملاً
الراحة من استوطأ الراحة . والخور صنو الكسل وسبب الفشل
ومبطأة للعمل ومخيبة للامل اه) والنشاط يوصل الانسان الى اعلى
مراقي النجاح مها حال دونه من الموانع ومن اتصف به سبق المتكلمين
على مواهبهم غير معرض نفسه للفشل منهم . والموهبة من النشاط
كالاهلية والارادة فاذا كان الانسان اهلاً لان يعمل عملاً لا يعمله
ما لم يكن مريباً فكما ان الارادة هي التي تعمل كذلك النشاط
هو العامل فينا فهو الانسان الادي . والامل الحقيقي مبني على
النشاط. قال المثل ما اضيق العيش لولا فسحة الامل وقال ابن
سيراخ ويل لخائر العزم . فلا بركة تضاهي ثبات العزم وحسن

الرجاء فأنته وان خلبت أكثر مساعي الانسان يفتي بلكه مطمئناً بأنه
قد فعل ما في طاقتهم ومن يضع ملاك الامل نصب عينيه يحتفل
المقاعب بالصبر الجميل ويلقى المحن متهللاً مسروراً وانعب الناس
وأكثرهم شغاف من قصرت مقدرته وانسعت مطامعه

وانصب خلق الله من زاد همة وقصر عما تشتهي النفس وجدة
ومن كان غناؤه الايماني فقط عاش خائر القوى . وأكثر الناس
عرضة لهذا اللذات المضال هم الشبان فيجب ان يدربوا من صغرهم
على اخراج كل شيء من حيز الامل الى حيز العمل

وما طلب الهمة بالتمني ولكن التي دلوك في الدلاء
نجي بيمتها طوراً فطوراً نجي بجملته وقليل ماء
قال اري شفر لاشيء يثمر الا بتعب العقل والجسد والحياة

جهاد مستمر كما اري بنفسي وما فخري الا بنشاطي فان عزيز
النفس شريف المطلب يستطيع ان يفعل كل ما يشاء . وقال
هو ملر "ان المدرسة الوحيدة التي تعلمت فيها العلم الحقيقي هي مدرسة
المعلم التي يُعلم فيها التعب والعناء معلمان صارمان ولكنها
شريفان" . ومن يتروّد في عمله ولا يتفهم المصاعب بقدم راحته
وعزيمه ماضية تحبط مساعيه ويعود بالفشل واما اذا نهض لعمرك
همة وحزم انشغعت غيوم مصاعبه كما يتشع الضباب بجر الشمس
والانكباب عادة كفية العوائد والمواظبة تجمله ملكة وكل
من انكب على عمله يجد افلح فيه ولو كان معتدل القوى . قيل ان

قول بكسنتن لتكمل على السائط الاعيادية والانكباب الشديد
 جارياً على قول الحكيم كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك .
 ونسب نجاحه الى انكبابه بقلته على امر واحد في وقت واحد .
 ولا يبلغ الانسلن امراً ذا طائل الا بالعمل المنفرد بالشجاعة .
 والانسان ينمو باقتحام المصاعب وهذا هو الجهاد ونتائج هذا
 الجهاد تدش كل من ينظر فيها حتى ان توقع المستحيل يصير
 المستحيل ممكناً والامال طلائع الاعمال وما اضعف الله والمنزلة
 في امور غير الممكن محالاً . حكى ابن جندياً فرساً وياً كان
 يتمشى في غروفه ويقول لا بد من ان اصير مرثالاً وما به من شدة
 الحمل هوّن عليه كل امر عسير فتال منهج وصلار مرثالاً عظيماً .
 وقيل ان مستر والكر مرض مرة فعزم ان يشفي فشفي من تلقاء
 عزوه . وهذا السبيل اسهل من اخذ الادوية الا ان نجاحه دائماً
 غير موكد . وقيل ان الملوي مولك القائد المراكشي كان مصاباً
 بمرض عضال حين انتشبت الحرب بين جيوشه والجهوش
 البرتوغالية فلما سمع صرخات الحرب نهض من عن سريره وانتاد
 جيشه وبعد ان فاز بالغلبة على العدو وقع لساعته ميتاً
 فالارادة هي التي تقدر الانسان على عمل ما يريد عمله قال
 بعض الافاضل الانسلن كما يريد فمن اراد ان يكون مطيعاً صبوراً
 حليماً صار كذلك . حكى بعضهم انه رأى نجاراً يصلح كرسيّاً لاحد
 الفضل وكان يعني باصلاحه اكثر من المعناد فقال له يا هذا

مالك تعني باصلاح هذا الكرسي اعناءً شديداً قال لاني اريد ان اجلس عليه يوماً ما وهكذا كان لان ذلك النجار درس الفقه وجلس على ذلك الكرسي. ولا داعي لما اقامه المنطقيون من الادلة على ان الانسان حر الارادة لان كل انسان يحس بانته متروك لحرية وانه ان يختار الخبز او الشر. وليس الانسان ورقة ترمي في النهر لتدل على سرعة مجراه بل هو سباح نشيط يقاوم الجاري ويصارع الامواج ويسير الى حيث اراد بقوة ذراعيه. نعم اننا احرار ولنا حرية اديية لنعمل ما اردنا ولسنا مرتبطين بطلم او سحر يربطنا بعمل من الاعمال ومن لا يشعر هذا الشعور لا يرجى منه كبير فائدة. ومهام الحياة وعلاقات البشر العائلية والمدنية والعلمية نصح بلسان واحد ان الانسان حر الارادة ولولا ذلك ما كان الانسان مطالباً ولا كانت فائدة من التعليم ولا من النصح ولا من الوعظ ولا من الحث ولولا حرية الارادة ما وجدت الشرائع لان وجودها يستلزم كون الانسان حراً ان يطيعها او يعصاها حسب موافقتها او مضادتها ونحن نحس في كل دقيقة من حياتنا اننا ذوو ارادة حرة سواء استعملناها في الملعج او في القبيح. وليس الانسان عبداً لعوائده ونجاره بل سيداً عليها ويرى في نفسه ما يحنه على مقاومتها او اطاعها فلا يصعب عليه قهرها اذا اراد. قال لامتيس لاحد الشبان قد بلغت السن الذي يجب ان تنهج فيه منهجاً لا تنجد عنه والافستن داخل النهر الذي تحفره

لنفسك غير قادر ان تزحزح غطاءه عنه والارادة اسهل القوى
انقياداً واسرعها تملكاً لذلك تعلم من الآن ان تكون قوي الارادة
شديد العزم لتلا نفي محمولاً بكل ربح

كريشة بهيم الربح ساقطة لا تستر على حال من الفلج
وكان بكستون يرى ان الشاب يمكنه ان يكون كما يريد بشرط
ان يكون من اولي الحزم وكتب مرة الى احد بنيه يقول له "قد
حان لك ان تميل يمينه او يسرة فعليك ان تظهر حزمك واقدامك
والأفستكون حامل الذكر ضعيف الهمة وتملك منك صفات
الكسل والتواني واذا سقطت في مثل ذلك لا سمح الله صعب
عليك النهوض. واني لمتيقن ان كل شاب يقدر ان يكون كما يشاء.
هكذا كان امري. وكل سعادتي ونجاحي نتج من المنهج الذي نهجته
لنفسي وانا في سنك فاذا عزمته الآن ان تكون مجداً ومجتهداً
فستفرح كل حياتك بانك عزمته هذا العزم". والارادة هي الدأب
والمزاولة والمواظبة والثبات فلذلك لا نحتاج الا التدريب فان
درّبت على الشر كانت شيطاناً مريداً وكان العقل لها عبداً ذليلاً
وان درّبت على الخير كانت ملكاً عادلاً وكان العقل لها وزيراً
فاضلاً وعكفاً كلاهما على خير الانسان

والارادة لغة نزوع النفس وميلها الى الفعل بحيث يجعلها ذلك
الميل عليه فمن اراد امرأ فنفس ارادته تحمله على عمله بل تسهل له
العمل وتمون عليه المصاعب حتى ان من اطاق الناس شيء غالباً

واغصاباً لم ينتهه سؤالا . والعزم لغة عقد القلب على الشيء . فمن
 عقد قلبه على امر واراد عملة قدر عليه ألا ترى ان رسلوا ونيوليون
 الأول طلبا ان تلقى كلمة مستحيل من كتاب اللغة اما نيوليون
 فكان اكره شي حلد به هذه الكلمات "لا اقدر . لا اعرف . مستحيل"
 فكان جوابه للارنى حاول وللثانية تعلم وللثالثة امتعن . وكاتبو سيرة
 حياتو يقولون انها مثال للششاط في استعمال القوى التي لا يخاف
 قلب من جرائبها . وكان من اهلها ان من الحزم لحكمة . ولا
 يمكن ان يظهر مغفار ما تفعله الارادة اكار ما ظهر في حياة هذا
 الانسان العجيب لانه صب كل قوى عقله وجسده على علمه فاخضع
 اما وقهر ما لك . وقيل له يوما ان جبال الالب الشاقة تمنعك
 عن التقدم فقال يجب ان تلقى ثم اخنط طريقا لم يكن يُجناز
 من قبل . وهو الذي قال ان كلمة مستحيل لا توجد الا في قاموس
 الجانين . وكانت اشغاله تفوق الموصف فكان يشغل اربع كتبه
 وبنهمهم من التعب وقد اتى النخوة في قلوب كثيرين وقال مرة
 انني صنعت قوادي من التراب . لكن بغنا ان نقول حبة
 لنفسو اضرة واضرة قومه معه بعد ان تركهم قوضى وبظهر من
 حياتو ان القوة غير المؤسسة على المبادئ الحسنة تضر باصحابها
 وان المغطنة بدون الصلاح مبدأ شيطاني
 واما ولنتون الشهير فلم يكن اقل من نيوليون عزما واهلما
 ولكنه كان منكرا نفسه عفيفا محبا لوطنه . كان غرض نيوليون

الافصى المجد وغرض ولتتوّن التيام بواجباته حتى قيل ان كلمة
 مجد لم ترد في كل كتاباته واما كلمة واجبات فكثيرا ما وردت
 ولكن ليس بالعجب والافخجار . واقوى الصعوبات لم توهم عن
 هذا البطل بل كانت قوته تعظم بتعاضد المصاعب الهبوطية . وما
 اظهره من الصبر واللبات والحزم في حروب اسبانيا يفوق وصف
 الواصفين لانه اقام هناك قائداً وحاكماً وكان غاية في حدة الطبع
 الا ان عقله حكم على طبيعه فظهر لمن حوله غاية في الصبر والمجد
 ولم يشب اخلاقه الحميدة شيئا من الطمع او الحسد او الهوى
 فاجتمعت فيه خيرة نبوليون وجسارة كلثف وحكمة كرمول وعفة
 وشنطون وولد اسمه في رياض المحكمة والاقلام والصبر

واول ظواهر النشاط السرعة . قال الشاعر

وربما فات قوماً جل امرهم من الثاني وكان الحزم لو عجلوا
 قيل سألت اللجنة الافريقية ليدرد السائح متى تسافر الى افريقية
 (بعد ان عينته للذهاب اليها) فاجاب غداً . ولما سُئل جون
 جرفيس (وهو الذي لقب بعدئذ ارل سنت فينسنت) متى
 تكون مستعداً للترنل في سفينتك اجاب الآن . ولما عيّن السر
 كولن كبل قائداً للجيش الهندي سُئل متى تكون مستعداً للسفر
 فاجاب غداً . وبالسرعة واتتهار انصرص بكتسب الظفر . قال
 نبوليون انني ظفرت في واقعة اركولا بخمسة وعشرين فارساً
 وذلك انني انتهزت فرصة تعب العدو واقفحمت بهنا المدد

القبيل فتغلبت عليه والجيوش المتحاربة شبه رجلين يتصارعان
فان اخطأ احدهما خطأ صغيراً واستغفم قرينه فرصة خطاؤه غلبة
وقال مرة اخرى انه كسر الفساويين لانهم لم يعتبروا وقتهم (١)
ولقد كانت بلاد الهند في القرن الماضي ميداناً للنشاط
الانكليزي فان من كليف الى هملوك وكليد حكاماً وقواداً طارت
شهرتهم في الافاق كوسلي ومتكلف وأترم وادوردس ولورنس
وورن هستنس وورن هستنس هذا من عائلة قديمة شهيرة دهبها
القرن لتبذيرها واتصارها لآل ستورت فانحط شأنها وساءت حالها
فاجأها الفقر الى بيع دالسفرد التي استولت عليها مئات من
السينين ولما ولد ورن كانت العائلة قد انحطت من درجة الاعيان
الى السوق فتعلم في مدرسة القرية مع اولاد الفلاحين وكان يلعب
في الاراضي التي كانت تخص لاسلافه الا انه لم يبرح من بالو ما

(١) العرب تقول ان الحرب خدعة اي تنفسي بخدعة ويقال ان
معنى كون الحرب خدعة ان الظفر بها يكون مجسن التديير والحزم لا بمجرد
الشجاعة والاقدام كما قال ابو الطيب المتنبي
ولربما طعمت الفتى اقرانه بالراي قبل تطاعن الاقران
ومن هنا القبيل ما حكى عن عنزة العبيسي انه قيل له انت اشجع العرب
واشدهم بطشاً فقال لا فقيل له كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس قال
اني اقدم اذا رايت الاقدام عزمًا واحجم اذا رايت الاجسام حزمًا ولا ادخل
مدخلًا الا اذا رايت لي منه مخرجًا واعتهد الضعيف الساقط فاضربة
ضربة بطير منها قلب الشجاع فاشفي عليه فاخذته والحرب خدعة اه

كان لهم من المجد والشرف قبل انث وهو في السابعة انكاً على ضنة
 غدبر جارٍ في املاك اسلافه وجمل يتأمل في ما كانوا عليه فخم
 على نفسه ان يسترجع املاكهم واسمهم . فكر صبي غر ولكنه عاش
 حتى اخرجه من حيز الفكر الى حيز الفعل لانه ربي معه واصبح
 جزءاً من حياته . وبمزمو واقدامو صار من اعظم رجال عصره
 فاسترد املاك اجلاده وبني بيت عائلته . قال فيه ماكوي انث فيما
 كان يتسلط على خمسين مليوناً من اهالي اسيا ويقوم بادارة امورهم
 وحرورهم كانت اماله موجهة لرد السفرد ولما انتهت انعاب حياته
 اعتزل اليها يموت فيها

والسر نشارلس نپير قائد آخر من قواد جنود الهند يضرب
 به المثل في الشجاعة والحزم . قال مرة عن الشدائد الكثيرة اني
 كان محاطاً بها في احدى المواقع انها لا تزيدني الا ثباتاً ورسوخاً .
 وواقعة مياني التي اتصرف فيها من اعجب المواقع التي حدثت على
 وجه الارض لانه تغلب على خمسة وثلاثين الف بلوخي شاكبي
 السلاح بالني رجل اربع مئة منهم فقط اورييون وذلك انث كان
 يثق بنفسه وبقوة جنوده فاتقم بهم العدو بقلب اشد من الحديد
 وانتشب بينهم القتال ودام ثلاث ساعات متواصلة فقهر العدو
 واضطره الى الهزيمة بعد ان اهلك منه خلقاً كثيراً فلم يفر الا بشباته .
 وكثيراً ما يكون بين الغالب والمغلوب فرق يسير وقد لا يوجد
 فرق سوى ان الغالب يثبت بضع دقائق اكثر من المغلوب

وثبات خمس دقائق كافٍ للظفر كما ان السابق من خيل الرهان لا يفوت المصلي الأسمافة بعيرة جداً . قال شاب اسبرطي لايو وقد قلده سيفاً يا ابني هذا السيف قصير فقال تقدم به خطوة فيصير طويلاً

وما من وسيلة استخدمها نير لانقاذ الحماة في قلب جنوده
 الأشجاعة الشخصية فكان يتعب كما يتعب كل جندي ويقول
 ان القيادة لانوم الأسمافة الجنود اتعابها ولا ينجح القائد ما لم
 يصب كل قوة عقله وجسده على عمله ويحمل كل المتاعب ويعرض
 نفسه لكل الاخطار . قال بعض الشبان في واقعة كشي وكان
 تحت قيادته كيف يمكنني ان اتكاسل وانا اري هذا اللشخ (يريد به
 نير) على ظهر جواده دائماً فلوا مررتي ان ارج نفسي في ثم مدفع
 محشو لنعلمت . وبلغ نير هذا الكلام فقال ان هذا جزاء كافٍ
 لكل اتعابي . وما يظهر شجاعة هذا البطل واخلاص نيره الحادثة
 التي وقعت له مع المشعوذ الهندي وهي ان مشعوذاً هندياً شهيراً
 لعب امامه وامام عائلته وحواشيه العاباً كثيرة في جلستها انه وضع
 ليهونة صغيرة كالمجوزة في كف رفيقه وضربها بالسيف فقطعها
 شطرين فارتاب الجنرال نير في صحة ذلك ونسبه الى مواطاة
 بين السيف ورفيقه ودفعاً للريب طلب ان يمكك الليمونة بيده
 ومد يمينه فنظر اليها السيف وقال لا يمكنني ان افعل ذلك فقال
 نير هكذا ظننت فقال السيف مد شمالك فهما فقال له اذا

كنت قادراً ان تثبتها فانا اضرب اللبونة فيها فقال ولم لاتضربها
 في اليمين فاجاب لان كفك اليميني مقعرة فاخاف ان اقطع
 ابهامك واما الشمال فليست كذلك فيكون الخطر اقل . قال
 نبيروحيثذ ارتعدت فرائصي لاني فاكدت انه يضرب اللبونة
 حذيفة ولو لم اكن قد نسبته الى الخداع امام حشبي لعدلت عن
 المخاطرة بيدي فددت شمالي ووضعت اللبونة في كفها فاسئل
 سبته وضربها فقطعها شطرين فدمعت كان خيطاً بارداً مرّ على
 يدي الى ان قال انظروا الى مهارة فرسان الهند الذين غلبهم
 رجالنا في واقعة مياني

والمحوادث الاخيرة التي حدثت في الهند اظهرت جلياً اكثر
 من كل المحوادث التاريخية همة الامة الانكليزية وتحويلها على نفسها
 ففي شهر ايار من شهر سنة ١٨٥٧ ثارت الفتنة في كل بلاد الهند
 وكانت الجبهوش الانكليزية حينئذ في معظم قلتها وكانت مشتتة
 في كل انحاء البلاد. والمجنود البنكالية عصت روساءها وانطلقت
 الى دلهي. وامتدت الثورة في كل الولايات والتي النفير في كل
 البلاد وقام جميع الاهالي على الانكليز حتى خيل لعين الرائي ان
 الدولة الانكليزية قد فقدت بلاد الهند وفقدت رجالها الذين
 فيها. وقبلما امتدت الثورة استشار ملكا راحد امراء الهند المنجيين
 فقالوا له اذا لم يبق من الاوربيين الا رجل واحد فلا بد من ان
 يتغلب علينا اخيراً. وكان في لكونو قليلون من الانكليز فمحصواهم

ونسأوهم وبقوا عدة اشهر ولا اتصال بينهم وبين الانكليز الذين في باقي الجهات وكانوا مجهلون اذا كانت البلاد باقية في حوزة دولتهم او تحررت الا انه لم يجر عزمهم ولم تضعف ثقتهم برجال بلادهم بل كانوا متاكدين انه ما دام رجل انكليزي في الهند فهو يفكر فيهم ولم ينظر على بالهم الا الثبات ولو الى آخر نسمة من حياتهم. ومن يجهل اعمال هملوك وانكلز ونيل واترام الذين قال فيهم متالبر انهم شرفوا الجنس البشري. وقد اظهر الجميع حينئذ شجاعة تفوق الوصف من قواد العساكر الى النساء والاولاد ولم يكن هولاء الناس متعجبين من بني البشر او ممتازين عنهم بل كانوا كبيرهم ممن يقع نظرنا عليهم كل يوم في الشوارع والمعامل والحقول والمزارع ولكن لما اتابتهم المصائب اظهر كل منهم من البسالة والاقدام ما يفوق التصديق قال متالبر ما من احد منهم خاف او ارتعب بل الجميع من القواد العظام حتى الاولاد الصغار دافعوا عن نفوسهم الى آخر نسمة من حياتهم. ففي مثل هذه الاحوال تظهر فائدة التربية الانكليزية التي تدعو كل انكليزي لكي يستخدم قوته وحرثته في كل حال من احوال الحياة

ويقال ان دلي اخذت والهند انفذت بواسطة مناقب الصرجون لورنس لان اسمه في الولايات الشمالية الغربية كان رمزاً للقوة ومناقبة نساوي قوة جيش جرار وما قيل فيه يقال في اخيه السر هنري لورنس وكان الجميع يحبون هذين الاخوين

محبة شديدة ويشقون بها ثقة قوية لما رأوه فيها من الشفقة والصلاح.
قال القائد ادوردس "انها طبعاً في عقول الشبان من الاخلاق
والمحامد ما فعل بهم فعل الديانة فكانها انشأ ديانة جديدة"
وكان مع السرجون لورنس متكبري ونكلصن وكثن وادوردس
وكلم من النبلاء المحاذقين الحازمين ونكلصن كان من اشجع
الناس واكلم خلقاً وخلقاً حتى لقبه الاهالي حكيماً ودعاه اللورد
دهوسي برج قوة وكانت كل اعماله من الطراز الاول لانه ما عمل
شيئاً الا انصب عليه بكيته ولذلك قام قوم من الدراويش
وعبدوه وقد قاص كثيراً منهم بسبب عبادتهم اياه الا انه لم
يتدران يردعم عنها

اما حصار دلهي والضيفة التي صارت على الجنود الانكليزية
الذين لم يكونوا اكثر من ثلاثة آلاف وسبع مئة وعدد جنود
العدو المحصور اكثر من ٧٥٠٠٠ جندي متعلم فن الامور النادرة
المثال لان هذه الحفنة من الانكليز غلبت اخيراً كل قوات الهند
وفتحت دلهي ورفعت فوقها الراية الانكليزية بعد ان هاجمتها
وارتدت عنها ثلاثين مرة. وقد اظهر كل جندي من الجنود
الانكليزية بسالة يعجز القلم عن وصفها. ولاننكر ان هذا الفصل من
تاريخ الامة الانكليزية قد كلفها كلفة باهظة ولكن اذا اعتبرنا
الفوائد الجزيلة التي سيحصدها من يطلع عليه من اولادها رأينا
ان الثمن ليس دون الثمن

وقد ذهب الى الهند اناس من امم مختلفة واظهروا همه
 واقداماً في امور اكثر نفعاً للجنس البشري من الحرب . واذا
 ذكرنا ابطال السيف وجب ان ننسى ابطال الانجيل فاننا اذا
 تتبعنا حياة هولاء الافاضل من زفير حتى مرتين ووليمس رأينا
 عدداً من الدعاة الذين فصحوا حياتهم وصوالحهم على مذبح محبة
 الجنس البشري غير منتشين عن شيء من الفخر والشرف العالميين
 وغير قاصدين سوى خلاص البشر . كيف لا وقد احتملوا كل
 نوع من المتاعب والبلايا وكانوا عرضة لكل نوع من المخاطر حتى
 الاستشهاد ومع ذلك لم يشنوا عن عزمهم ولا خارت عزائمهم . ومن
 اول هولاء الدعاة واشهرهم فرنسيس زفير الذي ولد من عائلة
 شريفة وكان محاطاً من صغره بالغنى والشرف الا انه برهن بجيانه
 وجود امور اشرف من شرف العالم وتستحق الاقتناء اكثر من كل
 مقتنياته . وكان من افضل الرجال مناقب واشجعهم قلباً والينهم
 عريكة واطام جانباً واصدقهم فعلاً واقوام جناناً وافهمهم حجة
 واكثرهم جلدًا واثبتهم عزماً . ولما بلغ الثانية والعشرين كان يعدم
 الفلسفة في مدرسة باريس الجامعة فتعرف بلوبولا وصار من اعز
 اصدقائه

ثم ان الملك يوحنا الثالث ملك البرتغال عزم على نشر
 الديانة المسيحية في الولايات الهندية الخاضعة له واختر لهذا العمل
 بوبادلاً ولكنه لم يمكنه الذهاب لسبب انحراف صحته فاختار زفير

عوضاً عنه فقام ورفاً جنته الخلقى واخذ معه كتاب الصلوات
وانطلق الى لسبون واقلع منها الى الشرق وكان ذاهباً في السفينة
التي ذهب فيها حاكم كوا ومعه كتيبة من الف جندي فعينت
لزقير قرة لينام فيها الا انه اخنار المنام على ظهر السفينة ومخدته
لغة حبال وكان يأكل مع الملاحين ويلاعهم ويمرضهم فاحبوه
واعتبروه اعتباراً عظيماً

ولما وصل الى كوا اندهش من فساد السكان من اوربيين
ووطنيين لان الاورويين جلبوا معهم كل نباح اوربا والوطنيين
لم يقتدوا بهم الا في التبع فجال في الشوارع وكان يدعو الناس
ويستعظهم ليرسلوا له اولادهم لكي يعلمهم ولم يمض الا برهة قصيرة
حتى صار عنده عدد وافر من التلامذة فعلمهم باجتهاد عظيم
وكان مواظباً على افتقاد المرضى والبرص والبئيسين من كل صف
ورتبة لكي يخفف مصائبهم ويهديهم طريق الحق ولم يسمع بانسان
مصاب الأزاره وفرج كربة بقدر امكانه وسمع مرة ان الفواصين
في منار في حالة برئى لها فمضى اليهم حالاً وكان يعلمهم ويعلمهم
بواسطة الترجمان واما تعليمه الاعظم فكان بواسطة اعمال الرحمة
التي عملها لهم . ثم طاف كل شطوط كومورن وجال في المدن
والضباع ودخل البيوت والمبائل معلماً ومبشراً وكان قد سعى
في ترجمة التعليم المسيحي وقانون الايمان والوصايا العشر والصلوة
الربانية وبعض قوانين الكنيسة فتعلم كل ذلك غيباً بلغة الاهالي

وكان يتلوه على الاولاد حتى يتعلموه هم ايضاً ثم يرسلهم لكي يتعلموه
 لوالدهم وجيرانهم. واقام ثلاثين كنيسة في راس كومرن وعين لها
 ثلاثين معلماً ومن هذه الكنائس ما كان كوخاً صغيراً على ظهره
 صليب فقط. ومن ثم انتقل الى ترائنكوروجال في قراها وهو بعد
 ويعلم حتى كملت بده وبعج صوته. واقد قال ان نجاحه فاق
 انتظاره كثيراً جداً. وكثيرون اعتنقوا الديانة المسيحية من نظرهم
 الى طهارة سيرته واستقامة اعماله

وكان يجزن كثيراً لان الحصاد كثير والفعلة قليلون ثم مضى
 الى ملقا ويابان فوجد نفسه بين اقوام يجهل لغاتهم كل الجهل
 فكان يصلي ويكي وينتقد المرضى والمصابين وكثيراً ما كان يبيل
 كم جبنه بالماء لكي يعصر منه قطرات قليلة يعمد بها المرضى قبل
 موتهم وكان منعماً من الايمان والاجتهاد راجياً كل شيء وغير
 خائف من شيء. ومن جملة ما قاله اني مستعد ان احتل كل
 نوع من الموت والعذاب لاجل خلاص نفس واحدة. وما من
 احد يقدر ان يصف مقدار الالام التي كابدها والمخاطر التي
 وقع فيها مدة احدى عشرة سنة. وفيما كان عازماً على الدخول
 الى الصين اصابته حمى شديدة في جزيرة سنكيان انتهت حياته
 السعيدة وتوجهه بتاج المجد. ولعله لم يدس دنهانا هذه رجل اشجع
 منه ولا اشرف ولا افضل

وتبع زفير مبشرون اخرون منهم شورنس وكاري ومرشمن

في الهند وكترلف ومر يصن في الصين ووليس في الاجمر الجنوبية
 وكبل ومفات ولقنستون في افريقية . اما جون وليمس الذي
 استشهد في ارومنكا فكان في صباه صانعاً عند رجل يبيع الادوات
 الحديدية وكان ماهراً في صناعة الحديد ومقرماً في تعلق
 الاجراس وفي كل عمل يبعده عن دكان معلمه . ثم حدث انه
 سمع عظة مؤثرة اثرت فيه تأثيراً عميقاً وصيرته معلماً في مدرسة من
 مدارس الاحد ثم طرق اذنيه امر التبشير في الاصناف البعيدة
 فعزم ان يخصص نفسه لهذه الخدمة وعرض نفسه على جمعية التبشير
 الانكليزية فسمح له معلمه ان يتركه قبل نهاية المدة المعينة فمضى
 الى جزائر الاوقيانوس الباسيفيكي الى هواهين في تاهيتي وديانبا
 وراروتنكا وكان يعمل بيديه في الحدادة والحراثة وبناء السفن
 واجتهد على تعليم الاهالي هذه الصنائع فيما كان يشرفهم بالديانة
 وبها هو في وسط انعابوهم عليه البرابرة في ارومنكا ويطشولو
 وما من احد احق منه بلبس الكليل الاستشهاد

اما الدكتور لقنستون فقد قص سيرته بنفسه على اسلوب
 وضيع كما هو شائئ ويين فيها ان اسلافه كانوا فقراء ولكنهم من
 ذوي الاستقامة وان واحداً منهم مشهوداً له بالحكمة والظننة دعا
 اولاده عند ما حضرته الوفاة واوصاهم قائلاً اني قد نظرت
 بالتدقيق في كل اخبار عائلتنا التي وصلت اليها فلم اجد بين كل
 اسلافنا رجلاً عديم الاستقامة فلذلك اذا سار احدكم او احد

اولادكم في طرق معوجة فلا يكون لاصل وراثي . ووصفتي الاخيرة
 لكم ان تسيروا بالاستقامة . ولما بلغ لفتنتون العاشرة من عمره
 وُضع في معمل قطن بالقرب من كلاسكو فاخذ اجرة الاسبوع
 الاول واشترى بنس منها كتاب نحو لاتينيا وعكف على درس
 هذه اللغة في مدرسة ليلية وكان يجي اكثر من نصف الليل في
 الدرس فقرأ فرجمل وهوراس وكل كتاب وصلت اليه يده الا
 النقص والروايات وكان مغرماً بقرائة الكتب العلمية والرحلات
 وعكف ايضاً على درس علم النبات مع ضيق وقته وطاف اراضي
 كثيرة ليجمع منها النباتات وكان ياخذ كتبه معه الى المعمل
 ويضع الكتاب امامه وهو آخذ في عمله فارتشف قدراً جزيلاً من
 بحر العلم والمعرفة ولما تقدم في السن قام فيوم ميل لتبشير الوثنيين
 فعزم على درس الطب لكي يصير انساب لهذا العمل ولذلك اخذ
 يتصد في نفقته حتى صار معه ما يكفي من المال فدخل مدرسة
 كلاسكو وكان يدرس في الطب واليونانية واللاهوت ويعمل
 مدة الفرس في معمل القطن ولم يتقبل مساعدة من احد بل كان
 يحصل كل ما يكفيه ويكفي لدفع مطلوب المدرسة بتعب يديه
 وان قد قال بعد ذلك بسنين عديدة انني عند ما التفت الى حياتي
 الماضية حياة التعب اشكر الله لانني حصلت ما حصلته بتعب
 واجتهادي واود ان ابديت بجهاتي جديداً على ذات المنهج الاول
 من التعب والاجتهاد اه . وبعد ان انهي دروسه في المدرسة

الطبية وكتب الرسالة اللاتينية اعطي ديلوما الطب والجراحة
 وكان من قصده حينئذ الذهاب الى الصين ولكن كانت الحرب
 منقشة في تلك البلاد فعدل عن الذهاب اليها وعرض نفسه
 على جمعية التبشير الانكليزية فارسلته الى افريقية فوصلها سنة ١٨٤٠
 ولم يكن شي لا يزعمه في ذهابه الى افريقية ويكدر صفاء عيشه الا
 ذهابه اليها على نفقة غيره لانه قال لا يلقى بشخص اعناد ان يفتح
 طريقه بيده ان يعتمد على غيره. ولما وصل الى افريقية لم يرد ان
 يبشر حينما بشر غيره بل اخبط لنفسه قسماً من البلاد لم يبشر فيه
 احد قباه وكان يبشر ويعلم ويعمل يديه كل الاعمال الممكنة من
 الفلاحة والنجارة والبناء وحفر الترع وتربية المواشي وعلم الاهالي
 هذه الصنائع ايضاً ولم يضع دقيقة من الوقت سدى. وفي ذات يوم
 سافر مع نفر من الاهالي ماشياً فسمع البعض منهم يقولون انه ليس
 قوي البنية ولكن بما انه مكيس (يريدون انه لابس البطلون)
 تظهر له مهابة وهو دوننا قوة فحرك فيه هذا الكلام النخوة الاسكتسية
 فواصل السير اياماً عديدة وهو دائماً امامهم الى ان اعياهم التعب
 وسعمهم يتعبون من استطاعته على السير. ولما ذهب الى افريقية
 اخذ معه باخرة صغيرة ولكنه لما وصل الى هناك وجدها لا توافق
 مطلوبة فارسل الى انكلترا يطلب ان تبني له سفينة بالني ليرا وكان
 قد كسب هذا المبلغ من كتب اسفاره وقصد ذخره لاولاده ولكنه
 قال حينئذ يجب على اولادي ان يهتموا بامر انفسهم

وما يشابه حياة الثنستون حياة الشهير يوحنا هورْد الذي
 دلت حياته على ان الضعف الطبيعي بقدران يزحزح جبلاً من
 المصاعب. كان كل اهتمام هذا الرجل موجهاً الى اصلاح شان
 المسجونين وقد تمكن فيه هذا الاهتمام حتى صار ملكة ولم يشو عنه
 تعب ولا خطر ولا مرض ولا امر من الامور. وكان خالياً من
 المواهب الفائقة ومعندلاً في قواه العقلية الا انه كان ذا عزيمة ثابتة
 وقلب رحب فحاز شهرة عظيمة واثراً ثابراً عظيماً في المحاكم الانكليزية
 وغير الانكليزية ولم يزل نائبره حتى يومنا هذا

ويونس هنوي رجل آخر من الرجال العظام الذين اوصلوا
 انكلترا الى ما هي عليه مجدهم ودايمهم وافلحوا في العمل الذي كان
 نصيبهم في هذه الدنيا وتركوا بعدهم ذكراً جبلاً وايادي لا تنسى
 ولد سنة ١٧١٢ في برنسموث ويتم من ابيه وهو صغير فانتقلت
 امة الى لندن لكي تعلم اولادها واجتمعت كثيراً على تربيتهم
 وتهذيبهم. ولما بلغ السابعة عشرة ارسل الى لسبون ليكون صانعاً
 عند تاجر من تجارها وبخافته وتدقيقه واستقامته اكتسب محبة
 كل من تعرف به. ثم رجع الى لندن سنة ١٧٤٢ ودخل في شركة
 تبارمركهم في بطرسبرج وتجارهم في بحر قزوين فمضى الى هناك
 ولم يلبث ان وصل حتى انطلق الى بلاد العجم ومعينه حمل عشرين
 مركبة من الاقمشة الانكليزية فوصل الى اسرخان واقلع الى
 استرباد في الجنوب الشرقي من بحر قزوين وحالماً وصل الى

الشاطي هاج عليه قوم من العصاة ومسكوا بضاعته غير انه استخلص اكثرها . ثم علم انهم كانوا قاصدين مسكته ومسك الرجال الذين معه فحذر الخطر قبل وقوه ووصل بالسلامة الى غيلان بعد ملاقاته اخطار كثيرة . ونجاة العجبة في هذه النوبة جعلته ان يقول الكلام الذي صبره دستوراً لحياته وهو "لاتأس قط" ثم رجع الى بطرسبرج واقام فيها خمس سنوات سائراً في سبيل النجاج وفي غضون ذلك مات احد انسابه وترك له ميراثاً ليس بقليل وكان هو قد كسب غنى وافراً فرجع الى وطنه سنة ١٧٥٠ قاصداً اصلاح صحوة المخرفة وعمل الخير لابناء جلدته . فصرف باقي حياته في الاعمال الخيرية . واول عمل خيرى شرع فيه اصلاح طرق لندرا فنجح في ذلك واي نجاج . ثم شاع ان الفرنسيين عازمون على غزوانكثرا . فوجه اهتمامه الى ايجاد وسيلة لتفوية رجال البحر فاستدعى مجلس شوري من التجار واصحاب السفن وتذاكر معهم بهذا الشأن وطلب منهم ان يعقدوا لجنة ما لها اعداد رجال متطوعين ليجاروا في سفن الدولة فلبوا طلبه وتألقت لجنة هي اللجنة البحرية وعين مسترهنوي مدبراً لها ولم تزل هذه اللجنة قائمة حتى يومنا هذا وقد انت بفوائد عظيمة للامة . وقبلها مضى عليها ست سنوات اعدت ١٠٢٢٨ رجلاً منهم ٥٤٥١ ليجاروا في البحر والبنية في البر

ثم خصص بقية وقته لانشاء المباني العمومية في القصة من

ذلك اصلاح شان مستشفى فوندلن الذي ابتدا في انشائه تومس
 كورام وانشأ مستشفى مكديين الا ان معظم اهتمامه كان موجهاً
 الى تربية اطفال الفقراء فان اولئك الاولاد كانوا في حالة برئ
 لها من الشفاء وكان يموت منهم عدد غير لقله الاعضاء بهم فعقد
 قلبه على هذا العمل الخطير وبحث في هذه القضية بنفسه حتى عرف
 اتساع خرقها لانه دخل مساكن الفقراء في لندن وسوادها
 ولا سيما المرضى منهم وعرف احوالهم تماماً. ثم انطلق الى فرنسا على
 طريق هولندا وزار بيوت الفقراء المتقامة لمجا لم لكي يرى ما يمكن
 اقتباسه منها في اقامة بيوت مثلها ببلاد الانكليز فنضى في ذلك
 خمس سنوات ثم عاد الى انكلترا ونشر خلاصة مجتبه في البلاد
 فكانت سبباً لاصلاح شؤون فقرائهم. وقضى حياته باسرها يغيب
 الملهوف ويعين المحتاج وينهض الدولة الى سن الشرائع التي تعود
 على الفقراء بالنفع. وكان لا يتعب ولا يمل ولا يأنف من امرها
 عدو الناس زرياً اذا كان هو متيقناً نفعه وهو اول من سار في
 شوارع لندن حاملاً مظلة ولا يخفى ما لحته بذلك من الاهانة
 لخالقنا زبي البلاد ولكنه ما انكس بجملها مدة ثلاثين سنة حتى شاع
 استعمالها كثيراً. وكان صادقاً مستقيماً ثقة لا لوم في سيرته. خدم
 الدولة في منصب ابواب الرشوة واسعة فيه ولكنه لم ياخذ شيئاً
 بل كان يرد الهدايا الى اصحابها قائلاً اني حتمت على نفسي الا
 اقبل شيئاً من مثل ذلك. ولما حضرته الوفاة تأهب لها تاهباً

للسفر فوفى كل ديونه ورتب كل اموره وودع اصدقاءه وانضم
 الى ابيه وهو في الرابعة والسبعين ولم تبلغ تركته سوى التي لبرا
 وكان قد اوصى بها لبعض الابنام والبسبين اذ لم يكن له وريث
 * وهاك مثالا آخر للنشاط في حياة كرتييل شرب الذي هو
 اول من اجهد في الغاء العبودية ثم سلم هذا العمل العظيم الى
 اناس مشاهير منهم كلركسن ووايرفورس وبكستون وبروم وهؤلاء
 الرجال من الافراد النادري المثال ولكن كرتييل اعظمهم بل
 هو فريد زمانه في المواظبة والنشاط والبسالة . وقد ابتداء في
 العمل صانعا عند رجل يبيع الاقمشة ولما انتهت مدته جعل كاتباً
 في بيت الاسلحة وهناك شرع في هذا العمل العظيم اي عنق الرقيق .
 وكان من صغره يتدب لكل عمل نافع من ذلك انه وهو صانع
 عند بائع الاقمشة كان له رقيق من الموحدين (فئة من النصارى
 تنكر التثايت) فتناظرا في بعض المواضع الدينية فادعى الموحد
 ان كرتييل بان اعنقاده في التثايت على آيات من الكتاب لا
 يفهمها لانه لا يعرف اللغة اليونانية فتأثر من هذا الكلام واخذ
 يدرس اليونانية باجتهاد شديد فلم يمضِ عليه وقت طويل حتى
 صار يعرفها معرفة كافية لفرضه . ثم حدثت مناظرة اخرى بينه
 وبين رجل يهودي من جهة تفسير النبوات فاضطر الى تعلم
 اللغة العبرانية فتعلمها

وكان له اخ طيب اسمه وليم كان يشاهد المرضى والمصابين

فاستشاره رجل افريقي مسكين اسمه يونانان استرن في مسألة
 جراحية وهذا المنكود الحظ عبد لثقيه بربدوزي كان حينئذ في
 اندرا وقد اساء معاملته حتى كاد يصيره اعمى واعرج ولما رأى انه
 اضحى عديم النفع طرده من بينو ليهلك جوعاً فاخذ يستعطي
 ليقوت نفسه مع ما يو من الادواء الى ان ساقه سعدت الى وليم
 شرب فعالجة قليلاً ثم ادخله مستشفى ماربرثماوس فبقى فيه الى
 ان شفي. ولما خرج من المستشفى عالة وليم واخوه الى ان وجد له
 عملاً عند صيدلي فبقى في خدمة الصيدلي سنتين . وحدث يوماً
 انه كان ذاهباً مع امرأة معلمه الصيدلي فمر به سيده القديم اي الفقيه
 ولما رأى انه قد ملك صحنة استدعى اثنين من الحراس وامرها ان
 يقبضا عليه عازماً ان يرسله الى الهند الغربية ففعلاً ووضعاه في
 محرس فلما رأى نفسه في هذه الحالة التعيسة تذكر كرتقبل شرب
 وما عملة معه من الاحسان فارسل اليه كتاباً يخبره بحاله ويطلب
 مساعدته اما شرب فكان قد نسيت تماماً ولذلك ارسل رسولاً
 ليخضع ويري من هو استرن هذا فانكر الحراس ان عندهم رجلاً
 بهذا الاسم ولما اخبر شرب بذلك كثرت عنده الظنون فقام
 لساعته وانطلق الى المكان الذي كان فيه العبد ولم يرجع حتى
 رآه فعرفته واوصى رئيس السجن ان لا يسلمه لاحد حتى يعرض
 امره للحاكم المدينة ثم مضى الى الحاكم وعرض له واقعة الحال
 فاستدعى الحاكم العبد واللذين مسكاه وكان سيده السابق

قد باعه حينئذ من رجل آخر فحضر هذا أيضاً وأدعى به وبها
ان الحاكم لم يكن قادراً ان يحكم بحريته ولا بعبوديته ولا كانت له
دعوى جنائية اطلقته فتبع مستر شرب ولم يجسر احد ان يدنونه
الا ان سيده استخرج امراً من الدولة بارجاعه

وكانت حرية الرعايا في ذلك الوقت اي نحو سنة ١٧٦٧
قائمة بالقول لا بالفعل لانه كان في كل المدن الكبار قوم دايم
القبض على الناس وارسالهم الى الهند خذلاً للشركة الهندية واذا
استغنت الشركة عنهم في الهند كانت ترسلهم الى المهاجر الانكليزية
في اميركا ليكونوا فيها عبيداً وكان بيع العبيد يعلن في الجرائد
بل كان يعلن حلوان من دل على عبد ابق وكانت مسئلة
الاستعباد غامضة والحكم فيها متقلبا غير ثابت وكان الراي العام
ان من دخل انكلترا تخلص من ربة العبودية الا ان اناساً
كثيرين من ذوي الشهرة والمكانة كان رايهم خلاف ذلك وهذا
كان راي النضاة الذين استغاثهم مستر شرب على عنق يونانان
استمن حتى ان رئيس النضاة اللورد منسفيد واكثر ارباب
الجلس كان رايهم ان العبد يبقي عبداً ولو دخل انكلترا وان ابق
وجب رده الى سيده شرعاً وهذا كان يجب ان يقطع آمال مستر
شرب من اطلاق سبيل يونانان ومن الانتصار للعبيد واكنه زاده
همة ونشاطاً فعزم ان يتنصر للعبيد ويدافع عن حريتهم الى آخر
نسمة من حياتهم ولذلك رأى ان لا بد له من تعلم اللغة لان الفقه

الذين التجأ اليهم لم يكونوا من رايه . ولم يكن قد فصح كتاباً فقهياً قبل ذلك فابتاع كتباً كثيرة واخذ يطالع فيها صباحاً ومساءً لانه كان يعمل النهار كله في بيت الاسلحة كما قدمنا فصار عبداً وهو يحاول تحرير العبيد . وكتب مرة الى احد اصحابه يقول له اعذرني لعدم مجاوتي كتابك في حينه لان الوقت الذي كنت املكه من الليل مأكنة لمطالعة بعض الكتب الفقهية وهي تستدعي وقتاً طويلاً واجتهاداً عظيماً

ودام على مثل ذلك سنتين كما متين وهو يطالع في كتب كثيرة ويدون كل ما يوافقه من آراء الفضاة وبنود المجلس العالي واحكامه ولم يكن له مساعد ولا مرشد بل لم يجد قاضياً واحداً من رايه الا ان نتيجة درسه كانت حسب طلبه الامر الذي انذهل منه كل المتنين . ومن جملة ما كتبه حينئذ قوله الحمد لله لانني لم ار في كل شرائع دولتنا الانكليزية ما يجيز استعباد البشر . ثم كتب نتيجة بحثه في ملخص سهل العبارة واضح الاشارة سماه بطلان اباحة العبودية في انكلترا ونسخ منه عدة نسخ بيده ووزعها على اشهر مفتي عصره فلما رأى سيد استرون من شرب ذلك حاول تاخير المرافعة ثم طلب ان يصير بينهم مرضاة بلا مرافعة فلم يقبل شرب بذلك واستمر على توزيع النسخ على الفضاة حتى ان المحامين الذين اخنارهم سيد يونانان تحولوا عن المحاماة فالتزم ان يدفع ثلاثة اضعاف المصاريف لانه لم يمكنه اثبات دعواه .

وحيث قد طبعت رسالة شرب النمار ذكرها

ونحو ذلك الوقت حدث في لندن حوادث كثيرة من
 اختطاف السودان وارسالهم للبيع في الهند الغربية اما شرب فكان
 يخلص كل من عثر عليه من هولاء المنكودي الحظ بامر الدولة
 ومن ذلك امرأة رجل افريقي اسمه هيلاس خطفها البعض
 وارسالوها الى بربادوز فانتصر لما شرب وخلصها بقوة الحكومة
 من النحاسين وردها الى انكلترا. وكان في انكلترا زنجي اسمه لويس
 ادعى به رجل وارسل اثنين فمسكاه وقيده ومضيا به الى سفينة
 مسافرة الى جمايكا فسمع البعض صراخه ومضوا واخبروا مستر
 شرب الذي كان قد اشتهر امره حينئذ بتقليص العبيد فعرض
 الدعوى للحكومة وحصل على امر باطلاق العبد ولما اخرج الامر
 كانت السفينة قد سافرت فاخرج اوامر مشددة من الحكومة
 تقضي باتباع السفينة ورد العبد فاتبعت قبل ان باينت شواطئ
 انكلترا واذا بذلك المسكين مفيد الى السارية مغتسل بدموعه
 فاطلق ورجع به الى لندن والقي القبض على النحاس فرقع دعواه
 الى رئيس القضاة منسفيلد وقد تقدم بان رايه يخالف راي شرب
 فلم يرد ان يحكم في هذه الدعوى لاسلبا ولا ايجابا ولكنه اطلق
 العبد لان النحاس لم يقدر على تقديم بينة ان العبد ملكه
 وحتى ذلك الوقت لم تكن حرية العبيد مثبتة في لندن غير
 ان شرب لم يكف عن انفاذ من مكنته الفرصة من انفاذه واخيرا

تصدرت دعوى خمس سمرست الشهيرة ويقال ان هذه الدعوى
تصدرت بتواطؤ اللورد منسفيلد ومستر شرب لكي يبت الحكم
في مسألة تحرير العبيد بناً شرعياً نهائياً . وسمرست هذا عبد جلبه
سيده معه الى لندن ثم قصد ان يرسله الى جمايكا ويبيعه فيها فقام
مستر شرب حسب عادته ومسلك دعوى العبد اما اللورد
منسفيلد فقال ان هذه الدعوى مهمة جداً فيجب ان يؤخذ فيها
راي كل القضاة . فنامت على مستر شرب جميع قوات الملكة الا
انه رأى نفسه كفتناً لهذا الامر لما عنده من ثبات العزم . ولحسن
حظ وجد كثيرين من القضاة قد غيروا رايهم وصاروا من رايه
(من قراءتهم رسالته المار ذكرها) فالنأم بمجلس قضائي من اللورد
منسفيلد وثلاثة من رؤساء القضاة وجرت المذاكرة فيه في امر
حرية الرعايا ولزومها وكيف انها لا تنفد الا لاملة شرعية توجب
النفي وبعد مباحثة دامت اياماً كثيرة خرج حكم اللورد منسفيلد
(الذي كان قد تغير رايه بواسطة رسالة شرب) ان لاشيء في
الشرائع الانكليزية يعضد العبودية او يجوزها ولذلك يجب ان
يطلق سبيل خمس سمرست . وبهذا الحكم نقضت تجارة العبيد
التي كانت جارية علانية في اسواق لندن ولقربول واثبت القول
القائل ان العبد يعتق عند ما نطأ رجلاه ارضاً انكليزية كل ذلك
باجتهاد مستر شرب وحده

ولم يكن هذا الشهم بالنور العظيم الذي حصل عليه بل

لازم اعمال البر بهمة لا يخامرها كلل ولا ملل وبهتة ناسم هجر
سراً ليهون لسكنى العبيد المعتفين وأصلح شأن هندود اميركا والتي
اجبار الناس على الخدمة المجرية لان شرباً كان يقول ان الملاحين
الانكليز حقوقهم حقوق بنية الرعايا واجتهد ايضاً في ارجاع
الصلات الحبية بين الدولة الانكليزية ومهاجرها في اميركا . وما
انتشبت حرب الحرية بين انكلترا واميركا كانت ضد رايه على
خط مستقيم ففتحني عن وظيفته في بيت الاسلحة لانه لم يطق ان
يعمل في عمل له شركة في تلك الحرب القبيحة . وبقى الى آخر نسمة
من حياته مهتماً بالغاء العبودية تماماً وبمساعده انتظمت لجنة الغاء
العبودية التي قام منها اناس متقدمون وغيره واجتهاداً وانكبوا على
تنفيذ ما ربه ولا عجب اذا فعلوا ذلك لانهم كانوا مضطربين بما
بثه في صدورهم من محبة عمل الخير ولم يساعده هولاء وحدهم بل
كل الامة الا ان رداه سنط على كلاركسن ولبرفورس وبروم
ويكستون الذين اشتغلوا في هذه المسئلة باجتهد بوازي اجتهاده
الى ان انقبت العبودية من كل السلطنة الانكليزية . وهولاء الرجال
العظام فعلوا كثيراً في الغاء العبودية الا ان مصدر كل ذلك
كرنفيل شرب الذي شرع في هذا العمل وكل رجال الملكة ضده
وقد صارهم جميعاً قضاة وروساء وتغلب عليهم بشائره واجتهاده
وصبرهم له انصاراً . والعالم كله مديون لهذا الرجل لانه نزع منه
شراً عظيماً حط شأن الانسان زماناً طويلاً وكل ما حدث بعده

هو نتيجة تعبو . فهو أول من مسك هذه الشعلة بيده واضرم بها
 بعض العقول فاستنارت وعم ضياؤها العالم اجمع
 وقبلما توفي شرب قام كلاركسن ووجه اهتمامه الى هذه المسئلة
 حتى انه اخنارها موضوعا لرسالة مدرسية (رسالة ينشها الطالب
 عند ما ينتهي من المدرسة) ثم ترجم هذه الرسالة من اللاتينية الى
 الانكليزية ونقحها وطبعها وكانت قد تالفت لجنة القاء العبودية
 فانضم اليها وضحي كل صواحو لا تمام غرضها وكان شغله جمع
 البيئات التي تعين على ابطال العبودية . وكان المحامون عن
 العبودية يدعون ان العبيد انما هم اسرى اخذوا في الحروب
 واتباعهم خبير لم من العذاب والقتل حسب عوائد بلادهم الا
 ان كلاركسن كان يعرف ان الذين ينجرون بالعبيد بصطادونهم
 صيد الوحوش غير انه لم يقدر ان يثبت ذلك بالبينه وحدث
 يوما انه التقى بصاحب له وفيما هما بموضوعان في بحر الحديث قال
 له صاحبه انه يعرف نوتيا كان عمله اقتناص العبيد الا انه لا
 يعرف اسمه ولا يقدر على وصفه ولا يعرف مفره وكل ما يعرفه من
 امره انه في احدى السفن الحربية فعزم كلاركسن ان يفتش عن
 هذا الشاب ويأتي به شاهدا فتفتد كل المراتي البحرية بنفسه
 وفتش كل السفن الحربية واخيرا وجد الشاب المذكور في آخر
 مرفأ وصل اليه وفي آخر سفينة دخلها فاتي به شاهدا على صدق
 دعواه فكان من اقوى شهادته . وبقي عدة سنين يفتش عن

شواهد وإدلة لخرى فكانت أكثر من أربع مئة رجل وسافر نحو خمسة وثلاثين ألف ميل حتى أضناه التعب وخارت قوته ولكنه لم يترك هذا الميدان حتى نبه افكار الجمهور وحرك ذوي الشهامة الى المعاضدة على الانتصار للعبيد والشفقة عليهم

وبعد معاناة مشقات كثيرة الغيت تجارة العبيد تماماً ولكن بقي امرهم من الغناء التجارة وهو الغناء العبودية نفسها وعنى العبيد وهذا أيضاً تم بواسطة نشاط الشيطيين واشهر الذين لم اليد الطولى في اتمامه فول بكستون . كان هذا الرجل في صباه مشهوراً بالعناد والمكابرة فانه يتم من ابيه وهو حدث وكانت امه امرأة فاضلة حكيمة فاجهدت كثيراً على تربيته تربية حسنة وردع اهوائه ولكنها كانت تبيح له المحكم في بعض الامور الطفيفة مرثية ان الارادة القوية صفة حميدة . وكان بعض معارفها يلومونها لانها ربت في ولدها هذه القوة فتحبهم بقولها لا بأس عليه من ذلك فان هذه الارادة سيكون منها افادة . ثم ارسلته الى المدرسة فلم يستفد منها شيئاً لطيشه وكسله ورجع الى البيت وهو في الخامسة عشرة وكان مولعاً بالصيد وركوب الخيل وفيما هو في السن الذي تبدى فيه حياة الشاب اما في الملح واما في القبيح التفتادير في بيت كرني بيت مشهور بالفضل والنهذيب . وقد شهد من فخر فيما بعد انه يعزى تقدمه في العالم الى دخوله في هذا البيت . وهو الذي ساعده على تهذيب نفسه ودخوله مدرسة دبلن الكلية وقد

افلح في تلك المدرسة افلاحاً عظيماً وكان احب شي هلد يو ان يرى
اهل ذلك البيت ان تعجبهم لم يذهب سدى . ثم تزوج بواحدة
من بناتهم ودخل عند اخواله في لندن كاتباً . والملكة التي تاسست
فيه وهو ولد ظهرت الآن في كل اعماله وسببت كل نجاحه لانه
قدر بواسطتها ان يعمل كل ما وصلت اليه يده بلا كلل ولا ملل
وكان يصب كل قوته على كل عمل اخذ فيه . وصار هذا الجبار
العظيم (وذلك لانه كان كبير المهامة) من اكثر من رجال عصره
جلداً ونشاطاً ونجح في كل اعماله لانه عملها بكل قوته . وبعد ان
بقي مدة كاتباً صار شريكاً ثم صار الممثل كانه تقريباً في يده وكان
نجاحه يزداد يوماً ف يوماً . ولم يكنف بالانقراض والغنى بل خصص
ليالية لترويض عقول بالدرس فقرأ بلاكتون ومنسكيو ومولفات
كثيرة في الفقه وجعل دستوراً لحياته وان ياتي على آخر كل كتاب
شرع فيه وان لا يحسب انه اتم قراءة كتاب ما لم يكن قد استوعبه
تماماً

ولما صار له اثنتان وثلاثون سنة من العمر صار عضواً في
البرلمنت فوجه معظم اهتمامه الى عنق العبيد في المهاجر الانكليزية
وكان يقول ان الذي وجه افكاره الى هذه المسئلة السيدة برسكلا
كرني وكانت هذه المرأة مشهورة بالفضل وجودة العقل . ولما
كانت على فراش الموت سنة ١٨٢١ استدعت مراراً كثيرة وحثت
على جعل عنق العبيد غرضه من الدنيا وهذا كان كلامها الاخير .

فلم ينسَ وصيتها قط وسَمي واحدة من بناتِها باسمها تذكّاراً لها . ولما تزوجت هذه الابنة في أوّل آب من شهر سنة ١٨٤٢ اليوم الذي صار فيه عنق العييد كتب الى صاحب له يقول الآن تركتنا برسكلاً وذهبت مع عريسها وقد تمّ كل شيء كما يجب ولم يبقَ عبد في كل المهاجر الانكليزية

ولم يكن بكستون ذا موهبة فائقة ولا من ذوي العقول الثاقبة ولكنه كان شديد العزم عالي الهمة وتظهر اخلاقه من قوله الذي يحق له ان يطبع على قلب كل شاب وهو انني ارى بالاختبار ان الفرق بين البشريين القوي منهم والضعيف بين العظيم والمحقر هو في قوة العزم حتى اذا عزم المرء على امر لا يرتد عنه الا بالغلبة او بالمنية ومن كان ذا عزم قوي امكنه ان يفعل كل ما يمكن فعله في هذا العالم ولا يمكن للمواهب واللاحوال والفرص ان تجعل الرجل رجلاً اذا لم يكن ذا عزم



الفصل التاسع

في رجال الاعمال

قال سليمان الحكيم . ارايت رجلاً مجتهداً في عمله امام الملوك يقف
 (ام ٢٢: ٢٩)
 وقال اون فلثام . من لم يتعلم صناعة ولا عملاً فهو حنبر

قد شبه هزلت رجل العمل بانسان محقر مفيد بنهر حرفته
 لا يقدر ان يجيد عنه مينة ولا يسرة وليس عليه سوى ان يسير في
 السهيل المطروق الذي سار فيه من احترف هذه الحرفة قبله .
 ولكن هذا القول على حرف بل هو عن الصحة بمزل ومع هذا لا
 ننكر انه يوجد بين اصحاب الاعمال من عقله محصور في دائرة
 ضيقة لا يجاوزها كما يوجد بين اصحاب الاقلام ورجال العلم
 والسياسة . ولكن هذا لا يعني ان بين اصحاب الاعمال اناسا كبار

الغفول يستطيعون المعاطاة في لوسع اعمال الدنيا كما قال برك
 انه يعرف رجالاً من اشهر رجال السياسة كانوا تجاراً وبيعة ،
 ولو التفتنا الى ما تستدعيه الاعمال لنجاحها من الاهلية
 والسرعة وادارة العملة والعلم بطبائع البشر وازدياد الاختبار
 وغير ذلك لرأينا جلياً ان مدرسة العمل ليست ضيقة النطاق
 بل واسعة وتقبل الاتساع الى ما شاء الله. ولقد اصاب مستر
 هلبس اذ قال ان رجال العمل الماهرين نادرون كالشعراء
 المفلتقين واندر من القديسين والشهداء المحققين الا ان من
 الجهال من يزعم انه لا يليق بذوي المواهب الفاتحة ان يتعاطوا
 الاعمال الاعتيادية. ومن برهة وجيزة انتخر شاب لانه على ما زعم
 مولود ليكون من ذوي الوجاهة وحكم عليه ان يكون سماناً فاقبث
 بعلوه هذا انه لا يستحق ان يكون شيئاً . والحرفة لا تحط شان
 الرجل بل الرجل يحط شان الحرفة . وكل الاعمال الجسدية
 والعقلية مكرمة على حدٍ سوى بشرط ان يكون ربحها جائراً .
 وقد نفوس الاصابع في الاقدار ويبقى القلب طاهراً لان النجاسة
 امر ادبي لا مادي . قال المتنبي

يهون علينا ان نصاب جسمنا ونسلم اعراض لنا وغفول
 وقال ايضاً

غشائه عيشي ان تغت كرامتي وليس بغت ان تغت المآكل
 واشهر الرجال لم يستكفوا من معاطاة الاعمال لاجل

تحصيل معيشتهم وهم يطلبون اسمي المطالب فان طالبس الملبطي
 راس الحكماء السبعة وصولون الموسس الثاني لاثينا وهيرانيس
 الرياضي كانوا من رجال الصناعة وافلاطون الحكيم كان يبيع
 الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق ما يربحه منه. وسينوزا
 حصل معيسته بصقل زجاجات المناظر لما كان آخذًا في
 امتحاناته الفلسفية. ولينيوس النباتي العظيم تتبع العلم وهو يعمل في
 المسكافة. وشكسبير راس شعراء الانكليز كان يدبر الملاعب
 ويفتخر بادارتها اكثر مما بالنظر. وقد ارتأى الشاعر بوب ان
 فصاري شكسبير في انقائه الشعر والانشاء تحصيل معيشته
 والظاهر انه لم يقصد الشهرة ولا طبع شيئًا من نظمه ولكنه كسب
 مالًا كافيًا من الملاعب حتى صار له منه دخل كافٍ فاعتزل
 حينئذ الى المدينة التي ولد فيها. ونشوس الشاعر كان في اول
 حياته عسكريًا ثم دخل بيت المكس وصار ناظرًا على الاراضي
 الاميرية. وسبنسر كان كاتب سر لنائب ارنلدا ثم صار رئيس
 حرس كرك. وملتن كان معلمًا ثم ارتقى الى رتبة كاتب سر لمجلس
 ادارة البلاد في ايام الثورة. والسر اسحق نيوتن كان في مضرب
 النقود والنقود التي ضربت ١٦٩٤ ضربت تحت مراقبته.
 ووردسورث كان يوزع اوراق البريد. وسكت كان كاتبًا وكلاهما كانا
 غاية في المحافظة على الوقت. وداود ريكردو كان ناجرًا فحصل
 على ثروة وافرة ووضع علم الاقتصاد السياسي وهو آخذ في علمه

فجاء عالماً نفيساً مبنياً على اخبار تاجر حاذق وفيلسوف نفيس
ويبلي الفلكي كان سماراً . والن الكيمياوي حائكاً

وفي وقتنا هذا اناس كثيرون يبين منهم ان اسمى القوى العقلية
حليف للعمل والتعب فان غروت المؤرخ كان صرافاً ويوحنا
سنورت مل الفيلسوف الشهير كان فاحصاً في شركة الهند الشرقية
وكان العامرون معه يعتبرونه اعتماراً عظيماً لالآرائه الفلسفية بل
لنشاطه في عمله . والنجاح في الاعمال مثل النجاح في العلوم تماماً
لا يحصل الا بالصبر والتعب والانصباب . قال قدماء اليونان
لا ينجح الانسان في عمل الا بالرغبة والدرس والمزاولة وسر النجاح
المزاولة ورب قوم ينجحون قليلاً بالصدفة ولكن نجاح الصدفة كرمح
المقامر آلة الحرايب . كان من عادة الفيلسوف باكون ان يقول
ان الاعمال كالطرق فالمعاجيل او عرها ومن طلب الراحة فعليه
بالطرق الطويلة وان اضاع فيها وقتاً طويلاً

وما قيل في خرافات اليونان عن هرقل ومشتاتو التي
عاناها قبل ان ينجح ان يصح ان يكون مثلاً لنجاح كل البشر . فليعلم
كل شاب ان سعادته وارثائه يتوقفان عليه وعلى اجتهاده لا
على مساعدة الغير له وما احسن ما كتبه المرحوم اللورد ملبرن
الى اللورد جون رسل جواباً عن كتاب توصية باحد اولاد الشاعر
جون مور . قال ايها العزيز ارى ان الافضل لنا ان نساعد موراً
نفسه لابنه لان مساعدة الشبان في غير محلها بل تضرهم اذ

تجعلهم يعتدون بذواتهم ولا يعولون عليها ويجب ان لا مخاطب
الشاب الا بقولنا اعتمد ايها الشاب في امر معاشك على نفسك
فان تكاسلت ومث جوعاً قدمك على راسك

والاعمال المبنية على مبادئ صحيحة لغايات حميدة لا بد من
ان تتج منها نتائج حميدة هنا فضلاً عن انها ترقى شان الانسان
وتصلح صفاته وتحرك همه غيره للاقتداء به. ولا يمكن ان نطعم بان
الجميع يتجوعون على حدٍ سوى ولكن كل يتجوع على قدر اجتهاده
واستغناؤه كما قال الشاعر

على قدر اهل العزم تاتي العزائم وتاتي على قدر الكرام الكرائمُ
وعلى كل لا يناسب البشر ان تكون طرفهم مسهلة اكثر من اللازم.
والافضل للانسان ان يكون مضطراً لان يعمل بالكدح ويعيش
بالنظير من ان يرى رزقه مسهلاً ميسوراً ومهداً رطباً طرياً. ومن
المؤكد ان الذين يدخلون في ميدان الحياة وزادهم قليل يكونون
اكثر رغبة من غيرهم حتى ان ذلك شرط لازم للنجاح. قيل سئل
احد القضاة بما يرتقي الناس الى منصب القضاء فقال "البعض
يرتقون بالذكاء والبعض بالشرف والبعض بالمعجزة والاكثر
بالنقر"

وحقاً ان العمل اصل نجاح العباد و عمران البلاد ولا لعنة
على الانسان اعظم من ان يتمتع بكل امانيه هنيئاً مريئاً بلا تعب
ولا كد. والامة التي ليس في افرادها ميل للعمل والكد

والاستقلال يجب حذفها من سلك الام . قبل سأل المركب
 ده سبنولا السر هوراس غير فائلاً ما مات اخوك فاجابه من
 عدم العمل فقال المركب اصبت ولعل ذلك كافٍ لان بيت كل
 جنرال منا

ومن الغريب ان الذين تخمب مساعيم ينصبون خبيتهم
 غالباً الى غيرهم وحسبنا دليلاً على ذلك ان اخذ الكتاب الف
 كتاباً من عهد قريش وعد فيه الاعمال الكثيرة التي اخذ فيها
 ولم ينحج وذكر من جملة ما ذكره انه مجهول جدول الضرب وبعد
 كلام طويل قال ان عدم نجاحه حدث من ان العصر الذي
 هو فيه عصر عبادة المال . ولرئين الشاعر الفرنسي لم ينحج
 من ذكره ازدرائه بعلم الحساب وربما لو اعتبر هذا العلم الشريف
 حق الاعتبار ما رأينا اصحابه يهتمون بجمع الاحسان له في شيوخه
 ومن الناس من يزعم انه ولد في طالع نحس فلا يمكنه ان ينحج
 في عمل ياخذ فيه . قال واحداً لو كانت صناعته عمل الطرايش
 لولد الناس بلا روس اما المثل المسكوي فيقول ان النحس جار
 الكسل . واذا دققنا النظر رأينا ان الناس الذين يشكون من
 النحس يصدون ثمر اهلهم وعدم اهتمامهم وقلة انصباهم . قال
 الدكتور جنسن الذي اتى لندن وفي جيبه دينار واحد ان كل
 شكوى الناس من الدهر بطل وظلم لانني لم ارجلأ نشيطاً مهلاً
 وكل من تخمب مساعيه لومه غالباً على نفسه . وقال وشنطون

ارفن المورخ الاميركاني الشهير "انني كثيراً ما اسمع الكليل الأوكل يتشكى من ظلم الزمان وجوره على ذوي الفضل وما تلك الأفعلة باطلة لانه ما من احد من ذوي الفضل الا وهو مفلح اذا كان من ذوي التدبير والسعي لا من الجبناء الذين يتوون في بيوتهم ويتوقعون ان يسوق القدر اليهم رزقهم. ومن الاقوال المتداولة ان الدهر يخفض الفضلاء ويرفع الجهلاء ولعل ذلك لا يخلو من الصحة لان جهلاء القوم قد يكونون من اهل النشاط والهمة. أو لا ترى ان الكلب الناجح انفع من الاسد النائم"

والنجاح في العمل يستدعي وجود الانتباه في العامل والانصباب والتدقيق والترتيب والحفاظة على الوقت. واذا نظرنا الى هذه الصفات رأيناها من اول وهلة اموراً طفيفة لكن بعد التروي نجد انها امور جوهرية لراحة البشر وتقدمهم ونجاحهم وان تكن صغيرة فالعالم مركب من الصغائر وصفات الامم مولفة من تكرار اعمال صغيرة مثل هذه. وما من شعب حط شأنه الا بسبب اهماله هذه الامور الصغيرة وامثالها وعلى كل احد واجبات ان كانت عائلية كتدبير المنزل او خارجية كاحتراف الحرف او جمهورية كسياسة الامة ولا بد في كل حال من التيام بها

وقد تقدمت امثلة كثيرة من الذين نجحوا في كل نوع من الصنائع والعلوم والفنون بواسطة انصبابهم فلا حاجة الى تكرار ذلك اما الانتباه فليس اقل من الانصباب لزوماً للنجاح. والتدقيق

صفة ضرورية وسمة من سمات حسن التهذيب ولا بد من التدقيق في الملاحظة وفي الكلام وفي اجراء الاعمال والافضل للانسان ان يعمل عملاً صغيراً بدقة من ان يعمل عشرة اضعاف ذلك العمل بغير دقة . ولكن كثيرين لا يباليون بهذه الصفة مع انهم يشعرون بالمضار الناتجة من اهاها . ومن لم يكن مدققاً في اعماله لا يؤمن عليها ولو كان اميناً ماهراً حسن التصرف لانه لا يعملها جيداً . يحكى ان تشارلس جمس فكس لما عين كاتب اسرار البلاد عيبت عليه رداة خطوه فلم يستكف ان اتى معلماً يعلمه الخط وواظب على ذلك حتى اجاد خطه . وتدقيقه في ذلك يظهر تدقيقه في الامور الكبيرة . والترتيب ضروري لانه يعين على اتمام قدر جزيل من العمل في وقت قصير اتماماً مرضياً . قال وتشرد سسل ان الترتيب في الاعمال يشبه وضع الامتعة في الصناديق فالانسان المحاذق في ذلك يضع في صندوق واحد مضاعف ما يقدر على وضعه غير المحاذق . وترتيب سسل هنا يضرب به المثل حتى انه جعل له دستوراً "ان الطريق الاخصر لاتمام الاعمال ان لا يعمل في وقت واحد الآ عمل واحد" . ولم يترك عملاً حتى اكمله تماماً . ولما كانت تشكائر عليه الاعمال كان يواصل العمل بها دائماً متعدياً على اوقات الاكل والراحة حتى ينهها . وكان دستورده وت مثل دستور سسل ابي عمل واحد في وقت واحد قال انه ما ترك عملاً وشرع في آخره الا بعد ان اكمل الاول جيداً . سئل احد

الوزراء الفرنساويين وكان ينجز اعمالاً كثيرة في وقت قصير ثم
 تجز هذا المقدر من الاعمال فقال بعدم تاخيري للغد ما يمكنني عمله
 اليوم . قال اللورد بروم ان احد الانكليز من رجال السياسة
 اخذ هذا القول وجرى على عكسها لم يعمل الا ما لا يمكن
 تاخيرهُ الى الغد . والظاهر ان كثيرين يتجهون هذا المنهج ناسين
 انه داب الكسالى الذين يتكلمون على غيرهم لتنفيذ ما هم وانما
 اعمالهم ولكن اسمع ما قال المثل ان اردت قضاء حاجتك فاقضها
 بنفسك واذا لم ترد قضاءها فوكل به غيرك . وما حك ظهرك
 مثل ظهرك

روي ان احد الاغنياء الكسالى كان له ارض دخلها خمس
 مئة ليرة في السنة فكثرت عليه الديون حتى التزم ان يبيع نصفها
 ويضمن النصف الاخر لاحد الفلاحين الشيطيين وبعد مضي مدة
 من الزمان اتى الفلاح المذكور الى صاحب الارض وساله اذا
 كان يريد ان يبيعه بقية الارض فقال له وهل تقدر ان تشتريها
 قال اقدر اذا اتفقتنا على الثمن فقال ان في ذلك عجباً فاخبرني
 لماذا لم يكن الدخل من مضاعف هذه الارض يكفيني ولم
 اكن ادفع عليها شيئاً واما انت فتدفع لي مئتي ليرة سنوياً ضامناً
 وقد صرت قادراً ان تشتري كل الارض وليس لك مدة طويلة
 فيها فاجابه ان سبب ذلك واضح جداً وهوانك تجلس في بيتك
 وتقول اذهب ولكني انا اقوم واقول تعال انت تنام في سريرك

وتصرف اموال الملك وانا اقوم صباحاً وادبر اعالي
 كتب احمد الشبان الى السيرولتر سكوت يطلب نصحه وكان
 قد دخل في منصب فكتب له الجواب بهذه الصورة احترس من
 البطالة وليكن دستورك Hoc age (افعل هذا) ولا تؤخر عملاً
 يجب عمله ولكن اوقات الراحة بعد العمل لا قبله. اذا سار جيش
 واضطربت مقدمته قليلاً حدث اضطراب عظيم في ساقته
 وهكذا الحال في الاعمال فان لم تكمل ما بيدك من العمل فمما
 قليل تزدحم عليك الاعمال فتضيق بها ذرعاً

اما المحافظة على الوقت فتظهر قيمتها من اعتبار قيمة الوقت
 قال واحد من الفلاسفة الايطاليين ان الوقت عقار كل انسان
 ولكن هذا العقار لا يتبع شيئاً ما لم يفلح ويصلح فمن عماله جنى ثمر
 انعام ومن اهمله لم يحصل منه سوى الشوك والحسك وكل المضار
 ومن فائدة المحافظة مع الوقت انها تمنع ارتكاب الشرور. قال
 المثل راس الكسلان خان الشيطان وفي عقل البليد شيطان
 مريره. ألا ترى انه اذا كان الانسان بطالاً وكانت ابواب ذهنه
 مفتوحة تجرد التجارب اليه سهيلاً وثقاظر الهواجس الى عقله ولقد
 لوحظ ان التوتية تكثر بينهم الفتن والمقاتلات عند ما يكونون
 بطالين ولذلك كان من عادة احد الريانيين انه اذا لم يبق عمل
 للملاحين امرهم بصقل المرامي

من عادة رجال الاعمال ان يسمي الوقت مالا ولكنه اكثر

من مال واستغنامة يزيد الانسان علماً وتهذيباً وشهرة. ولو مضى
 الانسان ساعة كل يوم في تهذيب نفسه بدلاً من تمضيها بالكسل
 او بامور لا طائل تحتها لصار حكماً في سنين قليلة. ومن خصص
 ربع ساعة كل يوم بتوسيع معارفه رأى لها نتيجة كبيرة في سنة واحدة.
 والتفكير الحسن والاختبار الصحيح لا يضيغان شيئاً من وقتنا بل
 يمكننا ان نصعبها معنا في كل اعمالنا ولا نخسر عليها شيئاً.
 والواسطة الفضلى لجعل الوقت كافياً للعمل والراحة هي انجاز
 الاعمال في اوقاتها والأترامت على الانسان وليكنه وصار عملها
 كلها فوق طاقتهم. ومن الناس من لا يعتبر قيمة الوقت حتى
 يفوت كما ان منهم من لا يعتبر قيمة المال حتى ينفد فاذا اعتاد
 الانسان على البطالة تملك في هذه الخلة حتى اذا اراد النهوض
 للعمل رأى نفسه مقيداً بسلاسل الكسل التي اربط بها بارادته.
 من يخسر ما لا يستردّه بالاجتهاد ومن يخسر علماً يستردّه بالدرس
 ومن يخسر صحة يستردّها بالدواء واما من يخسر وقتاً فلا يقدر ان
 يستردّه بواسطة من الوسائط

واعتبار الوقت يعين على المحافظة عليه قال الملك لويس
 الرابع عشر "المحافظة على الوقت من كالات الملوك" وهي ايضاً
 من واجبات الاشراف وضروريات الصناع ولا شيء يقوي ثقتنا
 بانسان مثل وجود هذه الصفة فيه ولا شيء يقال ثقتنا به مثل اها لة
 اياها فن انجز كل شيء في وقته ظهر انه معتبر وقته ووقت غيره

ومن ارتبط بعمل ولم يأخذ فيه كل يوم في الوقت المَوْجَلُ عَدَّ مَخْلَعًا
العهد حائثًا بل كاذبًا بل مجرمًا . ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم
بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على اعمال ذات طائل . حكي ان كاتب
اسرار وسنطون تأخر يوماً عن الهجاء اليه في الوقت الميعين والقي
اللوم على ساعده فقال له وسنطون ابدل ساعتك باخرى والآ
بدلتك بأخر

والذين يتأخرون عن عمل كل شيء في وقتهم يذهبون الى
السفينة بعد ان تسافر ويكتبون مكاتيبهم بعد ان يسير البريد
فتكون كل اعمالهم في ارتباك واضطراب دائمين . والاخبار يرينا
ان الذين لا يحافظون على الوقت لا يصلون الى النجاح بل يطرحهم
العالم وراء ظهره ليرثوا نصيب الكسالى البطالين الذين داهم
التدمر من صرف الدهر

وعلى رجال العمل ان يكونوا سريعى الخاطر ايضاً في اجراء
مقاصدهم شديدي الثبات في اتمامها . وسرعة المخاطر والثبات
ضروريان جداً وهما وان كانا بالطبع لا بالوضع فالاخبار
والملاحظة يقويانها ومن قامنا فيه برى من اول وهلة منهج العمل
الذي يقصد الاخذ فيه حتى اذا كان ذا عزم جرى في عمله وبلغ
منه امانته . وهاتان الصفتان اعني سرعة المخاطر والثبات
ضروريان جداً لكل احدٍ ولا سيما للذين عليهم ادارة الاعمال
الكبيرة مثل قيادة الجيوش لانه لا يكفي ان يكون القائد بطلاً

متفككا بل يجب ان يكون من اهل العمل نبيا خيرا باحوال
البشر واخلاقهم قادرا على تنظيم عدد وافر من الرجال على ان
يطعمهم ويكسومهم ويدبر امر منامهم وقيامهم ورحيلهم وتزولم وصنهم
في الحرب والاعثناء بالجرحى منهم الى غير ذلك . والمرح انه ليس
بين قواد الارض من هو اشهر من نبوليون ولنتون . فنبوليون
كان يجب تفصيل الامور محبة فائقة وكان قوي التصور متدبرا
للأمور وناظرا في عواقبها نظر الخبير الحازم وكان غابة في الزكامة
والفراسة ينظر الى الرجل فيعرف اطواره ولذلك فلما اخطأ في
اختيار رجاله ولكنه لم يعتمد عليهم كثيرا في المسائل الكبيرة
ذات القدر ومن اراد الاطلاع على اطوار هذا الرجل العظيم
بالتفصيل فعليه براسلات نبوليون المطبوعة في باريس بامر
نبوليون الثالث وبالجلد الخامس عشر منها المتضمن مكاتيبه التي
كتبها وهو في حدود بولونيا سنة ١٨٠٧ بعد غلبة ايلو . كان
نبوليون بونايرت في ذلك الوقت نازلا على نهر بسرج والروسيون
امامه والنمساويون عن يمينه والبروسيانيون ورائه وكان عليه ان
ينراسل مع فرنسا في امور مهمة جدا وهو في بلاد العدو ولكنه كان
قد سبق فدبر امر ذلك فواصل الرسائل ولم يفقد له كتاب
واحد وكان يلتفت دائما التفاتا لا يفوقه التفات الى حركات
العساكر وطلب النجدة من اقاصي فرنسا واسبانيا واطاليا
وجرمانيا وفتح الخيلان وتهدد الطرق لجلب المؤونة من بولونيا

وبروسيا وكانت اوامره تصدر لجلب الخيل وعمل السروج
والاحذية واستحضار المؤونة الكافية من الخبز والمشروبات معيناً
انواعها ومقاديرها . وفي الوقت نفسه كان يكتب الى باريس
في شان ترتيب مدرستها الكلية وسن شرائع التعليم العمومي
ويكاتب جريدة المونيتور ويراجع تقارير وكلاء المال ويرشد
العاملين في التويلري وفي كنيسة المدلين ويرد على جرنالات
بروسيا ويندد بهدام ده ستيل ويسعى لازالة النزاع من الملعب
الكبير ويكاتب سلطان الاتراك وشاه العجم الى غير ذلك من
الاشغال الكثيرة فكان جسده في فنكستن وعقله يشغل في اكثر
من مئة مكان في باريس ولوربا وفي كل العالم وكان يهتم بالكبائر
والصفائر على حدٍ سوى فانك تراه يكتب الى ناي يسالة اذا
كانت البنادق وصلت اليه في حينها والى البرنس جيوم برشده
في امر القمصان والجبب والاحذية والشواكي (١) والاسلحة التي
يريد ارسالها الى كاتشب ورنبرج والى كبسره ليرسل حنطة كافية
للجنود بكل سرعة فائلاة ان ان ولكن لا محل لها في ذلك الوقت
والى باروان الجنود في احنباچ الى القمصان والى دوك برج
العظيم فائلاً ان الجنود تحتاج سيوفاً فارسل من يجلبها من بوزن
وخوداً فمر ان تصنع في اهلن الى ان قال ولا يمكن ان تتم عملاً
ونحن نيام . وقد فعل كل ذلك في وقت واحد ولم يترك امراً

(١) جمع شاكوكية تلبسها جنود الفرنج

صغيراً كان او كبيراً الا اعطاه حقه الواجب من التروي والاجراء
وكان يقضى اكثر اوقاته في افتقار احوال جيوشه فيضطر احياناً
ان يسير ثلاثين او اربعين غلوة في اليوم راكباً ومع ذلك لم يهمل
شيئاً من مهام السلطنة بل كان يشتغل اكثر لياليه بمراجعة
الحسابات وتعديل الدخل والمخرج وكتابة الاوامر وسن الشرائع
وتدبير بقية احوال السلطنة التي كان مركز دولابها في راسه
ودبوك ولتون يعدُّ من رتبة بونا برت في الاقدام على الاعمال
الكثيرة . ومن المعلوم ان هذا الدبوك انتصر في كل حروبه بلا
استثناء وقد نسب البعض ذلك الى طاقته على العمل . فانه لما
كان جندياً لم يكن بالقدم البطيء الذي كان يقدمه فاتقل
من المشاة الى الفرسان ولكن بدون تقدم فطلب من اللورد كيدن
الذي كان حينئذ حاكماً على ايرلندا ان يستخدمه في الخزينة ولو
استخدمه فيها لافلح وصار رئيس العمل ولكنه لم يستخدمه والا لما
صار اعظم قواد الانكليز . واول ما انتظم في الجند كان في جيش
دبوك برك والجنرال ولمودن في هوللندا والفلنك فتعلم في وسط
البلايا الكثيرة التي امت بذلك الجيش ان سوء القيادة يفسد
آداب الجند ولما صار له عشر سنوات متعديداً صار كرنالاً في الهند
وكان ممدوحاً من رؤساء الجيش الذين كانوا يقولون انه غاية في
الاقدام والانصياب ثم اخذ ينظر في اسرار عمله واجتهد في ترقية
شأن رجاله الى اسى الدرجات حتى ان الجنرال هرّس كتب سنة

١٧٩٩ ان كتيبة الكرنال ولسلي (ولسلي اسم ديوك ولتنن) قدوة
لبقية الكتائب في النظام والترتيب والتدريب والانقياد حتى ان
القلم قاصر عن القيام بمدحه ومدحها . فاعد نفسه لمناصب
اسمي ولم يرض عليه الا برهة بسيرة حتى عين حاكماً لقضية مهسور .
ثم لما انتشبت حرب المهرنات جعل جنرالاً وله من العمر اربع
وثلاثون سنة وانتصر في واقعة اساي الشهيرة ولم يكن معه سوى
١٥٠٠ عسكري من الانكليز و ٥٠٠٠ من الهنود وجيوش المهرنات
مولف من عشرين الف راجل وثلاثين الف فارس ولكن ما كان
هذا الفوز العظيم ليجله على العجب والخيلاء . ثم حدث ما اظهر
حكيمته وانصافه وذلك انه ولي بعيد الغلبة اماره ولاية ذات اهمية
وكان غرضه الاول تنظيم رجاله الذين اخذوا يتورطون في
السكر والخلاعة بعد الظفر كما هو شان الجنود قتل المذنبين منهم
فرجع النظام الى الجيش كله ومن نظر الى هذا العمل راه في بادئ
الامر قساوة بربرية الا انه اذا ترواه راه خيراً عظيماً للجنود كفاهم
شر الانكسار مراراً عديدة والقتل انفي للقتل . ثم وجه اهتمامه الى
فتح الاسواق وارجاع دولاب الاعمال لكي يتناع مؤونة كافية
للجيش باثمان مناسبة ففتح واي نجاج . وما يستحق الالفات انه
كان يمكنه وهو في ميدان الحرب وحومة الوغى ان يجمع افكاره
ويوجهها الى كل امر اراده

وسنة ١٨٠٨ عقد له على عشرة آلاف جندي معدة لتحرير

البرتوغال فمضى اليها وحارب العدو وانتصر في واقعتين عظمتين
وامضى معاهدة سنترام. ثم عقد له على جيش آخر بعد وفاة السر
جون مور ولكنه كان في كل مدة بقائوه في اسبانيا في مركز خطر
لقلة جيشه في جنب جيش العدو فان جيشه لم يزد على الثلاثين
الفا وجيوش العدو تزيد على ثلاث مئة ونخصين الف جندي
فرنساوي ممن هتكهم الحروب المتواصلة وقوادهم من افضل
قواد نبوليون الا انه سلك مهنجا بخلاف المصلح الذي سلكته جنود
اسبانيا اي انه كف عن ملاقاته جنود فرنسا في السهول وارتد
الى البرتوغال وظلم جنودا من البرتوغاليين واقام عليهم روساء من
الانكليز وترك الحرب مدة من الزمان لكي يضعف حماسة الجيوش
الفرنساوية التي لا تقيم الا عند الانتصار عازما ان يقع عليها عند
ما يرى جيوشه مستعدة وهي (اي الجيوش الفرنسية) متكاسلة
من جرى البطالة ومتوغلة في الشرور والفتائح. ومن تبع الوسائل
التي استعملها ولتتوون في حروب اسبانيا ونال بها الظفر رأى مفقد
الحكمة المذخرة في راس ذلك الرجل العظيم. كيف لا وقد كان
محاطا بصعوبات لا تصدق واكثرها ناتج من التناق والمين وسوء
التدبير وغير ذلك من الشرور التي كانت رائجة حينئذ في الحكومة
الانكليزية ومن جبانة الشعب الذي مضى لانفاذه وبلاد تو وعجيو
حتى يمكن ان نقول انه اقام بحروب اسبانيا بنفسه وبشبات عزيم
الذي لم يفارقه قط. ولم يكن عليه ان يجارب ابطال فرنسا فقط

بل ان يقاوم مجالس اسبانيا والبرتوغال وكان اصعب شيء عليه
 تحصيل القوت والكسوة لجنوده . وما يستحق الذكر ان جنود
 اسبانيا التي هربت في واقعة تلاؤرا حركت على اممعة عساكر الانكليز
 ونهبها والديوك مع العدو في ساحة التزال فاحتمل هذه البلية
 وغيرها بصبر ووجد عجيبين . ولما رأى انه لم يعد الطعام ياتيه من
 انكلترا ولا يرجي اتيانه منها اخذ يهجر بالمحطة وعقد معاهدات مع
 كثيرين من التجار في لسبون وغيرها وكانت السفن تجلب له
 المحطنة من اساكل بحر الروم وجنوبي اميركا فملا مخازنه وباع ما
 فاض للبرتوغاليين الذين كانوا حينئذ في احتياج شديد للمحطة
 فاعد كل شيء واهتم بكل شيء ولم يتكل على الصدق . وكان
 يهتم بالاشياء الطييفة ايضا كالاخذية والقدر والعليق ونحو
 ذلك وتغلب على اسبانيا بحسن ادارته التي بها جعل رعا
 الناس من افضل جمود اوربا تعلما وهديا وكان مستعدا ان يلقي
 بهم اقوى جيوش الارض

قد اشرنا سابقا الى صفة عجيبة فيه وهي قدرته على سلخ افكاره
 عن الامور التي في يده منها كانت مهمة وتوجبها الى امور بعيدة عنها
 كل البعد ومن ذلك ما حكاه نبيرو هو انه بينما كان آخذا في
 الاستعداد لواقعة سالنتكا كان يكتب الى الوزراء في لندن
 مبرهنا علم فائدة الاعتماد على القرض . وحينما كان في ساحة
 القتال على اعالي سان كريستوفال اثبت عدم امكان انشاء

بنك برتوغالي. ولما كان محاصرًا في حواجر برغس حل مذهب
فنكل في المالية واطهر جهل من ارتأى بيع اوقاف الكنائس .
والمخالصة انه اظهر نفسه عارفاً بمخافتى هذه الامور مثل معرفته
باحوال الحرب

وما يظهر كونه من رجال العمل المستقيمين امامته العظيمة
وشرف نفسه فان القائد سلّت الفرنساوي نهب من اسبانيا صوراً
عديدة ثمينة جداً اما هو فلم ياخذ من اسبانيا ما قيمته فلس واحد
وحيثما سار سار على نفقته حتى في ارض العدو . ولما اجناز تخوم
فرنسا تبعه اربعون الف اسبانيولي قاصدين الغنيمة فوبخ روساهم
ثم لما قنط من اصلاحهم ردهم الى بلادهم . وما يستحق العجب ان
فلاحى فرنسا كانوا يهربون من وجه جنود بلادهم ويجامون امتعتهم
وياتون بجمون عند جنود الانكليز . وفي ذلك الوقت نفسه
كتب وانتون الى انكلترا يقول قد تراكمت علينا الديون من كل
ناحية ولا اجسر على الخروج من بيتي لان عدداً وافراً من المداينين
يتظرونني خارجاً طالين وفاء ما لم علي . قال يوليوس مرل
” ان هذا البطل قد خاف من مداينيه وهو يقود عسكرياً جراراً
في بلادهم فلا شيء اعجب من ذلك ولا اشرف منه . وهذا الخوف
لم يخامر قلب منتصر قط“ اما هو فلم يفعل ذلك طمعاً بتقليد
ذكرة واكتساب المدح بل حسب ان وفاء ديونه في ميقاتها من
افعل الوسائل لاجراء مقاصده

ومن الامور الجوهرية لنجاح رجال الاعمال الامانة وهي لازمة
 للصانع لزوم الشجاعة للبندى والمهبة للمسيحي ولا ينجح صانع غير
 امين وكل الصانع مما اختلف صنائهم لم باب واسع لظهار
 امانتهم. قبل ان رجلاً صناعته استخرج البيرة كان يجول في معمله
 ويدوق البيرة وهي تُعمل فيقول للصانع زيدوا خبيرها لئلا تخرج
 ضعيفة فاشتهرت بيرته بجودتها في بلدان كثيرة فربح ارباحاً
 وافرة وصار من الاغنياء العظام. وقال هيو ملر عن البناء الذي
 تعلم هو منه صناعة البناء انه كان يوقف امانته امامه كلما بنى حجراً
 ومن سار بالامانة اشتهر اسمه كعرف طيب وراجت بضائعه وافلح
 واثرى. قال البارون دوين لما اراد ان يثبت ان امانة الشعب
 الانكليزي سبب نجاحه "لربما ينجح بالغش والمخلاع ولكن نجاحنا
 يكون قصير الاقامة واما اذا علمنا بامانة نجحنا نجاحاً ثابتاً. وحكمة
 التاجر واقتصاده وامانه اقدر على النجاح من نشاطه وحذاقته
 واقدامه وحسن بضائعه ولو فقد تجارنا وصناعنا الاوصاف الاولى
 لكسدت بضائعتنا في كل الدنيا وازدت سفائتنا عن مواهبها
 بالخسارة والمخذلان

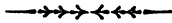
ومن المعلوم ان التجارة امتحاناً لامانة الانسان وانكاره ذاته
 واستنائه وصدقهِ والذين يخرجون من بونقة هذا الامتحان ولا
 غش فهم يستحقون اكراماً نظير اكرام الجنود الذين اثبتوا بسالتهم
 امام افواه المدافع. ويحق للشعب الانكليزي ان يفخر بان اكثر

رجالو الذين يمتنعون هذا الامتحان يثبت انهم خالصون كيف لا
واكثرهم يؤمنون على اموال وافرة وهم لا يملكون الا قسماً صغيراً
منها والنقود التي تمر في ايديهم يومياً تفوق الاحصاء وقل من
يغلس منها شيئاً. الامانة اشرف الاخلاق اذا لم يرافنها العجب .
واركان الناس بعضهم الى بعض الذي نراه كل يوم في اسواقنا
هو عجب اعماله ولو لم تكن قد اعتدنا عليه لحسبناه من الخوارق .
قال الدكتور تشلرس ان اركان التجار الى عملائهم واتقانهم ايام
على مبالغ كبيرة من المال وهم لم يعرفوهم ولا دخلوا بلادهم افضل
نوع من الاعتبار بل يقرب من الاعتبار الديني . ولكن لا تخلو
قاعدة من شذوذ لان من الناس من يتفاده طمعه وخبائته الى
تليس البطل بالحق وارتكاب الغش والخداع بغش بضاعة
باخرى ويجعل وجه البضاعة من نوع وباطنها من نوع آخر الى
غير ذلك من ضرور الغش التي تزيد بازدياد العمران . ولكن
الذين يفعلون ذلك لا يؤمل نجاحهم وان نجحوا وكسبوا شيئاً من
المال فكثيراً ما لا يتمتعون به وعلى كل يكون اسمهم مردولاً مهاناً
اما الامناه فقد لا يتقدمون في اول امرهم كالتخادعيين ولكن
نندمهم يكون ثابتاً وان كان بطيئاً ولا بد من ان يربحوا كثيراً في
الآخر وان لم يكن ربحهم الا الاسم الطيب فيه الكفاية لان الاسم
ثروة ومجلبة للفنى والشرف قال الشاعر وردسورث الانكليزي
وانما رجل الدنيا الذي شهدت له التجارب ان الصدق شيمته

يغار للفق لا قسراً ولا طمعاً بثروته او بمجاه فيه رغبته
 لكما المال والمجاه اختصاصها بالمخازن الذهب ان صخر طوبته
 وليس بين التجار على ما نظن من هواشهر من داود بركلي
 الذي يضرب المثل بصدقه واستقامته وهو تاجر بقي بغير زمانا
 طويلاً بين انكلترا واميركا ولما انتشبت الحرب بين الانكليز
 والاميركانيين ساءه امرها كثيراً فعزم على ترك التجارة مطلقاً .
 وقد اشتهر وهو تاجر بالذكاء والخبرة كما اشتهر بعد ان ترك التجارة
 بالشهامة وعمل الخير وكان مثلاً للصدق والامانة وسدادة الراي
 حتى ان الوزراء كانوا يستشيرونه في المسائل الكبيرة . ثم لما اعتزل
 عن التجارة لم يجتر عيشة الكسل والترف بل عيشة العمل والتعب
 في خير الجمهور فاقام داراً للصناعة اتفق عليها النفقات الوافرة
 فجاءت ملجأ للفقراء ومرفية لشؤونهم . ثم ابتاع ارضاً في جاميكا وعنى
 عبيدها وثنهم عشرة آلاف ليرا انكليزية وارسل لهم سفينة نقلهم
 الى ولاية من ولايات اميركا فظنوا فيها ونجحوا نجاحاً عظيماً رغماً
 عن الذين حاولوا اقناعه ان العبيد اجمل من ان يستاهلوا العتق .
 وعوضاً عن ان يترك امواله ليقتسمها وراثته بعد موته مدهم بها في
 حياته . ولم يمض حتى رأى كثيرين منهم راقين قم النجاح . ولم يزل
 حتى يومنا هذا رجال اغنياء في انكلترا مصدر نعمتهم روبرت
 بركلي . فرجل مثل هذا يجنى للتجار والصناع ان ينفقوا به ويتخذوه
 مثلاً لهم

الفصل العاشر

في استعمال المال



قال الشاعر برنس ما ترجمته
وما المال للاخفاء في طي حفرة ولا للتباهي بالمواكب والعليا
ولكن ليغني المرء عن مال غيره وهنا قصارى المحر في دارنا الدنيا
وقال شكسبير ما معناه
لا استدين ولا ادين فانما الدين طريق للخراب
وقال السر بلورنتون اياك واحتقار المال لان المال كالصيت



اكتساب المال وحسن القيام به وانفاقه تستدعي حكمة وافرة
ولا يليق باحد ان يزدرى بالمال كما يفعل كثيرون من المدعين
الفلسفة ولا يحسن ايضاً ان يعتبره كعائتو العظمى . والمال اصل
لكثير من الفضائل والرذائل فيه الكرم والامانة والاستقامة
والاحسان والاقتصاد والتدبير وبه ايضاً الطمع والبخل والرشوة

ومحبة الذات والاسراف وما احسن ما قاله الحريري في مدح
الدينار وذم

وكل الناس جديرون بنوال الراحة في هذه الدنيا بشرط
ان يستعملوا لذلك وسائل جائزة لانهم اذا نالوا راحتهم المادية
تمكوا من اصلاح شأنهم الادبي والقيام بواجباتهم العائلية الا ترى
ان الرسول قال ان من لا يعتني باهل بيته شر من غير المؤمن .
وما يستحق الالتفات ايضاً انه يتدار ما يستفيد الانسان من فرصه
ووسائله يزداد اعتباره في عيون الناس . ومن سار واضعاً نصب
عيني اجزاء الفائدة من كل فرصة تقوّت قواه العقلية وازدادت
ثقتة بنفسه وتعويله عليها وتمكنت فيه افضل الصفات المعدة للنجاح
كالاجتهاد والصبر والمواظبة وما اشبه . ومن كان عليه ان
يهمّ بغيره ويدخر لمستقبله بصر حريصاً مقتصداً منكراً على النفس
لذاتها . قال جون سترلسن علم ردي يعلم انكار الذات خير من
علم جيد يعلم كل شيء الا انكار الذات . ومثله انكار الذات من
القوى الادبية منزلة الشجاعة من القوى الجسدية ونريد بانكار
الذات تضيحة اللذة المحاضرة لاجل نوال الخير المنبئ

على الناس الذين يعملون الاعمال الشاقة ان يعتبروا الدراهم
البسيرة التي يربحونها ولكنهم بشرهم في المعيشة يصرفون حالاً
ما يصل الى يدهم فيمسون في غاية العوز والاحتياج ومنهم من دخله
يكفي لثقتة ويزيد عليها اذا تدبره جيداً ولكنه يتوغل في الاسراف

غير ناظر الى المستقبل فاذا حدث ضيق او انقطع عملة امسى في
اسوأ حال. قيل تشكى بعضهم الى اللورد يوحنا روسل من الجزية
التي وضعتها الدولة على الفعلة فقال لئله اللورد يا هذا ان الدولة
لا تأخذ من الفعلة ربع ما تأخذ منهم المسكرات . واصلاح شان
الفقراء مسألة معضلة لم يهتد الناس الى وجهها حتى الآن . ولكنهم
مجمعون على ان علاجها تعليم الفقراء الاقتصاد والتدبير . قال
صموئيل درو النيسوف الاسكاف "الفطنة والاقتصاد والتدبير
من خير مصلمات الاحوال وهي تشغل حيناً صغيراً من المتزل
ولكنها افعل من كل لاشحات الاصلاح . ولا اصلاح الا اذا اصح
كل امرء نفسه وهذا يخالف اميال البشر لانهم اميل الى اصلاح
غيرهم من اصلاح نفوسهم" وكل من لا تلبث الدراهم ان تصل
الى يده حتى ينفقها بظل في الذل عرضة لصروف الزمان . قال
مستر كبدن "الناس رجلان مقتصد ومسررف اي موسر ومسررف
فالبيوت العظيمة والمعامل الوسيعة والسفن الكبيرة والتصور
الشاهقة عملها المقتصد الموسر على كنف المسرف المعسر هذه هي
شريعة طبيعية وكل من يعد الناس بالتقدم بواسطة الاسراف
والكسل فهو كذاب خداع" . وبماثل ذلك ما قاله مستر برينت
وهو "ليس الا شليل واحد لبقاء الانسان في الحالة التي هي
فيها اذا كانت حسنة ولا نقتاتو الى احسن منها اذا كانت رديئة
وهو ممارسة الاجتهاد والاقتصاد والنزاهة والاستقامة هذا هو

السبيل الوحيد للتقدم وهذه هي الوساطة التي يتقدم الناس بها على
 الدوام. وما من مانع يمنع الفناء عن الجري بحسب ذلك
 وبالنتيجة عن الارتقاء الى اسي المراتب وقد ارتقى بعضهم اليها وما
 كان ممكناً للبعض فهو ممكن لكل لان الاسباب الواحدة نتائجها
 واحدة. ولا بد من قوم يعيشون بتعهم لان ذلك ضروري للهيئة
 الاجتماعية وهو ترتيب الهي ولكن بقاءهم في الجهل والاحتياج الى
 الغير ناتج من ضعفهم وطمعهم واعطائهم النفس هواها ولا سيما لان
 افتقارهم للكبح من الاسباب القوية التي يجب ان تربي فيهم قوة
 التعويل على النفس التي تشكل بمساواتهم مع من هم ارقى منهم
 شأنًا. قال متانیه "كل انسان حقيق بالجري بموجب قواعد
 الفلسفة الادبية لانه حار كل شروط الانسانية" وعلى العاقل ان
 يستعد للقائه ثلاثة. العطلة والمرض والموت اما الاولان ففي طاقته
 تجنبها وليس كذلك الثالث ولكنه على كل حال يجب ان يعيش
 عيشة تمكنه من مقابلة كل امر من هذه الامور الثلاثة حتى يجلي
 مرارته ما امكن سواء كانت نتيجة عائدة عليه فقط او على عائلته
 معه وبناء على ذلك يكون اكتساب المال بالحق وانفاقه بالنصد
 من اهم الامور لان الاول عنوان الاجتهاد والاستقامة والثاني
 عنوان سدادة الراي والنظر في العواقب وما المال لسد الحاجات
 من اكل وكسوة فقط بل هو اساس عزة النفس والاستقلال.
 والمال المذخور لطوارق الدهر حصن يمنع بليغا اليه عند الحاجة

فيسد الاحنباج ويزيل الم الى ان تنقضي ايام الشدة وتفتح ابواب
 الفرج وما احسن ما قاله احمية بن الجلاح
 كل النداء اذا ناديتُ بخذني
 الا نادائي اذا ناديتُ يا مالي

ومن كان غرضه ارتقاء المعالي وشركته ذيل الاجتهاد تعلت
 همة ونقوت عزيمته فيذل له الدهر وتهد امامه المصاعب . واما
 من كان دائماً على حافة الناقاة فهو عبد وقيدُه يده مستخدميه
 يشترطون عليه ما شاءوا فيروثه اطوع من مطية الركاب . واذا
 نزلت به طوارق الايام اضطر الى التسول او الموت جوعاً والموت
 خيراً من سوال بخيل . واذا انتطح عملة من مكان لا يمكنه الرحيل
 الى مكان آخر لان ليس بيده ما يقوم بنفقة سفره فيتربص في
 مكانه كرهاً معجزاً غصص الهوان

ومن اراد ان يكون غير مفتقر الى غيره ما عليه سوى
 الاقتصاد والتقدير . وليس الاقتصاد امراً صعباً ولا يقتضي قوى
 خارقة ولا عفولاً ثاقبة بل هو في طائفة كل انسان (١) وقد اثبت

(١) الاقتصاد لغة التوسط بين الاسراف والتفريط قال الاصمعي سمعت
 بعض العرب يقول من اقتصد في الغنى والفقير فقد استعد لنواب الدهر
 ويقال اقتصد في انفاق الدرهم فانها لجراح الناقاة مرام وقال بعضهم
 انفق بمقدار ما استندت ولا تسرف وعش وعيش متصد
 من كان فيها استفاد متصد لم يفتقر بعدها الى احد

السيد للمسح وجوب الاقتصاد يقولو لتلاميذه اجعلوا الكسر
 للفاصلة لكي لا يضيع شيء بعد ان بين قدوة على كل شيء ولم
 بين اهتمامه بتلك الكسر الطفيفة الا ليعلم الشعب وجوب الاعتناء
 بكل شيء

و يدخل تحت مفهوم الاقتصاد ترك اللذة الوقتية لاجل
 احراز الخير المقبل الامر الذي يتناز به عقل الانسان عن غريزة
 الحيوان الاعجم. وبين الاقتصاد والتقدير بون شاسع لان المتقصد
 مستعد دائما للكرم ولا يحسب المال معبودا بل آلة لفناء
 اغراضه. ولقد اصاب درين سوفت اذ قال يجب ان نعمل الدراهم
 في روثوسنا لانني قلوبنا موبكنا ان نعد الاقتصاد ابنا للحكمة واخا
 للتراهة و ابا للحرية وحافظا للصيت والراحة للعائلة والنجاح الاهلي
 وعنوانا للتحويل على الذات. (قال شيبب بن شبة لبنيه ان
 كنتم تحبون المروة والفتوة فاصححوا اموالكم). وقال ابو
 فرنسيس هونر لابنه عند اول دخوله في العالم اني اود من كل
 قلبي ان اراك متنعاً بالراحة والرفاهية ولكن لا يمكني الا ان
 احضك على الاقتصاد وان احتره بعض سخفاء العنول لانه
 يقود الى الاكتفاء والاكتفاء غاية كل شهم عزيز النفس. والافضل
 لمن قصد التوفير (جمع الثروة) ان يتوقع نجاحه من التقدير لا
 من الرجح الكثير كما قال اللورد باكون لان الفلوس البسيرة التي
 نصرها يوماً لغير فائدة قد تصير ثروة وافرة نعتين من الاحتياج.

والمسرفون اعداء للداد لنفوسهم ومن لم يكن لنفسه صديقاً فكيف
 ينتظر صداقة الغير. والمقدرون لهم دائماً ما يساعدون به غيرهم
 واما المسرفون فلا. على ان التقدير اخو الاسراف والكرم افضل
 المناقب ومرقاة الفلاح ولا حاجة لتعداد الشواهد على ذلك لانها
 اكثر من ان تعد

— وعلى كل انسان ان يجتهد لكي يعيش على قدر دخله ولا
 يمكن ان يكون مستقيماً الا اذا فعل ذلك لان من لا يقصر نفقته
 على دخله فهو عاتش من دخل غيره ولا يخفى ما بذلك من مخالفة
 الذمة والدين. ومن كانت هذه الحال حالة لا يلبث طويلاً حتى
 يرى لزوم المال ولكن عند ما يكون قد فات الوقت فياخذ
 يستدين ويستعير بعد ان يكون قد بذر ماله فيغرق في بحر من
 الدين لا خلاص له منه ويفقد صيته وحرثه ومروته. قال
 المثل "العدل الفارغ لا يستقيم" وهذا حال المديون. ويصعب
 على المديون ان يتكلم بالصدق لذلك يقال ان الكذب راكب
 على متن المديون كيف لا ودابة تلتيق الاعذار لدائمه لسبب
 تاخره عن دفع ماله عليه فضلاً عن ما طلتوا اياه. وكل احد
 يستطيع ان يتجنب الدين اول مرة ولكن سهولة استدانته في المرة
 الاولى تيسره عليه ثانية وثالثة فلا يلبث ان يفرق فيه ويمسي
 عاجزاً عن الوفاء ومن بخط الخطوة الاولى في هذا السبيل
 ينهانت الى هوة لا خلاص له منها كمن بخطو الخطوة الاولى في

الكذب . قال هيدن المصور ان بداية انحطاطي الوقت الذي
استعرت فيه شيئاً من الدراهم فصدق في قول المثل العاربية عاز
ووجد في الكتاب الذي كتب فيه حوادث حياته الكلام الاتي
”هنا ابتداء ديني الذي لا يمكن ان اتخلص منه مدة الحياة“ . ومن
يطلع على سيرة حياته بر مقدار ما يحدثه الاحتياج من ضعف
العزم وقلق الفكر . قيل طلب منه بعض الشبان نصيحة فكتب
اليو يقول لا تتبع شيئاً لا تستطيع اتباعه بلا اقتراض . ولا تستعز
فالعاربية عاز . وقد ارتأى الدكتور جنسن ان الدين الباكر
خراب . وكلامه بهذا الشأن جدير بالذكر قال لا تعتبر الدين
امراً غير لائق فقط بل مصيبة كبيرة واجتنب الفقر بكل قوتك
لان الفقر يمنع عن اعمال البر ويعرض الانسان لشروخ كثيرة
مادية وادبية وليكن اهتمامك الاول بتجنب الدين والفقر لان
الفقر عدو الراحة ومبطل الحرية ومزيل الفضائل ومن يفقر الى
مساعدة الناس له لا يقدر ان يساعد احداً

قال بعضهم

عرفتُ صروفَ الدهر كهلًا وناشياً

وجربتُ حالِي على العسر واليسرِ

فلم آر بعد الدين خيراً من الفنى

ولم آر بعد الكفر شرّاً من الفقرِ

وقال آخر

رزقتُ لَبًا ولم أرزق مروءةً وما المروءة إلا كثرة المال
إذا اردتُ مساماةً تقيدني بها بنوٌ باسي رقة الحال

وقال آخر

أرسي نفعي شوقاً إلى أمورٍ يقصر دون مبلغهن مالي

وقال آخر

إذا قلَّ مال المرء قلَّ صديقه

ولم يجعل عن عين الصديق لغاوة

وهي كل احد ان يلتفت الى اعماله بعين المتدقيق ويكتسب
كل ما يربحه وكل ما ينفقه لان الحكمة تستدعي ان يعرف
الانسان مقدار دخله تماماً ويجعل نفقته اقل منه وما من سبيل
الى ذلك الا بكتابة الدخل والمخرج كما اشار يوحنا لوك . بروي
ان ديوك ولتتون الشهير كان يفقد كل دخله ونفقته بالتفصيل .
وقال مرة لمستر كليك انني كنت مخولاً وفيه القوائم المطلوبة
مني لخادم اركن اليو واما الآن فادفعها بيدي واشير على كل
واحد ان يفندي بي . ومن كلامه على الدين قوله " الدين
يستعبد البشر اما انا فلم استدن قط مع انني كنت محتاجاً الى
المال مراراً " . ومن الذين كانوا يدققون في هذا الامر مثل
ولتتون ووشنطون الشهير الذي لم يستعب ان يفقد كل شيء في
بيتو لكي يعمش ضمن دائرة دخله حتى لما كان رئيساً على الولايات

المنحة الاميركانية

قال الاميرال جرفس وهو المعروف بأرل سنت فنسنت كان ابي من المتوسطي الحال الا ان عائلته كانت كبيرة ولذلك لما انطلقت من عنده الى علي (في البحر) لم يعطني الا عشرين ليرة وهذا كل ما اخذته منه من الاول حتى الآخر. الا انني بعد برهة من الزمان سمعت عليه سفينة يبلغ عشرين ليرة فارجمها الي مقبأ الحجة (برونسنو) ولا يخفى كم تكسرت من ذلك الا انني حمت على نفسي ان لا اتسب سفينة اخرى بدون ان اكون متأكدًا انها تفهل حالًا ولما وقت غيرت شكل معيشتي وتركت رفاتي الذين كنت اتناول الطعام معهم وصرت اكل وحدي واخذت ما سُمح لي به من السفينة فوجدتة كافياً وخائضاً وصرت اغسل ثيابي ولزمتها يدي وعملت بعض الاكسية من غشاه فراشي وما زلت على مثل ذلك حتى وفرت قيمة السفينة المار ذكرها ومن ذلك الوقت حتى الآن لم يزد خرجي على دخلي قط . اه . وقد ارتقى هذا الرجل الى اعلى المراتب باجتهاده وتحمله صنك المعيشة بالصبر الجميل

ولقد اصاب مستر هيوم اذ قال ان نسق المعيشة بلندن شاطئ فلن المتوسطين يفتقون كل دخلهم او اكثر منه ولا سيما لانهم يرفعون اولادهم ويلاسونهم كالاعنياء حاسبين ذلك شرطاً للكفاية ولكن ما من آفة للكفاية والامانة مثل الظاهر بما ليس في الواقع

فان من لم يكن غنياً وليس ما يوفهم الناس انه غني لا يفرق عن
المزور. أو ينجل الانسان ان يظهر بالحال التي وضعه الله فيها
ارضاء للذي أولاً يرى نتائج النظم بالفتى وشروبه الطامة على
هامة الابرياء فان العالم بأسره يأن من انقالها

لما استعفى السير تشارلس نبير من قيادة الجنود في الهند اقام
الحجة على رؤساء المجد الشبان على توغلم في الاسراف والدين
وقال انهم ليسوا رجالاً لانهم وان كانوا لا يهابون الموت يخافون
ان ينكروا على نفوسهم لذاتها ولو تمتعوا بها ديناً فترى القائد
الباسل يرافقه خامة لاجل مال استدانته منه وعجز عن وفائه

والغاب الشارع في خوض بحر هذا العالم محاط من كل
ناحية بتجارب متنوعة فاذا غلبت عليه حطته الى ادنى دركات
الموان واذا جاراها نزعته منه قوة الدفاع رويداً رويداً حتى
تجملة غير قادر على تجنبها اصالة . فعليه ان يتعد عنها اول ما
تصدى له غير مبال اذا كانت عواقبها شديدة الضررام قليلة
بل عليه ان لا يقف ويتامل في نتائجها لان التامل في مثل ذلك
الحين غير سليم العاقبة ومن سلم للتجربة ولو مرة واحدة ضعف
عن مقاومتها . واما من يقاوم التجربة حالما تعرض له يخلص من
طائلها حباته بأسرها ثم لا تلبث مقاومتها للتجارب ان تصير فيه
عادة ولا يخفى ان اكثر اعمال الانسان مرجعها الى العادة فمن
درب نفسه على العوائد الحسنة تملكته فيه ونجته من مخاطر كثيرة

وسهلت امامة سبيل النجاج

اخبر هيو ملر انه حتم على نفسه مرةً بتجنب تجربة واحدة فنجبا
 من اكبر الشرور وذلك انه لما كان يعمل في صناعة البناء قُدِمَ له
 مرةً كاسان من الهوسكي (نوع من المسكرات) ففكرهما وانطلق
 الى بيتهم وفتح كتاباً كان يحب المطالعة فيه فللمحال اخذت الحروف
 ترقص امام عينيه من فعل السكر فشعر بما وصل اليه وكيف انه
 لم يعد يملك حواسه فحتم على نفسه من تلك الساعة ان لا يذوق
 مسكراً فيما بعد ولا يضحى قواه العنلية على مذبذب اللذة الوقتية فكان
 هذا الحتم كدفة ادار بها سفينة في بحر هذه الحياة نحو المجد والشرف
 حالما راي الصخر العظيم الذي اصطدمت به سفن كثيرة فتكسرت.
 وتجربة السبكر قائمة في طريق كل شاب وهي من اشد التجارب
 خطراً والسعيد من نجا منها . كان من عادة السر ولترسكوت
 ان يقول ” لاشيء يحبط شان الانسان مثل السكر “. والسكر
 آفة الاقتصاد وعدو الاستقامة ومخرب الصحة . والامتناع المطلق
 عنه اسهل من الاعتدال به كما قال الدكتور جنسن
 على العاقل ان يتجنب كل خلة ذميمة ولكن لا يلبق به ان
 ينفق على هذا الحد بل يجب عليه ان يجيد في طلب كل منقبة
 حميدة والوعود والمهود قد تنفع ولو لبعض المنفعة ولكن ما من شيء
 انفع من الاجتهاد على بلوغ اعلى درجات المجد واحراز اسمي المناقب
 ولا يتم ذلك الا بالسهر ومعرفة الذات والاحتراس من كل زلة

والامتناع عن كل لذة وقتية اذا كانت تمنع خيراً مقبلاً لان من
لا يقوى على كبح جماح نفسه فالعبد اكثر حرية منه
وانفذ اُفقت كتب كثيرة تدعي انها تعلم الناس سراكتساب
الفنى ولكن ليس في ذلك سر لان لغات البشر مائة من الامثال
التي تبين ان الاجتهاد باب الفنى مثل من جد وجد ومن سعى
رعى ومن جال نال ومن نلّ نال ما نلّ من حرص على الدرهم
اجتمعت عنده الدنيا نير وغير ذلك كثير من الاقوال الحكيمه التي
جمعت خلاصة اخبر قرون عديدة وجرت على السنة الناس
قبل تاليف الكتب بزمان مديد . ومع تقدم عهدنا لانزال
نوافق اخبارنا وهذا يزيدنا ثباتاً وامثال سليمان ملوّه من الحكم
التي تناسب موضوعنا منها المتراخي في عمله اخو المسرف وايضاً
اذهب الى الفلّه ايها الكسلان تأمل طرقتا وكن حكماً وايضاً
الكسلان ياتي فقره كساح وعجزه كغاز وايضاً العامل يد رخوا
يفتر اما يد المجهد ين فقني وايضاً السكير والمسرف يفتران
والنوم يكسو الخرق وايضاً ارأيت رجلاً مجهداً في علمه امام الملوك
يقف . وفوق كل ذلك فقه الحكمة خير من الذهب وقنه النهم
تختار على النضة وهي اثن من اللآلي وكل جواهرها لا تساويها
بالاجتهاد والاقتصاد يفتر كل احد ان يعيش مكتفياً
وبذخ شيئاً لشهوخته . وكل من الصانع والعامل يفتران يدبر
نفقته حتى تمكنه ان يذخر ولو شيئاً يسيراً . والسير على نوالي الايام

بصبر كثيراً . ومن لم يدبر البصر لم ينل الكثير وأما من يدخر
 شيئاً قليلاً كل يوم ويضعه في بنك أو عند صراف أمين فلا تنضي
 عليه سنون كثيرة حتى يرى له شيئاً يعتمد عليه في طلب الارتقاء
 والنجح اليه وقت الحاجة ويصبر قاصراً على تعليم اولاده والاشتراك
 بالأعمال النافعة وهذا الأمر ممكن لكل واحد ولو كان صانعاً أو
 فاعلاً ودليلاً ما قبل عن تومار يربط المنيشترجي الذي كان صانعاً
 في مسلك وإمكانة في الوقت نفسه إصلاح شلن كثيرين من
 المجرمين المنضي وقت سجنهم وغيرهم فانه حدث امر القادة الى
 الاهتمام بهذه القضية التي اشغلت كل قومي عقله فخصص لها
 حياته بأسرها غير انه كان يعمل في مسلك كما تقدم من الصباح
 حتى المساء فلم يكن له إلا دقائق يسيرة من العمار مع أيام الاحاد
 فخصصها لخدمة هؤلاء المجرمين الذين كان امرهم مهلاً بالكلية في
 تلك الايام . ومن الموكد انه لم يمض عشر سنوات حتى رد اكثر
 من ثلث مئة منهم الى طريق الاستقامة والراحة وصار يعد طلبهم
 السجن الادبي . وكان يجمع في الاماكن التي تعجز القسوس وغيرهم
 وارجع كثيرين من الفتيان والفتيات الضالين الى والدهم وجعلهم
 يتعاطون اعمالاً مفيدة ولولاه لا تصلوا الى اقصى دركات الشر . ولم
 تكن هذه الاعمال سهلة لانها تنضي مالا ووقفاً واجتهاداً وحكمة
 واستقامة . ومن العجيب انه انفذ كثيرين من الضالين بما كان
 يدخره من اجرتهم وكانت اجرتهم زهيدة لا تزيد على مئة ايرة سوبياً

ومع ذلك كان يعول عائلته بدرجة معتدلة ويذخر شيئاً من دخله الى زمان الشينوخة . ويروى انه كان يجلس كل اسبوع ويُقسّم دخله على خرجهِ فيعين قسماً للطعام واللباس وقسماً اجرة للبيت الذي كان ساكناً فيه وقسماً لمعلم المدرسة وقسماً للقراءة والمحتاجين وبهذه الوسطة امكث ان يعمل ما عملة من الخير العظيم . وحياته من اصدق الامثلة لقوة العزم والتدبير ولما يستطيعه الانسان باليسير الذي يذخره ولتأثير استقامة الانسان واجتهاده في حياة غيره .

كل عمل محللٍ شريفٍ سواء كان حراثة الارض او عمل الادوات او نسيج النسيج او بيع الاثمار ولا عار على الشاب اذا تعاطى هذه الاعمال او ما هو ادنى منها بل اذا حصر افكاره ضمن دائرتها الضيقة . قال فلر " لا ينجح من يعمل في حرفة بل من لا يعمل " وقال المطران هل " حبذا الصنائع وتأتجها " والذين ارتقوا من احترام الحرف الدينية الى مناصب اعلى منها يجب ان لا يستعجلوا بل يتفخروا بتفانيهم على المصاعب . قيل سأل بعضهم احد رؤساء اميركا قائلاً ما شعار عائلتكم وكان الرئيس مشتق حطب فقال ردنا قميص (كناية عن صناعة تشفيق الحطب لان المشتق يجلع ثوبه فيظهر ردناه) وقيل عبر بعضهم فلاشبه اسقف نيمس بدناءة اصله لانه كان شماعاً فاجابه لولدت في الاحوال التي ولدت فيها انا لبيت شماعاً مدي حمائك

وكثيرون يجمعون المال وليس لهم من غايته سوى جمعوه .
 فمن كانت هذه غايته وانكب عليها بكلية بندران لا ينال مراده
 والسبيل الى جمع المال سهل جداً لانه يتم بجعل المخرج اقل من
 الدخل فان أسنولد رئيس البنك الباريزي كان في اول امره
 فقيراً جداً وكان من عادته ان ياتي كل مساء الى بعض المحانات
 ويشرب شيئاً من البيرا ويلتقط كل ما يجده من الفلين المرعي
 فجمع في ثماني سنين مقداراً من الفلين باعه بثماني ليرات وهذه
 الثماني الليرات اساس ثروته الوفرة التي بلغت عند موته ثلاثة
 ملايين فرنك . ذكر يوحنا فستر مثلاً لتحصيل الغنى بواسطة
 مثل هذه فقال بروي عن شاب باع مبرائه من ابيه وصرف ثمنه
 في ارتكاب المعاصي ولما شعر بما داهمه من الفاقة الشديدة خرج
 هاتماً على وجهه عازماً ان ينهي حياته التعيسة فوصل وهو سائر
 الى مكان يشرف على ما حوله من الاراضي التي كانت قبلاً ملكاً
 له فجلس هنيهة يتأمل فيها واخيراً عنم ان يجهد على استرجاعها
 فقام ورجع الى المدينة فرأى عدلاً من الفم الفضة عجلة امام بيت
 فعرض نفسه على اهل البيت لكي ينقله لهم الى داخل فقبلوا واعطوه
 اجرته فطلب منهم شيئاً من الطعام فاعطوه فاكله وابقى الاجرة
 واخذ يعمل في مثل هذا العمل حتى صار معه دراهم كثيرة فاشترى
 بها بعض المواشي وباعها بربح كثير . واستمر بوسع دائرة اعماله
 حتى صار من الاغنياء فاسترجع املاكه وزاد عليها وكان يمكنه

ابن يعيش مؤيداً لنفسه وغيره ولكنه صار شديد الجمل فعاش
 عيشة الذل ومات غير مأسوف عليه تطبيقاً لقول من قال
 وكل من لا خير منه يرفى ان عاش او مات على جد سوي
 والذخر للبين وللشيوخة محمود جداً ولكن اذا لم يقصد به
 الا ثراء المال فهو قبيح الى الغاية. ولا يفعل ذلك الا الحمقى او
 الجفلاء. وعلى الحكيم ان يتجنب التطرف في الاقتصاد كل التجنب
 لان الزائد اخو الناقص ومتى زاد الاقتصاد صار شحاً بل بخلاً
 ومن كان متصلاً في شئته لا يبعد ان يصير بخلاً في شئونه
 فيمسي المحمود مذموماً. ومجبة المال اصل كل الشرور. محبة المال
 تعمي البصر وتظلم الفكر وتفسد الاخلاق لذلك قال السر ولتر
 سكوت ان اللس يقتل نفوساً اكثر مما يقتل السيف اجساداً.
 ومن الشوائب المعرض لما رجال العبل التي يجب ان يجتنبوا
 منها تضيق افكارهم بل حصرها في موضوع علم حتى لا ينظروا
 الى الغير الا بما يعود الى نفعهم. انزع ورقة من دفاتر هؤلاء الناس
 تزهق ارواحهم معها

- والفجاح في ثراء المال يروق لنظر اكثر الناس. والمجهد
 الدثب المحاذق العاري من صفات البذخ والاسراف ينال
 الغنى المادي ولكن قد لا ينال من الغنى الادبي شيئاً بل يبقى
 جاهلاً خامل الذكر. ومن لا يضع نصب عينيه الا الدينار
 يفتن غالباً ولكنه يبقى من افقر الناس عقلاً وادباً. لان الانسان

لا يثمن بماله بل كثيراً ما يكون أعان الذهب واسطة لظهور
 دنائة مالكو كما ان لعان المحاسب يظهر شكلها الشنيع
 وإذا التفتنا الى كثيرين من الناس الذين يضحون كل شيء
 على مذبح المال رأينا ما يذكرنا بمجتمع طائفة من القروء ذلك
 ان اهالي المغرب اذا ارادوا مسكها ربطوا بقطنة مجوفة الى شجرة
 ووضعوا فيها شيئاً من الارز وجعلوا لها ثقباً يكفي لدخول يد
 السعدان فارغة فيلتي اليها ليلاً ويدخل به في ثقبها ويخضع ملتها
 من الارز فلا يعود قادراً على اخراجها ولا يترك الارز جهلاً
 وجشعاً فيترصد في مكانه حتى الصباح فياتون ويقبضون عليه
 والناس يعتبرون الغني أكثر ما يحق له لان أكثر الامور
 العظيمة التي عملت في هذه الدنيا لم يعلمها الاغنياء بل الفقراء.
 ألا ترى ان الديانة المسيحية امتدت في نصف العالم تقريباً
 ودعاتها من افقر الناس ألا ترى ان المخترعين والمكتشفين
 والمصنفين كلهم رجال متوسطو الحال واكثرهم ممن يحصلون
 خبزهم اليومي بعرق جبينهم نعم هكذا كان وهكذا سيكون. والغني
 يصعب الاعمال أكثر ما يسهلها وكثيراً ما تكون مضاره أكثر من
 فوائده. فاذا ورث الشاب ثروة وافرة انقاد بها الى حياة الكسل
 والتراخي اذ ليس ما يدعو الى الاجتهاد فنكر عليه الايام وهو
 لا يعرف قيمتها ولا يكتسب منها حكمة بل قد يجتهد على التخلص
 منها باي واسطة كانت. فهو كحيوان حلي نام في الميتة الاجتماعية

بمص من دمها ولا يجد بها نفعا والتخلص منه اسلم . على ان ذوي
الثروة الموثوق في قلوبهم روح الانسانية الصحيح يتجنبون الكسل
كأمر يحمل بالمرقة وعزة النفس ويشعرون انهم مطالبون بكثير
لان وسائلهم كثيرة ويرون انهم مضطرون الى العمل اكثر من
غيرهم ولا افضل من الصلاة التي صلاحها اجور وهي قوله لا تعطي
فقرا ولا تغنى اطمعني خبز فرضي . قيل ان يوسف برذرثن احد
اعضاء البرلمان امر ان يكتب على ضريحه هذه العبارة " لم يتم
غناي بكثرة ثروتي بل بقلة احتياجي " وهذا الرجل ارتقى من ادنى
الرتب الى اعلى المناصب فانه كان صانعا في معمل فصار من
اعضاء البرلمان المكرمين باستقامته واجتهاده ومحافظته على وقته
وانكاره لنفسه . وكان عند ما ينفذ البرلمان بخدم في احدى
الكنائس الصغيرة كقس لها والذين يعرفونه يشهدون انه لم يطلب
مدح الناس على ما عمله بل قام بكل واجباته اتماما لمقتضيات
الحبة والذمة والانسانية

لاوم على من اراد ان يكون غنيا ليكون مكرما بين اقربائه
الا انه لا يزال الاكرام حقيقه الا اذا كانت صفاته الادبية تستحقه
واما اذا جاوز غناه قارون ولم يكن ذا اخلاق حميدة فالتقير خير
منه والتقير العاقل المفيد افضل من الغنى الطائف ولو كان
مكرما بين اقربائه . وغاية الانسان العظمى في هذه الحياة القيام
بالاعمال التي يطلبها جسده وعناقه وضميره وقلبه ونفسه هذا هو

الغرض العظيم من حياة الانسان وما بقي فوسائط معدة لذلك
فليس الناجح من ينال افضل لذة واوفر ثروة واعظم سطوة وابعد
شهرة بل من ينال اعظم نصيب من الانسانية ويتم التدر الاعظم
من الاعمال البشرية المفيدة . الغنى قوة ولا يسعنا ان ننكر ذلك
ولكن العقل والادب قوتان ايضا وها افضل من الغنى بما لا يقدره
كتب اللورد كِلنود الى صديقي له يقول دع الناس يطلبون
الارزاق من الدولة فاننا لا انحونحوم لانني اقدر ان اكون غنيا
بتسامي عن الدنيا ولا ارضي ان اشين خدمتي لوطني بفوائد ذاتية .
فاني اعمل في بستاني بيدي واجتري بالقليل من النفقة عن
الكثير . وكتب مرة اخرى يقول لا ابدل مبادئي بمئة رزق
الثروة تمكن صاحبها من الدخول بين الناس على ما يقال
ولكن لا يمكن ان يكون صاحبها معتبرا منهم ما لم يكن عاقلا اديبا
ذا مناقب حميدة ومن الناس من هم اغنى من قارون في زمانه
ولكن لا يلتفت اليهم احد بل الجميع يعتبرونهم كاكياس من الذهب
فقط . واما الذين يشار اليهم بالبنان المتقلدون زمام الاحكام
ويدهم الامر والنهي فليسوا من ذوي الثروة ولا يلزم ان يكونوا
اغنياء بل ان يكونوا من ذوي الاخلاق الحميدة والآداب
والمعارف الوسيعة . والقليل المال المهذب الاخلاق الباذل ما
في وسع لنفع البشر يتطلع على الاغنياء الذين ثروتهم في دنائبرهم
ولا يحسد هم على شيء منها

الفصل الحادي عشر

في تهذيب الانسان لنفسه

وما في ذلك من السهولة والصعوبة



قال كبن. لكل انسان نوعان من التهذيب الواحد ياخذُه عن غيره
والآخر يعطيه لنفسه والثاني افضلها
وقال يوحنا هنتر. من توهن المصاعب عزيمة لا يفلح ومن يتغلب
عليها ينجح
وقال روالشاعر ما معناه ان الحكماء واولي العزم يغلبون المصاعب
واما المحمئي والبلداه فيعتبرهم الرعب حالما ينظرون المشقة والمخاطروهم
يختلون المصاعب



قال السر ولترسكت افضل معارف الانسان ما اكتسبه
بنفسه. وكان من عادة السر بنيامين برودي ان يعجب بهذا
الكلام ويفخر بانه لم يدرس على استاذ وذلك يصدق على كل
الذين امتازوا في العلوم والفنون لان الانسان لا يتعلم في المدارس
الالمبدي او بالبحري علوم المدارس باب يدخله التلميذ ومنه

يستطرق باجتهاده الى حياض المعارف ومن بلغ هذه الحياض
 مجده فهو الخليق بورودها ومن اقتيد اليها اقتياداً كان استغناؤه
 منها كرهاً . ومن حصل علومه مجده في ملكه وقوى عقله تقوى
 باستعمالها حتى اذا حل قضية بنفسه تأهل لحل قضية اخرى وهام
 جراً وصار العلم فيه ملكة . وفضل ما في الانسان اجتهاده لنفسه
 فاذا اتسع منه هذا الاجتهاد لم تنفعه الكتب ولا المعلمون ولا
 المدرس ولا شيء من البنية

وافضل المعلمين اقربهم من الاقرار باهمية التهذيب الذاتي
 واميلهم الى انماض همة التلميذ لكي يفرغ باب جده مجده فترام
 على الدوام يدربون تلاميذهم الى اجتناء ثمار المعرفة بيدهم وبذلك
 يرفعون شأن التعليم ويجولونه من قواعد ناشئة ضيقة المبحث يراد
 طبعها في عقول التلامذة الى اصول سامية المطلب تثير عقل
 التلميذ وتدعوه الى المبحث والتفكير . وعلى هذا الاسلوب جرى
 الدكتور ارنلد الذي كان يعلم تلامذته ان يعولوا على نفوسهم
 ويمارسوا قوامهم ولم يكن عملة الا تدربهم وتشجيعهم وانماض همتهم .
 ومن قوله اذا كان شيء من بروق للنظر على وجه هذه الارض فيكون
 بركة الله على النوى الطبيعية المثقفة بالحق والغيرة . وبرى انه
 لما كان في اللهم كان يعلم ولداً غير نجيب فونجة بصرامة فالتفت
 الولد اليه وقال له على م نوبختي يا مولاي اوكد لك انني باذل
 كل جهدي . فاشرفه هذا الكلام تأثيراً عميقاً حتى قال بعد زمن

طويل اتقي لم انس ذلك المنظر وتلك الكلمات التي اثرت في
 ناثيراً لا يعي بكرور الايام

ويظهر من الامثلة المقدمة في هذا الكتاب عن الناس
 الذين ارتقوا من الدرجات السفلى وامتازوا في العلوم والفنون ان
 العمل باليد لا ينافي تهذيب العقل بل يساعده ويقوي الجسم
 على احتمالوه. والعمل للجسد كالعلم للعقل. وفضل الناس من ائمه
 عمل في اوقات الراحة وراحة في اوقات العمل وكثيرون من الذين
 هم في غنى عن العمل يعكفون على عمل وان لغير الربح او لجرد
 التسلية مثل الذين يتولعون بالصيد وركوب الخيل. وقد جرت
 العادة الآن في مدارس اوربا ان تقام اماكن فسيحة لتربين الطلبة
 في انواع مختلفة من اللعب والقصد في ذلك ترويض اعضائهم
 وتقويتها وتربيتها على الرشاقة وفائدته اعظم من ان توصف. حكي
 ان ديوك ولتتون نظروا الى ساحة لعب ورأى الاولاد يتمرنون
 على الالعب فقال في هذه الساحة فزت بواقعة وطرلو
 قال دانيال ملتس لابنه وهو في المدرسة العالية اودُّ جداً
 ان اراك مجتهداً وناجحاً في كل دروسك التي توسع دائرة عقلك
 ولكني ارجب ايضاً في ان اراك ناجحاً في اللعب وحركة الاعضاء
 لان كل معرفة سواء كانت طبيعية او صناعية تلذ العقل وتهذبه.
 ومثل ذلك ما قاله جرمي بيلروهو "تجنب الكسل والبطالة ولا
 تستغف من عملٍ مها كان شاقاً لانه اذا كان الجسد في راحة

وجدت الشرور الهوسيلاً وما من رجل بطالٍ قوي البنية قدر على مقاومتها . ولا عمل افضل من الاعمال الجسدية لمقاومة الشر " هنا فضلاً عن ان النجاح يتوقف على صحة الجسد اكثر مما يظن لانه ما من احد يقدر على مزاوله اعماله اذا كانت صحته منحرفة او ضعيفة . وقد تصيب طلبة العلوم شرور كثيرة من جرى عدم الرياضة الجسدية منها الضجر والياس والخمول واحتمار الحياة والاستنكاف من السير في كل سهل مطروق وتدعى هذه الصفة في انكلترا يـتـروـنـز (نسبة الى اللورد يـتـروـن) وفي جرمانيا ورتـرـنـز (نسبة الى ورتـر المشهور في خرافات الفوطيين بكاره الحياة) وقد بين الدكتور كنف ان هذا الداء سار في شبان اميركا بقوله ان كثيرين من شباننا يتربون في مدارس الياس . والعلاج الوحيد لهذا المرض العضال الرياضة الجسدية

ثم ان من الناس من يميل طبعاً الى معاطاة الاعمال والحرف وان لم يكن منفرداً اليها واذا اخذت هذه القوة مفعولها عن صغرا دت الى نتائج معتبرة جداً . يحكى عن السرايحي نبوتن الخلد المذكور لما كان في المدرسة لم يكن نجيباً كغيره من التلامذة وانما كان منكباً على استعمال القدوم والشار والمطرقة حتى لم يسمع من مخدعه غير صوت هذه الآلات . وكان يقيم كل الفرص يعمل مطاحن هوائية صغيرة ومركبات وآلات مختلفة ولما

نقدم في السن صار يتسلى بعمل موائد صغيرة يهديها الى اصداقائه.
 وبميتن ووط وستفنسن كان كل منهم حاذقاً في صغره بعمل
 الآلات ولولا ذلك ما ارتقوا الى ما ارتقوا اليه بعدئذ على ما يظن
 وهكذا كان حال كل المخترعين والمكتشفين المتقدم ذكرهم في ما
 مضى من هذا الكتاب فانهم كلهم كانوا مشهورين في صباهم
 بصناعة اليد. والذين ارتقوا من بين النعلة وانتظموها في
 سلك العلماء وجدوا نتيجة تفرزهم على اعالم الاولى في اعمالهم
 الاخيرة. قال اليهوبرت انه وجد العمل الجسدي الشاق ضرورياً
 للمداومة اشغال العقلية. وكثيراً ما كان يترك التدريس في
 المدرسة ويرتدي بمنزله الجسدي ويذهب الى مسبك الحديد
 ليعمل في حرفته الاولى اي الحدادة لاجل ارجاع صحته الجسدية
 والعقلية

واذ تربى الشبان على استعمال الادوات استفادوا صناعة
 وتعلموا استعمال ايديهم واعنادوا على الاعمال الصالحة وتربت
 فيهم ملكة محبة العمل وكره البطالة وانفرست فيهم سجيمة المواظبة.
 ونرى هذه الصفات متغلبة على الذهن يمارسون اعمال اليد
 اكثر مما على غيرهم ولا سبب لذلك الا ما ذكر. وما من ضرر
 على النعلة والصناع سوى انهم يرتبطون باعمالهم الى درجة
 تجعلهم يهملون قواهم الادبية. فالموسرون يانفون من الاعمال
 ويربون في الجهالة والموسرون ينتصرون على اعمالهم ولا يفتقرونها

الأما ندر فينبقون في جهلهم الأانة يمكن اجتناب هذين الشرين
باتحاد الاعمال الجسدية بالاشغال العقلية او الترويض الجسدي
بالثنيف العنلي وكثيرون في اوربا واهيركا قد سلخوا هذا السيل
ونجوا .

ونجاح طلبة العلم مثل المتفرغين للطب والفقه واللاهوت
يتوقف بنوع خاص على صحتهم الجسدية ولقد اجاد بعض
الانكليز اذ قال "ان شهرة كثيرين من رجالنا العظام هي عقلية
وجسدية معاً". فان الناضي والحاكم يحتاج كل منهما الى رقة
صحيحة كما الى عقل ثاقب لشدة العلاقة بين الدم والدماغ وما
من امر يتعرض له رجال السياسة مثل ضيقة الصدر لانهم يقعون
في المجالس المزدهمة الفاسدة الهواه يتلون الخطاب والمباحث
المتوقفة على اعضاء الصوت والصدر وقد يتعبون في ذلك
اكثر مما باشق الاعمال فعلى رجل السياسة ان يكون ذا قوة
جسدية تضاهي قوته العقلية وتزيد عليها وقد تم هذا الشرط في
بروم ولندهرست وكهبل وييل وكرهم وبلرستون وغيرهم من
واسعي الصدور

بروي ان السرولترسكوت لما كان في مدرسة ادنبرج
الكلية كان من احذق الناس في الصيد وركوب الخيل ثم لما
انكب بعدئذ على الانشاء لم يترك هذين الامرين بل استغنى كل
فرصة للخروج الى صيد الارانب فتمكن من مداومة اشغاله العقلية

كما تقدم عنه. والاستاذ ولسن كان ماهراً بالمصارعة كما كان ماهراً
 بالنظم والنثر وبرنس الشاعر كان مشهوراً في صغره بالمصارعة
 وبعض المشهورين بعلم اللاهوت اشتهروا في صغرهم بقومهم
 الجسدية مثل امحق بروواندراوس فلر وادم كلرك وغيرهم
 واذا كان ترويض الجسد ضرورياً لطلبة العلم فكم بالحري
 ترويض العقل وتقويته على الانصباب على اشغاله. وسيل
 المعرفة مفتوح لكل من اراد السير فيه بشرط ان يبذل جهده
 واجتهاده وليس فيه صعوبة لا يمكن للانسان المحازم ان يتغلب
 عليها. قال تشترن ان الله خلق الانسان بذراعين تصلان الى
 كل ما تمدان اليه. والاجتهاد اس النجاح في العلم وفي العمل ولا
 يكفي طريق الحديد ما دام حامياً بل يجب نظريته حتى يحمي.
 واذا التحنا الى ما يستفده المجتهدون والمواظبون من تهذيبهم
 لذواتهم باستغنائهم كل فرصة وكل دقيقة ما يضيعها غيرهم
 سدّى انذهلنا من ذلك كل الانذهال. فان فرغوسن تعلم علم
 الهيئة وهو مرتد مجلود الفم على رؤوس التلال. وستون تعلم
 الرياضيات وهو يعمل في البستان ودرودرس الفلسفة وهو يعمل
 المسكافة ومّر تعلم الجيولوجيا وهو يعمل في المناحل
 رأينا في ما مضى ان السربوشيا رينلدس كان يركن الى
 فعل الاجتهاد كل الاركان قال ان كل الناس يمكنهم ان يشتهروا
 في اي امر ارادوه بشرط ان يلزموا ذلك الامر بالاجتهاد

والصبر وقال ايضاً ان التعب طريق الموهبة وان لاحد للتقدم
 فيمكن للانسان ان يتقدم الى اي درجة ارادها ولم يعتقد بالموهب.
 بل علق كل شيء على الاجتهاد فمن جملة اقواله المحكمة
 ” الشهرة ثمرة الاجتهاد . واذا كانت القوى عظيمة فالاجتهاد
 يحسنها وان كانت ضعيفة فالاجتهاد يجبر نقصها . ومن تعب
 على تحصيل امرٍ بطريقه حصة ولا يحصل شيء بلا تعب “
 والسرفول بكستن كان يعتقد بفاعلية الاجتهاد ويقول انه
 قادر ان يحصل كل ما حصة غيره بشرط ان يتعب على
 تحصيله ضعف ما تعب ذاك وكانت كل ثمنه بوسائط الاعيادية
 واتعابه النادرة المثال . قال الدكتور رُس ” اعرف كثيرين
 من معاصري الذين سيعدون في الازمنة المقبلة من اصحاب
 المواهب وهم الآن يتعبون تعباً جزيلاً في عمل كل ما يعملونه . ولا
 تُعرف الموهبة الا بالعمل وهي بدون مينة . والاعمال العظيمة نتيجة
 التعب والمزاولة ولا يمكن ان تتم بمجرد القصد او الميل . وكل عمل
 عظيم هو نتيجة استعداد طويل والسهولة في الاعمال تصدر عن
 التعب الدائم ولا شيء سهل الا كان صعباً في اول امره حتى
 المشي . والمحطوب المفلق الذي عيناه فقدحان شرراً وشغافه
 تدفنان البلاغة وكلامه مجر من الحكمة والنهم قد تعلم سر هذه
 الصناعة بالدرس والتكرار الدائم بعد ان خاب مراراً كثيرة “
 وعلى كل طالب علم ان يكون مدققاً محققاً في كل شيء

بدرسه بروى ان فرنسيس هرنر لما وضع قواعد لتثقيف عقول
اعثنى كثيراً بالانعكاف على موضوع واحد حتى يتفنه جيداً قبل
ان ينقل الى غيره ولذلك حصر دروسه في كتب قليلة وقاوم
بشدة صفة الانتقال من درس قبل اتقائه. ولا تقوم المعرفة بالقتلار
الذي يحصله الانسان منها بل بالمنافع التي يجنيها من المعرفة
ولذلك تفضل المعرفة القليلة العميقة على الكثيرة الرقيقة . قال
اغناطيوس لوبولا "من لا يفعل جيداً عملاً واحداً في وقت واحد
يفعل كثيراً". واما من بسط قوته على سطح متسع اضعف تأثيرها
وتعدّر نجاحه . اخبر اللورد سنت ليونردس السرفول بكستن
بالطريقة التي جرى عليها في دروسه فكانت سر نجاحه بقوله
عزمت عند ما شرعت في درس الفقه ان لا اترك مسألة حتى
انقنها جيداً . وكثيرون من اقراي كانوا يقرأون في يوم واحد ما
اقراه انا في اسبوع ولكن عند نهاية السنة كانت دروسي في
ذاكرتي مثل يوم درستها واما دروسهم فتذهب من عقولهم ذهاب
الايام

ولا يصير الانسان حكيمًا بكثرة الدروس بل بتطبيقاتها على
الغاية التي درست لاجلها وحصر العقل في موضوع الدرس حتى
يصير ملكة فيه . قال ابرنثي ان في عقولنا قابلية الى درجة معلومة
فاذا ادخل اليه اكثر مما يحتمل دفع ما فاض عنه الى الخارج
وقال مرة اخرى ان من يعلم جيداً ما يرغب فيه فلما يجيب في

تحصيل الوسائط اللازمة لبلوغه

وأفضل الدروس وأكثرها فائدة ما كانت غاية محدودة .
ومن اتقن فرعاً من العلوم اتقاناً كاملاً استفاد منه في كل حين
فلا يكفي الاقتصار على الكتب ومعرفة مواضعها والرجوع إليها
عند الاحتياج لان من كان علمه في كتابه كان خطأ أكثر من
صوابه . بل على العالم العامل ان يستحب علمه في كل آين وأن
والأفلا بعد عالمًا لانه ما المنفعة اذا كان للانسان بدرة من
المال وليس في يده فلس

وعلى من شاء ان يهذب نفسه ان يكون حازماً ندباً وهانئاً
الصفتان تقويان بترك الشبان يعتمدون على نفوسهم واعطائهم
كل ما يمكن من الحرية . اما الارشاد والتدريب فالزيادة منها
تضر كثيراً لانها تصرف الشاب عن الاعتماد على نفسه . وقلة ثقة
الانسان بنفسه مانع قوي من موانع التقدم ولا نعني بالثقة
الاستبداد بالرأي ولا الخيلاء لان كثيرين يثنون بنفوسهم وليس
فيهم شيء يوثق به ومع ذلك فلا شيء يعيق النجاح ومنفعة أكثر من
فتور الهمة وضعف العزم وقلة الحزم . وعدم تقدم الأكثرين نابع من
علم محاولتهم التقدم . وكل احد يرغب في تثفيف عقله ولكن
الأكثرين ينفرون من التعب الذي لابد منه للحصول على ذلك .
والجسيم بروموت ادراك المعالي رخيصة ناسبين ان لا بد دون
الشهد من ابر النخل . قال الدكتور جنسن ان عدم الجلد على

الدرس من امراض الجبل المحاضر العقلية وما صدق على جيلو
يصدق على جيلنا هذا . لا سكة سلطانية لنوال العلم ولكن له
سكة مطروقة ومع ذلك ترى الجميع يتوخون اخصر الطرق
واقلمها نعباً فيرغبون في ان يعلموا لغة في برهة قصيرة وعلى غير استاذ
او كما يقال عن احدى السيدات انها طلبت من معلم ان يدرسها
لغة ولكنها اشترطت عليه ان لا يعلمها شيئاً من الاسماء والافعال .
وعلى هذا المنوال يتعلم كثيرون ما لا يستحق ان يسمى رسم العلم .
ألا ترى ان كثيرين يدرسون الكيمياء باستماعهم بعض الخطب فيها
ونظروهم الى بعض الاستحضارات والامتحانات وهذا وان يكن
افضل من لا شيء لا يفيد شيئاً . وكثيرون يظنون انهم آخذون في
تعلم العلوم وما هم غير متسلين تسلياً لان ما لا يحصل بالدرس
والنصب لا يستحق ان يدعى علماً لانه وان اشغل العقل فلا يفنيه
وان نجت منه نتائج وقتية لا يرتجي منه كبير فائدة وما هو الا تأثير
وقتي زائل ولذة حسية غير عقلية توقع سباتاً عميقاً على افضل
الغفول واكثرها اجتهاداً حتى لا تنبه الا اذا اصابها مصيبة باغنة
واكثر الشباب يطلبون اللهو تحت رداء طلب العلم فلا
يسلمون بعلم يستدعي نعباً وكذا وبما انهم يحصلون العلم في ميدان
اللعب واللهو يكون علمهم لعباً ولهواً ولا بد من انهم يجتثون ثمر
تهاونهم الذي هو ضعف عقولهم وتعطيل اسمهم . قال روبرنصن
البريتوني ان درس دروس مختلفة في وقت واحد يضعف العقل

ومجملتها عنياً . وهذا الشر العظيم الى الغاية وله درجات مختلفة فاعلمها
 ضرراً عدم التعمق والتضلع واكثرها اذى النور من كل ما ينقض
 لتحصيله نعباً وعماء ثم خمول الذهن . وعلى طالب الحكمة الحقيقية
 ان ينكب بكلية عليها لان التعب ثمن لكل ثمين فيجب ان يكد
 ويتعب واضعاً نصب عينيه غرض تعبٍ ومتوقفاً نواله بالصبر
 الجميل . والنجاح بطيء الحصول ولكن من يتعب بامانة وغيره
 ينل اجرة في الوقت المناسب . ومن كانت حياته حياة الاجتهاد
 يقوى على مد سلطته الى من حوله واحراز الجهد لنفسه والنفع
 للبشر . وليس للتهذيب من حد يوقف عليه بل على الانسان ان
 يواظب على تهذيب نفسه ما دام حياً لان ذلك ضروري لكل
 انسان بل به تقوم سعادة الانسان كما قال الشاعر كراي وللراحة
 وقت طويل بعد الموت كما قال ارنلد

والانسان يستحق الاكرام والاعتبار بمقدار استعماله القوى
 التي منحها اياها الباري . ومن استعمل وزنته حتى الاستعمال يعتبر
 مثل من اعطي عشر وزنات . ولا يعتبر من كانت قواه العقلية
 عظيمة الا كمن كان ميراثه من ابيه عظيماً فاذا استعمل هذا قواه
 وذلك املاكه حتى الاستعمال اعتبرا والافلا . وقد يتضمن العقل
 خزائن وافرة من العلم ولكنها تكون بلا منفعة لانه اذا لم يرتبط
 العلم بالفضل والحكمة والاستقامة لم يحسب شيئاً . قال بستالوزي
 ان العلم العقلي المجرد مضر الى الغاية وارتأى انه يلزم ان تغرس

اصول المعرفة في تربة الارادة المستقيمة وتغذي منها . وقد يحفظ
 العلم صاحبه من ارتكاب الفواحش والتمرغ في الدنيا ولكن لا
 يحفظه من الافتخار ومجبة الذات ما لم يحصن بالمبادئ الصحيحة
 والعوائد الحميدة لذلك نرى كثيرين من اصحاب العقول الكبيرة
 الملوثة من العلم والمعرفة فاسدي السيرة وعارين من الحكمة الحقيقية
 وهم مثال للتغذر منهم لالافتداهم . ومن الاقوال الجارية على
 السنة الناس في هذه الايام ان العلم قوة ولكن التعصب قوة والظلم
 قوة والطمع قوة . والعلم اذا لم يصاحب بالحكمة قوى الاشرار على
 الشر بل قد يزيد شره حتى تصير محافلة مثل محافل الابالسة
 ولعلنا حتى يومنا هذا نغالي في اهمية التهذيب العلمي .
 واكثرنا يخال اننا بلغنا درجة سامية من النجاح لان عندنا
 مكاتب واسعة ومدارس عديدة ولكن كثيراً ما تكون التسهيلات
 موانع تصد كثيرين عن اكتساب العلم لان نسبة العلم الى المكاتب
 نسبة الكرم الى الغنى فان كان الغنى يتبع الكرم ضرورة فالمكاتب
 تتبع العلم . لا ريب ان التسهيلات الآن عديدة ولكن الحكمة والفهم لا
 ينالان الا بعد السير اليها على سبيل الملاحظة والتعمق والمواظبة
 والاجتهاد . والمعرفة شيء والحكمة آخر والحكمة لا تنال بقراءة
 الكتب لان الكتب تقتصر غالباً على اقتباس افكار الغير وليس
 لها عظيم تاثير في العقل . وكثير من الدروس مثل شرب المسكر
 يطرب العقل برهمة ولكنه لا يفعل شيئاً في تثقيفه . ولذلك نرى

كثيرين يتخذون بانهم آخذون في تهذيب عقولهم وهم مشتغلون
 باضاعة الوقت وجهد ما يقال عنهم انهم ملتهمون بذلك عن
 فعل ما هو اقيح منه

ويجب ان لا ننسى ان كل ما يستفاد من الكتب من الاخبار
 هو من نوع التعلم واما الاخبار الشخصي فهو من نوع الحكمة وقليل
 من الثاني خير من كثير من الاول . ولقد اجاد اللورد بولنبروك
 اذ قال ان كل علم لا يرفع شان الانسان هو نوع من الكسل
 وكل ما يكتسب منه انما هو جهل . ومطالعة الكتب وان كانت
 مفيدة ومهذبة هي دون الاخبار من اوجه كثيرة . فقد كان في البلاد
 الانكليزية رجال حكماء اشداء الغم سديرو الراي قبل انتشار
 الكتب . وكان في كل امة رجال حكماء لا نظير لهم في هذا العصر
 وكلم حصلوا ما حصلوا باخبارهم . فان البراعة العظي التي للشعب
 الانكليزي امضاها قوم لا يعرفون الكتابة فامضوها بالعلامات
 واسسوا حرية الانكليز وهم يجهلون القراءة والكتابة . ومن المسلم ان
 التهذيب لا يقوم باملاء العقل من افكار الغير بل بتوسيع المعرفة
 الشخصية والاقدام في انمام واجبات الحياة . واكثر مشاهيرنا (اي
 مشاهير الانكليز) كانوا من قبلي المطالعة فان برندي وستفنن
 لم يعلموا القراءة حتى صاروا رجلين ومع ذلك عمالاً عظيمة
 تعجز عنها فحول العلماء . وحياتها انفع من حياة الوف من العلماء .
 ويوحنا هنتر بلغ العشرين من العمر قبلما تعلم القراءة ٧

والامر المعتبر في العلم هو غاية لا مقداره فيجب ان تكون
 غاية العلم تحصيل الحكمة واصلاح الصبوت لكي يصبر الانسان
 به افضل مما كان واسعد وافيد واكرم وانشط. واذا تقدم الناس
 مادياً واهلوا تقدمهم الادبي ركبوا جادة الانحطاط . وعلى كل
 عاقل ان لا يكتفي بالتامل في ما فعله غيره بل ان يفعله بنفسه
 وان يرفع شان نفسه بيده بالوسائط التي خولت اياها العناية
 الالهية

وتدريب الانسان لنفسه وضبطه لها اساسان للحكمة العملية
 ويجب ان يتخلها اعتبار الذات الذي يصدر عنه الامل رفيق
 القوة وابو النجاح لان من كان املة وطيداً قدر على عمل الغرائب .
 واعتبار الانسان لنفسه وتدريبه اياها من اعظم واجبات هذه
 الحياة لان الله سبحانه وتعالى يطلب منا ان نعتبر اجسادنا وعقولنا
 وقوانا . وارتباطنا بالبشر يطلب منا ذلك ايضاً . بل ان قوانا
 نفسها تستدعي ان نعطيها حتماً اللازم من الاهتمام . فعلينا ان
 ننقض ما فينا من الشر ونبني عوضاً عنه الخير . وكما انه علينا ان
 نعتبر نفوسنا كذلك علينا ان نعتبر الآخرين وعلمهم ان يعتبرونا
 ومن ثم ينتج الاعتبار المتبادل والعدل ويتني كل ما يجمل بالراحة
 العمومية

واعبار الذات من افضل ما يجلب به الانسان وتعلمي به
 عقلة . نصح فيثاغورس لتلميذه ان يكرم نفسه لان من فعل ذلك

نزه جسده عن الخسائس وعقائه عن الدنيا
 والمنايا ولا الدنيا وخيرٌ من ركوب الخنا ركوب الجنائز
 وهذه الصفة اصل لكل الفضائل فهي اصل للطهارة والعفة والتعقل
 والتقوى والديانة . قال ملتن ان اكرام الذات الصحيح ينبوع ينبت
 منه كل عمل صالح محمود . ومن لم يعتبر نفسه احقرها وامسى
 محقرًا في عيني الغير . ومن كان دابة الذل لا يفلح . واما من كان
 يعتبر ذاته ترى وجهه مهملًا ولو كان مكتنفًا بالفقر . ولا يسلم
 لتجربة ولا يرتكب دنينة

الآن العلم اذا اعتبر واسطة للتقدم فقط ضاع فيه الزمان
 والتعب . على أننا لا ننكر ان العقل المثقف يعين على التقدم ولا تقدم
 بدونو . وقد لا ينتهي العلم بالشهرة لانه على الطريق الأكبر من الناس
 ان يتعاطوا الاعمال ومهما ازدادوا ثقفاً وتمهذباً لا يتخلصون من
 الاعمال الشاقة . ولكن لاسيما لاصلاح ذلك الأرفع شأن
 العمل بتوجيهه الى الاغراض المجيدة التي تشرف العمل الدنيء
 والساعي . ومهما كان الانسان فقيراً ووضيعاً اذا فعل ذلك كان
 خليقاً ان يعاشر اكثر العلماء فضلاً واسماهم عقلاً وابعدهم صيقاً .
 وهكذا نرى ان الدرس المبني على اساس صحيحة يصير مصدراً للذة
 عظيمة ومنشأً لنتائج مجيدة ومصالحا المسيرة والسريرة . وان كان
 الناس المهذبون في شك من نوال الغنى فهم على يقين من الحصول
 على الافكار السامية . قيل سال بعضهم فيلسوفاً ماذا كسبت

بكل فلسفتك فاجابه كسبت من نفسي رفيقاً لي
 — ولكن كثيرين يأسون وتخور قواهم وهم آخذون في تثقيف
 عقولهم لانهم لا ينجحون في العالم بسرعة كما يظنون انهم مستحقون .
 ولعلم ظنوا المعرفة بضاعة رائجة فحباب املهم . اخبر مستر ترينبير
 عن معلم مدرسة تركه تلامذته وغيب الفحص عن السبب وجد
 ان اكثر الوالدين اخرجوا اولادهم لانهم ظنوا ان التعليم يصلحهم
 حالاً واذ لم يتم ذلك اخرجوهم واهلوا امر تعليمهم . وكثيرون
 يحطون قيمة العلم اما يجعله واسطة للسبق في الدنيا كما ذكر او
 سيلاً للهو والتسلي لكن اسمع ماذا قال باكون الشهير قال ليس العلم
 حانوتاً للبيع والكسب بل مخزناً بضاعة تجميد الخالق وخبر الخلق
 ولا ريب في انه يلقى بالانسان ان يتعب ويجهد على التقدم في
 الدنيا ولكن لا يحق له ان يضحي نفسه لاجل ذلك . ولا اجهل
 من يجعل عقاله عبداً لجسده او آله له ثم ياخذ بندب سوء حظ
 لانه لم ينجح النجاح المطلوب هذا فضلاً عن ان النجاح لا يتوقف على
 العلم بل على القيام الواجب بالاعمال ومن كان هذا الحال حاله
 يناسبه ما قاله روبرت سوئي لرجل طلب منه النصح فكتب اني
 يقول بجدث كثيراً ان يغضب الحكيم على العالم ويجزن به ولكنه
 لا يتذمر منه قط اذا كان قائماً بواجباته . فاذا وجد عالم صحته
 جيدة وله عينان ورجلان ويدان ووقت ومع ذلك يحتاج الى شيء
 يكون الله سبحانه وتعالى قد وهب هذه البركات لرجل لا يستغنها

وهناك سبيل آخر يحبط شان العلم وهو استعماله لجرد اللهو
 والتسلية العقلية وهذا الامر شائع في عصرنا واتباعه لا يحصون .
 ألا ترى الكتب والجرائد قد انتشخت من كل سخيف وركبك لكي
 توافق ذوق الجمهور حتى متى لا ينبه الناس من رقادهم بل من
 جنونهم هذا حتى متى يميلون الى الهزل والسخافة والركاكة وما لا
 طائل تحته وما لا يصدق عاقل ولا جاهل ألا يعلمون ان ذلك
 يفسد الذوق السليم . قد ذكرنا الكتب والجرائد ولكن ما قولكم
 في الروايات والفكاهات . ورب معترض يقول قد يكون في هذه
 شيء من الحكم ولكن يا صاح اي منفعة لدرهم من الدسم في رطل
 من السم . على ان من القصص ما هو فصيح العبارة بليغ المعنى حتى اذا
 تصفحه الذين اشغالهم شاقة في اوقات الراحة وجدوا فيه لذة عقلية
 عظيمة . وجميع الناس كباراً وصغاراً لم يميل غريزي للتفكه بمثل
 ذلك ولا يحسن ان يجرموا هذه اللذة اذا استعملوها الى حد موافق
 ولكن من جعل ذلك طعاماً وشراباً اضاع وقته وفسد ذوقه
 وقد يفسد آدابه هذا فضلاً عن انه لا يرجي من قراءة هذه القصص
 كبير فائدة لان التأثير الذي تؤثره وقتي زائل وقد يعتاد الانسان
 عليه حتى لا يصدق منها شيئاً ولا يتاثر بها قط

واللهو مفيد احياناً ولكنه كثيراً ما يفسد الاخلاق فيجب ان
 يجتري منه غاية الاحتراس . نعم انه يقال في المثل من اشتغل دائماً
 ولم يلعب صار بليلاً ولكن من لم يشتغل قط صار شرّاً من البلبد

ولا شيء اضر بالشبان من الانهاك في الملاهي لانه يفسد عقولهم
 ويفتح باباً للتهور في كل نوع من التبايح . ثم اذا دعمهم الاحوال
 الى معاطاة الاعمال شعروا بكرة شديد لما فيعدمون قوى الحياة
 وتنضب في وجوههم يذابح السعادة ويخسرون اسمهم وجسمهم وما
 من حالة انعم من حالة الشاب الذي اضاع شبابه في التمتع
 والانهاك في اللذات . قال مبرابو عن نفسه ان ايام حداثتي قد
 عطلت كثيراً من قواي . ولا بد من ان خطايا الشبيبة تضر
 بالشيوخة

كان بنيامين كستان من اعظم رجال فرنسا عقلاً ولكنه
 لم يبلغ العشرين من العمر حتى انفسد ولذلك صارت بقية حياته
 سلسلة من الشقاء عوضاً عن ان تكون كترًا من الخير وما ذلك
 الا لانه اهل الاجتهاد وغلبة النفس ولا يخفى ان هذين الامرين
 كانا بوسعهما كما انها بوسع كل واحد . ويقال انه عزم على اتمام
 اعمال كثيرة ولكنه كان عديم الحزم فلم يتم شيئاً منها ولذلك دعاه
 الناس كستان المقلب . وكان هذا الرجل سريع الخاطر قوي
 النرجحة وكتاباته من الطراز الاول ولكنه كان يشغل عقله في
 اسمى المواضيع ويمارس ادنى الاعمال حتى ان سموناليفو لا يكفر
 عن دناءة حياته . فانه كان يفامر (يلعب بالفار) عند ما كان
 يكتب في الديباجة بل تماطى ما هو اقبج من ذلك . وكان مع كل
 قوة العقلية كمن لا قوة له لانه لم يعتبر الفضيلة ولا العفة وقال

ذات مرة ما هو الشرف والمجد لا تقي بمقدار ما تقدم في السن ارى
 بطلها وقال مرة اخرى انما انا تراب ورماد وامر على الارض
 كظل زائل مصحوباً بالشقاء وانكشاف البال . وتمني لو كان له
 نشاط قلتر عوضاً عن كل مواهب الطبيعة . وبما انه كان كثير
 التمني عدم الحزم انتضت حياته بغير نفع . وقد شبه نفسه مرة
 برجل ذي رجل واحدة واقربائه خال من الآداب . وبعد ان
 عاش سنين عديدة بالتعاسة والشقاء مات ميتة الذل والهوان
 اما حياة اغسطينوس ثيري مؤلف تاريخ الغلبة الترمندية
 فمعاكسة لحياة كستان على خط مستقيم لانها كانت مولفة من
 المواظبة والاجتهاد وثقيف الذات والمحرص على طلب الحكمة
 ومن شدة انصبايه على الدرس فقد بصره وصحة ولكنه لم يفقد محبة
 للعلم وماك ما قاله في آخر حياته " اذا عدت فوائد العلم من
 الفوائد الوطنية اكون قد صنعت لبلادي ما صنعت الجندي
 الداهي في حومة القتال . وآمل ان ابني مثلاً لغيري في هذا الامر
 مها كانت نتيجة انعابي مثلاً يمين على مقاومة الضعف الادبي
 الذي هو داء الجهل المحاضر ويرد الى جادة الحياة كثيرين من
 خائري القوي الذين يتشكون من عدم الثقة ولا يعملون ما يفعلون
 بل يلتمسون في كل مكان امراً بخرمونه وبعبدونه ولا يجدون .
 وعلى ما يقال ان بلاد الله ضيقة بسكانها وانه لا هوا بها يكفي
 لتنفس الجميع ولا اعمال تكفي للجميع أفليس فيها مدرسة هادئة

للدروس والتأمل أو ليس ذلك مجاً ميسوراً لكل انسان . هناك تنفسي ايام الشر ولا يشعر بها وهناك يمكن لكل انسان ان ينال غايته ويصرف حوائه . وهذا قد عملته ولو أبدتُ ثانية لعملته ايضاً ولا اختار إلا ما اوصلني الى ما انا عليه الآن . ومع اني اعني والآمي لا تنتفع اشهد ان في العالم شيئاً الذ من كل اللذات المحسبه واشرف من الغنى وافضل من الصحة وهو اتباع الحكمة“

ومن الذين يشبهون كستان كلردج الذي كان ذا مواهب سامية إلا انه ضعيف العزم . ومع كل مواهبه العقلية كان فاقداً موهبة الاجتهاد بل عدواً للعمل . وفضلاً عن ذلك كان فاقداً محبة الاستقلال فلم يستكف ان يترك امرأته واولاده على سؤذي الذي كان يشتغل بكل جهده لكي يعرفه واما هو فاعتزل مع تلامذته الى غابة هامي كات وكان يتطلع على الدخان الخارج من معامل لندن بكرة واحتقار للاعمال التجارية فيها . ثم تعاطى اعمالاً رفعت ثقالة عن غيره ولكنه تواطى الى امور كثيرة يانف منها احقر الناس مع ما كان عليه من سمو الحكمة . ولكم كان سؤذي مخالفاً له لانه صرف حياته في العمل والاجتهاد حتى في اعماله لا توافق ذوقه مالتاً عقله بكنوز الحكمة الثمينة وعاش بالسعة من شق قلبه الضيق

كتب روبرت نيكول لاحد اصحابه بعد ان قرأ ا. ا. م. الي كلردج يقول ياله من عقل ثاقب ضاع في هذا الانسان لاجل

احتياجه الى قليل من الاجهاد والحزم . اما نيكول هذا فبات
 يافعاً ولكنه كان ممن تعقد لهم الخناصر ويشار اليهم بالبنان ولم يميت
 حتى تغلب على كثير من مشاق الحياة . ولما كان يتعاطى بيع
 الكتب وجد مرة نفسه مديوناً بعشرين ليرا فكان يشعر كأن عنقه
 مطوق بحجر رحي كما شهد من فؤ وعزم انه بعد ان يفيها لا يستدين
 قط من مخلوق ونحو ذلك الوقت كتب الى امو يقول لا ينشغل
 بالك من نحوي ايها الام الحنونة لان همتي تزيد يوماً فيوماً واملي
 يقوى وكلما افكر واتامل ارى انني متقدم في الحكمة فلذلك
 لا يهمني صرت غنياً ام بقيت فقيراً . والتعب والفقر وغيرها من
 بلايا الحياة التي لا يستطاع عليها صبراً اقبالها بالصبر الجميل
 والانتكال على العناية . وهذه خطة تقتضي تبعاً جزياً للحصول
 عليها ولكن من نالها يمكنه ان يلتفت الى ما وراءه كسائح يتطلع
 على تيارات البحر الخضم وهو ماش على الارض اليابسة . ولا اقول
 اني بلغت هذه الدرجة ولكني اشعر في نفسي اني اخذ في الاقتراب
 منها

فالمناعب والمشاق تصير الناس رجالاً او كما قال ارسطو
 بالصبر على مضمض السياسة ينال شرف الرياسة . ولا منصب
 في هذه الحياة الا وهو مخوف بالمناعب حتى لا يرتقي اليها الا من
 تغلب عليها والمناعب تربى فوق تربية الاب كما ان الخطا يقود
 الى الصواب . كان من عادة نثرلس جس فكس ان يقول

ان رجائي في من لم ينبج في بادىء امره اقوى منه في من نجح .
 فالشاب الذي ينبج في اول خطاب بلفيو نقتاده حلاوة الظفر
 غالباً الى التهامل فلا يفلح واما من رجع بالخبية في خطابه الاول
 ثم استمر على ممارسة الخطابة ينبج نجاحاً ثابتاً أكيداً -

والناس يتعلمون الحكمة من الخيبة اكثر مما يتعلمونها من
 النجاح لانهم كثيراً ما يعرفون المفيد اذا عرفوا غير المفيد . ومن
 لا يغلط لا يتعلم . قيل ان الذي دعا غاليلو وطورشي وبوبل
 الى درس الهوائيات هو خيبة البعض في اصعاد الماء بالطلمبا
 فوق ثلاث وثلاثين قدماً . وقال يوحنا هنتران صناعة الجراحة
 لا تنتفدم حتى يشهر الجراحون الحوادث التي لم يصيبوا فيها كما
 يشهرون الحوادث التي اصابوا فيها . وقال وط ان اهم ما تمس
 اليه الحاجة في علم الهندسة العملية تاريخ اغلاط المهندسين .
 قيل اطلع السرهمري دائي مرة على امتحان فلسفي في عمله حذافة
 شديدة فقال احمد الله لاني لست حاذقاً في عمل الامتحانات
 ولاني توصلت الى اكثر اكتشافاتي بعدم نجاحي . وقال آخر من
 لم في العلوم الطبيعة اطول باع انه كان يكتشف اكتشافاً جديداً
 كلما عرضت امامه صعوبة في امتحاناته واعظم الاختراعات
 والاكتشافات كان مخنوقاً بالاحزان والمشقات

قال بنوقن ان في روسيني ما يكفي لجملة من افضل
 الموسيقيين لو ضرب في صغره ولكنه لم ينبج لانه لم يصادف شيئاً

من المصاعب . ولا يجفّ اولو العزم من مناقضة الغير لم وتنديده
 بهم كما يجب ان يخافوا من المدح في غير موقعه . بروى ابن
 مندلسن عند ما باشر تشخيص رواية ايليا قال لبعض اصحابه
 المتقدمين لا تشفق عليّ في الاتقاد ولا تخبرني بشيء استعسنته فيّ
 بل بكل ما لم تستعسنته . ويقال ان الانقلاب يفيد قواد الجيش
 اكثر من الغلب . فوشنطون مثلاً كانت الوقائع التي كُسر فيها
 اكثر من التي ظفر بها ولكنه نال الظفر التام اخيراً . وكل
 الحروب التي نجح فيها الرومانيون كانت بدايتها انقلاباً وقد شبه
 بعضهم القائد مورو بطبل لا يسمع صوته ما لم يضرب . والصعوبات
 الكثيرة الشديدة ربّت القائد العظيم ولتتوّن الذي لاقي منها اكثر
 مما لاقاه من اعلائه فتوت عزمه وعودته الثبات فصار من
 افضل القواد . وكل ربان ماهر في سفر البحر بلغ ما بلغ اليه في
 وسط الزواجع والعواصف التي علمته الشجاعة والاقدام . ولعل
 تقدم الملاحين الانكليز في سلك البحار حدث ما صادفوه فيها
 من المخاطر . قال الشاعر

تعطي التجارب حكمةً لجرّبِ حتى تربي فوق تربية الاب
 والحاجة قاسية صارمة ولكنها مفيدة جداً والمصائب والمحن
 بلايا شديدة نقشع منها الابدان خوفاً ولكن اذا اصابت الندب
 قابلها بالصبر الجميل

والحزم والتدبير روح العزم لاخير في عزمٍ بغير حزم

والحزم كل الحزم في المطاولة والصبر لاني سرعة الزاولة
وفي الخطوب تظهر الجواهر ما غلب الايام الا الصابر
ليس التي الا الذي ان طرفه خطب تلقاه بصبر وثقة
وخطوب الدهر وعناد الزمان مرة الملق ولكن تبيجتها
احلى من الضرب لانها تنبئ المرء وتحرك همة ومن كان فيه ذكاء
ظهر بالفرك كالنبات العطري فيقال المثل الخطوب سلام السماء
وقال الشاعر

تريد بن ادراك المعالي رخصة

ولا بد دون الشهد من ابر النخل

وقال بعضهم الفقر اشبه شيء بالالم الحاصل من ثقب اذن
فناة لتعليق حلقة من الجواهر الثمين . وكثيرون قاوموا المشقات
بشجاعة واحتملوا البلايا بالصبر الجميل ومع ذلك لما نجحوا لم يقتنعوا
ان يقاوموا الشرور الكثيرة التي صحبت نجاحهم . ومن تترع الريح
رداه عنه فهو فاقد العزيمة واما اذا كان ذا عزم معتدل
وانهت عينا من لمان اشعة الشمس فهو في خطر من فقده
ايضا . وعلى هذا نقول ان الغني يستدعي حكمة وافرة للتخفظ من
الشرور التي يودي اليها . نعم ان البعض يُحمد افعالهم عندما يحصلون
على سعة المعيشة ولكن الجانب الاكبر لا تنفعهم السعة قدر ما تضرهم
لان كثيرين يقلبهم الغني من البلاد الى الطيش ومن الذل الى
الكبرياء بخلاف الضيق فانه يربي اصحاب الحزم على الصبر والجملة .

قال برك "المصاعب معلم صارم اقامته لنا العناية الالهية بمحبة
 ابوية وهي تعرفنا اكثر مما نعرف نفوسنا ونحبنا ايضا اكثر مما نحب
 نفوسنا" وفعل البلايا فعل المصارع في تقوية اعضاء جسمه .
 ورخاء المعيشة اسهل من ضنكها ولكنه لا يربي رجالاته . قيل انه لما
 وشي يهدصن زوراً ففصل عن وظيفته في الهند قال لصديق له
 اني بالغ جهدي في مقابلة كل شر يصيبني بمساراة تضاهي جسارتي
 على مقابلتي العدو وفي اتمام واجباتي على احسن ما يمكني معتقداً
 انه لا بد من سبب لكل ما اصابني وان الواجبات الصعبة تنال
 جزاء حسناً اذا عملت حق العمل والأفلا تنال واجبات
 وحرب الحياة كثيراً نشب في مجرود صعوبة المسالك لا يغلب
 فيها إلا البطل الذي لا يبالي بافتحام المصاعب . واذا لم تكن
 صعوبات فلا نجاح لانه ان لم يكن شيء لا يقاوم فلا شيء يحصل .
 المصاعب توهم عزم الجبان ولكنها تزيد همة الشجاع . والاختبار
 يعلمنا ان كل الموانع التي تحول دون تقدم البشر لا تقدر ان تثبت
 امام الاستقامة والنشاط والهمة والمواظبة وخصوصاً امام من يعزم
 ويجزم على مناومة كل مصيبة تتل به

ومدرسة المصاعب احسن المدارس لتربية المبادئ
 الاديية . وتاريخ المصاعب عبارة عن تاريخ كل الامور العظيمة
 التي فعلها البشر . من ينكر كم استفادات القبائل الساكنة شمالي
 اوربا من محاربتها عناصر الطبيعة ومحل الاراضي الامر الذي

لا يعرفه سكان البلدان الحارة فلا يستفيدون منه. ومع ان افضل غلات بلادنا (البلاد الانكليزية) ما لا ينمو فيها اصلاً فالاجتهاد الذي بُذِل في انماها في هذه البلاد ربّي منا رجالاً لا يفوقهم احد من اهل العالم

وحينما وجدت المصاعب قوّت مقاومتها وزادت حنافتها ونشطت همتها على مقاومة ما يتل به من خطوب الدهر. وجبل الحياة صعب المرتقى ولكن من مرّن على ارتقاؤه ازدادت همتها فلا بالو جهداً حتى يبلغ قمتها. والاخبار يعلمنا انه ما من طريق للتغلب على المصاعب الا مصارعها الا ترى ان من خطف القراص يده وقبض عليه شديداً شعران ملهسه كالحربير. ولا يقوى على امر الا من اقتنع في داخله انه قادر على اتمامه وعانم عليه وكثيراً ما تفتش المصاعب من مجرد هذا العزم قبل الشروع في مقاومتها

وكثيرون يتوهون الصعوبة في هذا الامر او ذاك قبل ان يباشروه ولكنهم لو باشروه لوجدوه اسهل مما ظنوا كثيراً. واما التمني والترجي فلا ينفعان شيئاً ومباشرة امر واحد خير من الف لو ابيت واعل بل ان هذه الحروف مصدر اليأس واصل المستحيل وسبب الاهمال. قال اللورد لندهرست "الصعوبة امر يجب التغلب عليه" فيجب ان تصارعها حالما تظهر لك والسهولة نتيجة المزولة والقوة نتيجة الممارسة وبها يبلغ العنل والادب درجة من

الكمال لا يقدران يتصورها من لم يجنبرها بنفسه
وتعلم العلم نوع من التغلب على المصاعب . والتغلب على
صعوبة واحدة بقوي الانسان على غلبة غيرها وما لا تظهر منه
فائدة في بادىء الراي كدرس اللغات القديمة والرياضيات هو
كبير الفائدة بسبب فعله في العقل لا بسبب فائدته العملية . لان
درس هذه العلوم يوسع العقل ويزيد قوة الانصباب وبقية القوى
التي لولا الدرس لبقيت خاملة وكل امرٍ يقود الى آخر ولا
تنفسي مقاومة المصاعب ما لم تنفص الحياة . ولكن الخوض في
بالوعة اليأس لم يعن احداً على المصاعب ولن يعين . وما افضل
النصيحة التي نصح بها دلمبر طالب علم متشكياً من عدم نجاحه في
مبادئ الرياضيات بقوله . اجتهد تجد الثقة والقوة مقبلتين
عليك

والذين ياهبون على آلات الطرب لم يدروا الا بعد تعب
يفوق التصديق . قيل مدح بعضهم كريسبي على انقائه فن الغناء
وجريه فيه بسهولة فقال له انك لا تعلم بكم من الصعوبة حصلت
هذه السهولة . وقيل سئل السر يشوع رينلدس كم من الوقت
صرفت على تصوير هذه الصورة فقال حياتي كلها . قال هنري
كلابي الخطيب الاميركاني لبعض الشبان يصف سر براعه في
فن الخطابة اني انسب كل نجاحي الى الحادثة الآتية وهي انني
لما بلغت السابعة والعشرين شرعت اقرأ بعض الكتب التاريخية .

والعلمية واثلو مضمونها بصوت عالٍ في الحظائر والحقول
والغابات وليس لي من سامع سوى البهائم والطيور والحشرات
هذا هو سبب نجاحي الوحيد الذي له انا مديون لاجل براعتي
في هذا الفن ولجل الدرجة التي بلغتها

كان كران الخطيب الارلندي اولاً قليل الافصاح حتى
لقب وهو في المدرسة بالالكن . ولما كان يدرس الفقه ويجهد
على اصلاح منطقهِ حدثت حادثة اصلحهُ تماماً وذلك انه دخل
بعض الجامعات العلمية وجاء دوره للمناظرة فقام ولكن لم يمكنهُ التكلم
فقام خصمه ودعاه باسم الخطيب الاخرس فاثّر فيه هذا التهمك
فقام ودافع عن نفسه بكلام فصيح الى الغاية حتى اذهل الجمهور
المحاضر . ولما رأى من نفسه ذلك تقوى عزمه واستمر على درس
الفقه باكثر رغبة وكان يقرأ ابلغ الكتابات بصوت عالٍ ساعات
عديدة وكل ذلك لتصلح منطقهُ دارساً حركاتهِ على مرآة وكان
يفرض بعض المسائل وينظر فيها وحده امام المرأة وما زال
على مثل ذلك الى ان جاء خطيباً مصفعاً ثم دخل المحاكم محامياً
عن الدعاوي . وفي احد الايام قال للقاضي روبنصن اني لم ار
القنوي التي اقبلت فيها في كتاب من كتب الفقه فقال القاضي بتمك
لعل ذلك صحيح لان الكتب التي اطلمت عليها قليلة جداً . وكان
القاضي المذكور من رجال السياسة المتعصبين وقد ألف رسائل
مشحونة بالذف والتشنيع ولم يضع عليها اسمه فتهض كران والغضب

أخذ منه كل ما أخذ وقال له حفيق ايها المولى انني فقير الحال
ولذلك كتبت قليلة ولكن كلها نخب وقد تصفحتها ملياً وناهلت لهذا
المنصب السامي بدرس كتب قليلة معتبرة لا يتألف كتب كثيرة
قبيلة ولا انجل من فقري بل انجل من غناي اذا كنت احصاه
بالظلم والبطل . واذا لم ارتق الى مرتبة امراء الارض فسارتني
الى مرتبة اشرافها وانني ارى الغنى المكتسب بطرق محرمة يشهر
الانسان ولكن شهرة رديئة

ومها كان الفخر شديداً لا يعيق الانسان عن التقدم في
تثقيف عقله فان الاستاذ اسكندر مري اللغوي تعلم الكتابة
بالفهم . ولم يكن في بيت ابيه من الكتب سوى كتاب واحد ثمة
عشر بارات وهو مختصر اصول الايمان وكان اهله يحفظونه بكل
حرص ولا يسكونه الا من احدى الى احدى . والاستاذ مور لما كان
فتى لم يكن معه درهم لابتياح كتاب الاصول لنيوتن فسخه كله
بيده . وكثيرون من طلبة العلم المساكين المضطرين ان يعلموا كل
النهار لكي يحصلوا قوتهم كانوا يستغفون كل دقيقة يمكثهم استغنامها
لاجل الدرس ولم يكن لهم من مشجع ولا معز سوى الامل والثقة .
قص ولهم تشبهس الايد نبرجي سيرة تقدمو على فيئة من الشبان
في تلك المدينة فقال " انني اقف امامكم الان كرجل علم نفسه
لانني اتيت ابدنبرج وانا صغير وفي غايه المسكنة وكنت اعمل كل
النهار وجزءاً من الليل عند بائع كتب لتحصل قوتي الضروري

وامضي الساعات الاخيرة من الليل التي كنت اسرقها من النوم
 في تهذيب العقل الذي منحني اياه العناية الالهية . وانصببت
 بالاكثر على درس العلوم الطبيعية . وفي غضون ذلك درست
 اللغة الفرنسية وحدي . والان ألفتُ الى تلك الايام بلذة
 لا توصف واود لو كانت احوالي الآن متعسرة كما كانت حينئذٍ
 لانني وجدتُ لذة في حياتي لما كنت ادرس في تكنته ولم يكن معي
 شيء من الدراهم اكثر مما اجد الآن وانا في افخر القاعات
 وهناك قصة مفيدة جدا لطلبة العلم المحاطين بالمصاعب وهي
 قصة تعلم وليم كوبت النحو الانكليزي قال انني تعلمت النحو وانا
 جندي ومفعددي سربري ومائدني قطعة لوح وانتمت في اقل
 من سنة . ولم يكن لي من المال شيء لابتاع سراجا او شمعا ادرس
 في نوره ليلآ فكنت ادرس على نور النار عند ما تاتي نوبتي للقيام
 امامها . فاذا كنت قد بلغت مراحل وانا فقير ولا اب لي ولا
 صديق ولا منشط فا عذر غيري مها كان فقيرا متعبا متضايقا .
 وكنت التزم ان ابقى بلا اكل لكي اشترى قلما او قرطاسا ولم يكن
 دقيقة من الوقت يمكيني ان اقول انها لي وكنت اكتب بين
 قهقهة عشرات من الرجال الطائشين وصغيرهم وخصامهم . ولا
 تحفر الفلس الذي كنت ادفعه ثمن الحبر او الورق او القلم لان
 ذلك الفلس كان عندي بمثابة بكرة من المال عند غيري اذ لم
 ينفذ معي في الاسبوع غير غرش واحد . واذا ذكر الآن انه فاض

معي مرة قطعة بعشر بارات لا غير فحفظتها لكي اشترى بها طعاما
 اليوم التالي ولكن لما نزلت في المساء وكنت أكاد اموت
 جوعاً نظرت فاذا القطعة ضائعة ففطيت راسي بردائي واخذت
 ابي كالمثل . فان كنت انا قد تغلبت على ذلك المصنك
 المتديد ونجحت فهل بقي غير واحد من الشبان مها كانت احوال
 حياتي

وهناك حادثة تشبه هذه اصاب احد المهاجرين الفرنسيين .
 كنت حرقه هذا الرجل البناء وقد وجد عملاً يعمل به حالما اتى
 البلاد الانكليزية ولكن بعد قليل انتهى عمله ولم يجد عملاً آخر فاسى
 في حالة يرثى لها من العوز . وفي غضون ذلك زار احد اصحابه
 المهاجرين وكان يعلم اللغة الفرنسية واستشاره في الطريقة الممكنة
 لتحصيل معيشته فقال له رايي لك ان تصير معلماً . فقال اصير
 معلماً وانا بناء ولا اعرف غير البانوا (الفرنسية الركيكة) فخفا
 انك تترج فقال كلاً بل انكم معك كلام المجد ولا ارى لك سوى
 ان تصير معلماً فهم الي وانا اعلمك كيف تعلم الغير فقال البناء
 ان ذلك ضرب من الهال لانني كبير السن وخامل الذهن قال
 هذا ومضى في طريقه واخذ ينتش عن عمل ليعمل به فطاف
 اماكن عديدة ولم يجد عملاً فرجع الى لندن وانطلق الى صاحبه
 وقال له قد بذلت جهدي في التفتيش عن عمل فلم اجد والآن
 ساجهد ان اصير معلماً . ثم انعكف على الدرس وكان شديد

المواظبة سريع الادراك كثيرا الجلد فتعلم مبادئ الصرف والنحو
 والبيان في برهة قصيرة واصح لفظه حسب الاقتضاء وعند ما
 تعلم ما يكفي لهكون معلماً للغة الفرنسية صار استاذاً لهذه اللغة
 في احدى المدارس وكانت المدرسة التي صار فيها استاذاً في
 ضواحي لندن حيثما كان يعمل سابقاً في صناعة البناء وكانت
 كوة غرفته تطل على كوخ بناء يده فكان حالما يفتح عينيه صباحاً
 يقع نظره على هذا الكوخ فخاف ان يشتم امره فيلقي اللوم على
 المدرسة وهي ذات اعتبار في تلك الانحاء ولكن خوفاً لم يكن في
 محله لانه كان من افضل المعلمين وكثيراً ما اثني على تلامذته
 لاجل معرفتهم باللغة الفرنسية . وقد اعتبره الجمهور وباتي
 الاساتيد كثيراً ولا سيما حينما اخبرهم بقصته

والسر صموئيل روملي بن جوهرى من المهاجرين الفرنسيين
 ايضا . وقد تعلم قليلاً في حداثته ولكنه بلغ ما بلغ اليه باجتهاده
 وانصابه . قال في سيرة حياته عازمت وانا بين الخامسة عشرة
 والسادسة عشرة ان اتعلم اللغة اللاتينية ولم اكن اعرف منها شيئاً
 تقريباً الا انه لم يمض ثلاث سنوات او اربع حتى قرأت اكثر
 المؤلفات الفصيحة النثرية والشعرية مثل ليثي وسلست وتاشيتس
 وشيشرون واوميروس وتيرنس وقرجيل وهوراس واوقيد
 ويوفنال وقد تصفحت اكثرها مراراً عديدة . ودرس علا ذلك
 الجغرافيا والتاريخ الطبيعي والفلسفة الطبيعية . ولما بلغ السادسة

عشرة عين كاتباً فإظهر نشاطاً عظيماً حتى أنه ادخل الى المجلس
ثم صار مدعياً عموماً في مدة وزارة فكس سنة ١٨٠٦ . وقام
باعباء منصبه بكل نجاح . الأانه كان دائماً يتوهم انه غير اهل
لشيء وقد تعب من هذا الوهم تعباً عظيماً . وتاريخ حياته الذي
كتبه بيده يستحق ان يقرأه كل انسان يتعمن -

كان من عادة السرواثر سكت ان يقول ان في حياة
صديقي يوحنا ليدن مثلاً من اتم الامثلة على قوة المواظبة
الشديدة . اما يوحنا هذا فهو كغيره من الاسكتلنديين الذين
ارتقوا من رعاية الغنم الى اعلى المناصب باجتهدهم كهوخ الذي
تعلم الكتابة بتمثيل حروف كتاب مطبوع وهو يرعى القطعان
في البراري او ككرنس الذي ارتقى من رعاية الغنم الى منصب
استاذ في مدرسة كلية اوكمري وفرغوسن وغيرها من يضيق بنا
المقام عن استيفاء اسماهم . ولنرجع الى يوحنا ليدن فنقول انه
اظهر نعشاً شديداً للمعرفة وهو صغير فكان يمشي ثمانية اميال كل
يوم حافياً الى مدرسة صغيرة لكي يتعلم القراءة ثم توجه الى ادنبرج
وصار يتردد على مدرستها الكلية مع ما هو عليه من الفاقة
الشديدة . وكان يتردد على مبيع كتب لارخبيلد كستابل فيقيم
فيها ساعات عديدة واقفاً على سلم عال ويديه كتاب ضخيم يطالع
فيه . وما زال يقاوم الصعوبات بهمة تفوق التصديق حتى تغلب
عليها وازاحها من وجهه فانفتحت امامه ابواب المعرفة . وقبلها بلغ

التاسعة عشر حبر اساتيد الصبح بعزته في اليونانية واللاتينية
 وفي كثير من العلوم . ثم وجه افكاره نحو الهند وطلب منصباً
 سياسياً فلم يجد الا انه اخبر بإمكان صيرورته معاوناً للجراح ولم
 يكن يعرف شيئاً من علم الجراحة على الاطلاق غير انه كان قادراً
 ان يتعلم وكان عليه ان يتقن المنصب المذكور بعد ستة اشهر
 فاخذ في دوس هذا العلم الذي يقتضي ثلاث سنوات فتعلمه في
 ستة اشهر وانضم ونال الشهادة بالاكرام ثم توجه الى الهند بعد ان
 طبع قصيدته المشهورة المعروفة بمناظر الطفولية . فاظهر في الهند
 ما يدل على صيرورته من البارعين في اللغات الشرقية ولكن
 واقفة المنية ياغماً . ولا دافع من قضاء الله

وحياة الدكتور لي لستاذ العبرانية في مدرسة كمبردج من
 اعجب ما حدث في هذا العصر واقوى الامثلة على فعل الصبر
 والمواظبة والعزم . فانه تعلم مبادئ القراءة في مدرسة مجانية ولم
 يكن نجيباً على الاطلاق حتى قال معلمه انه اباد ولد رآه في
 حياته . فوضع صانماً عند نجار وعمل في التجارة حتى بلغ اشدّه .
 وعكف على القراءة ساعات الفراغ وكان يثار على بعض
 الاقتباسات اللاتينية فعزم ان يعرف معناها فاشترى غراماطيقاً
 لاتينياً وشرع يدرس اللاتينية . واذا تعلم الانسان اربعة
 وعشرين حرفاً امكنه ان يتعلم لغة كما قال ستون بستاني ديوك
 ارجيل . وكان لي يقوم باكراً وبنام متأخراً فانقن اللغة اللاتينية

في مدة قصيرة . وربما هو يعمل في بعض المعابد . عثر على نسخة
 من الانجيل باليونانية فتحركت فيه رغبة شديدة لتعلم هذه اللغة فباع
 بعض كتبه اللاتينية واشترى غيرها ملحقاً يونانياً وكتاباً في متن
 اللغة ولم يلبث طويلاً حتى اتقن اليونانية فباع كتبها واشترى
 كتباً عبرانية وتعلم تلك اللغة على غير اسناد غير طامع بالشهرة
 بل تلبها ميل طبيعي ثم اخذ يعلم الكلدانية والسريانية والسلمرية
 وحينئذٍ اثرت دروسه في صحته فاصابه مرض في عينيه من دبر
 الليل حتى اضطر ان يترك الدرس ريثما يملك صحته . وفي كل هذا
 الوقت كان أخذاً في حرفه ونجح فيها نجاحاً مكنه من ان يتزوج
 وهو في الثامنة والعشرين وحينئذٍ فرغ لتحصيل ما يقوم بهنفة
 عائله فترك الدرس وباع كل كتبه . ولولم يمتدق صندوق ادواته
 ليني نجاراً كل حياؤه الا انه احترق ولم يكن قادراً على اتباع
 ادوات اخرى فعزم ان يفتح مدرسة صغيرة لتعليم الصغار . ومع
 انه تعلم كثيراً من اللغات كانت قاصراً في اسط فروع العلم فلم
 يقدر ان يعلم في هذه المدرسة ولكن علوهتمو وشدة حزمه هونا عليه
 كل عسير فتعلم من الحسلب والكتابة ما يكفي لتعليم الاولاد
 وكان واطىء الجانب لين العريكة فيجذب اليه قلوب كثيرين
 من الذين يهنوا من معرفته باللغات . وكان له جار صديق
 يدعى الدكتور سكت فساعدته على ايجاد مركز في مدرسة
 شروري المجانية وعرفته برجل عالم باللغات الشرقية فندما له

كتباً فرجع الى الدرس وتعلم العربية والفارسية والهندية . ثم دخل مدرسة الملكة من كمبردج بمساعدة الدكتور سكت وبعد ان درس مدة واشتهر فيها بالرياضيات اخلي منصب استاذ العربية والبرانية في تلك المدرسة فنلدوه اياه فقام بعينو وكان يعلم اللغات الشرقية للبشرين المزمعين على الانطلاق الى الشرق وترجم التوراة الى كثير من لغات اسيا ثم تعلم لغة زيلندا الجديدة وصنف لما غراما طيقاً وكتاب لغة وها المعول عليها الآن في مدارس زيلندا الجديدة . هذه هي خلاصة ترجمة هذا الفاضل الذي هو واحد من كثيرين من المشاهير الذين تعلموا بالاجتهاد والمواظبة

ومها تقدم الانسان في السن لا يفوت وقت علمو ولنا على ذلك شواهد كثيرة فان السر هنري سبلن لم يباشر درس العلوم الا بين السنة الخمسين والستين من عمره . وفرنكلين الاميركاني كان ابن خمسين سنة لما شرع في درس الفلسفة الطبيعية ودريدن وسكت لم يظهرهما كمولفين حتى بلغ كل منهما الاربعين وبكاشو كان ابن خمس وثلاثين سنة لما شرع في دروسه العلمية والفيزي كان ابن ست واربعين سنة لما اخذ في درس اليونانية والدكتور ارندل تعلم الجرمانية بعد ان طعن في السن لكي يقرأ نبيهر في لغته الاصلية . وحس وط تعلم الفرنسية والجرمانية والابطالية وهو ابن اربعين سنة لكي يقرأ الكتب المولدة

فيها في الفلسفة الميكانيكية. وتوما سكت كان في السادسة والخمسين
 عند ما شرع يتعلم العبرانية. وورثت هل تعلم الايطالية وهو شيخ
 طاعن في السن ومكتنف بالاجوع لكي يرى صحة المقابلة التي
 عملها الشهير ماكولي بين ملنن الشاعر الانكليزي ودنتي الشاعر
 الايطالي. وهندل كان في الثامنة والاربعين قبلما اشهر شيئاً من
 كتبه الشهيرة. ويمكننا ان نذكر الوفا من الرجال الذين فتحوا
 لنفوسهم سيلاً جديداً بعد ان تقدموا في السن. وما من احد
 يقول انني كبرت عن العالم الا الجبان او الكسلان
 والآن نريد ما ذكرناه قبلاً وهو ان الرجال الذين غيروا
 هيئة العالم واحرزوا قصب السبق لم يكونوا من ذوي المواهب
 الفائقة بل من ذوي الحزم والاجتهاد وكثيرون من اذكيا
 العقول اشتهروا في صغرهم ولكن الاشتهار في الصغر لا يلزم عنه
 الاشتهار في الكبر بل اشتهوا الباكر علامة على المرض لانه ابن
 التلامذة النجباء الذين نالوا الجوائز واكتسبوا المديح فنش عنهم في
 العالم تران الذين كانوا ذويهم بدرجات عديدة قد سبقهم
 بمراحل. اما هم فكانوا اذكيا العقول سريعى المخاطر فنالوا
 الجوائز الحسنة مجازة لتجاحمهم ولكن كان يجب ان تعطى هذه الجوائز
 للمجتهدين الباذلين جهدهم وان لم تكن قواهم العقلية في درجة
 عالية. ويمكننا ان نكتب فصلاً كبيراً عن الاولاد البلاء الذين
 صاروا رجالاً افاضل الا ان المقام لا يسمح لنا الا بذكر بعضهم

فنقول ان بنودي كرتونا المصور كان معسوقاً من ابناء الاولاد
 حتى لقب براس الحمار . وتوما سو كويدي لقب توما الثقيل ولكنه
 ارتقى باجتهاده في ما بعد الى اسمي المراتب . ونوتون لما كان في
 المدرسة كان آخر اولاد صفه ما عدا واحداً وحدث يوماً ان الصبي
 الذي فوقه في الصف رفضه برجله فخاصمه نوتون ثم عزم ان يغلبه
 بالدرس فانصب بكليته على دروسه ولم يقض عليه مدة طويلة
 حتى ارتقى الى راس الصف . واكثر لاهوتيينا لم يكونوا اذكياء في
 صغرهم فان اسمي برو كان مشهوراً بشراسة الاخلاق ومحبة التراع
 وكان يضرب النمل بكسبه حتى ان اباه قال مراراً كثيرة اذا
 شامت للعناية الالهية ان تاخذ ولدنا من اولادني فاحب ان تاخذ
 اسمي الذي لا يرجي منه نفع . وادم كلرك نعمة ابوه ابله . ويدين
 سوفت طرد من مدرسة دبلن الكلية والدكتور تشلرس الشهير
 والدكتور كك طردها معلمها زليماً انها ابهان لا يقبلان الاصلاح
 قط . وشريدن الشهير لم يكن نجيباً في صغره حتى ان امه لما
 اخذته الى المكتب قالت لمعلمي ما قد اتيتك بهذا الابله الاعفك .
 والسر ولتر سكت كان ابله احق محباً للنضام حتى ان الاسعاذ
 دلزل قال انه ابله وسيفي ابله كل حياتي . وتشرتن طرد من المدرسة
 كاحق لا يرجي منه نفع . وبرنس كان بليداً لا يفتح الآ للعب .
 قال كلدسميث عن نفسه انه نبتة ازهرت متأخراً . والفيري خرج
 من المدرسة جاهلاً كما كان عند ما دخلها ولم يتدي في دروسه

التي اشتهر بها الأبعدان طاف نصف اوربا هرباً. وروبرت كليف
 كان مشهوراً بالشفاف والكسل. فارسله والداه الى المند لكي
 يتخصص منه ولكن هو الذي وضع اساس السلطة الانكليزية
 في المند. ونيولون وولتن كان كل منهما بليداً في صفوه واولها
 لم يشتهر بشيء في المدرسة سوى مجودة صحوه. والجنرال كرنيت
 رئيس الولايات المتحدة الاميركانية لفته امه هوليس اي عدم النفع
 لهلادنو وبلهو. وستنول جكسن القائد الشهير اشتهر ببلادنو
 وهو صغير وكان آخر ولد في صفوه وهو سبعون تلميذاً ولكن لما انتهى
 دروسه في المدرسة لم يكن فوقه سوى ستة عشر منهم والبقية دونه.
 وقيل انه ولو طال وقت المدرسة ست سنوات اخرى لخرج هو
 راس صفوه. ويوحنا هورد الشهير كان ابه ايضاً ومع انه اقام سبع
 سنوات في المدرسة لم يعلم شيئاً. وستفنصن لم يشتهر وهو في المدرسة
 الا بالمصارعة. والسرهفري دافي لم يكن انجب من غيره من
 التلامذة. ووط كان بليداً الا انه كثير الانصباب وذلك قدره
 على اتمام الآلة البخارية. ويمكننا ان نقول عن الصغار كما قال
 الدكتور ارتلد عن الكبار ان الفرق المعتبر بينهم ليس في جودة
 العقل بل في الاجتهاد لان البليد المجهد خبير من الذكي الكسلان.
 ومن الغريب ان بعض النجباء الاذكياء العقول لا ينجحون في العالم
 بخلاف البلاه فانهم اذا كانوا شديدي الاجتهاد والانصباب
 نجحوا دائماً. وانا (المولف) لما كنت حدثاً كان معي في صفي تلميذ

بليد خامل الذهن حتى ان كل المعلمين اعبوا ولم يقدروا ان
 يجعلوه يستفيد شيئاً فيشوا منه وتركوه بعد ان استشهدوا كل
 واسطة لتغريك ذهنه الخامل. ولكن مع بلادته كان فيه شيء من
 العزم الذي نما بنوره. فلما دخل في مهام العالم فاق كثيرين من
 ابناء صفه وآخر مرة سمعت عنه كان راس حكام بلاده

السلفاة المشهورة ببطية الحركة اذا سارت في طريق قوم
 سبقت النارس السائر في طريق معوج. فلا خوف على ولد بطية
 الفهم اذا كان مجتهداً على ان الذكاء قد يكون مضراً لان من تعلم
 سريعاً نسي سريعاً. هذا فضلاً عن ان الذكي لا يرى لزوماً
 للاجتهاد والمواظبة اللذين يرى البليد لزوماً له ويمارسها ولا
 يخفى انها اصل لكل نجاح

والخلاصة ان التهذيب لا يتوقف على المدارس والمعلمين
 كما يتوقف على الاجتهاد بعد الدخول في العالم لذلك لا يلىق
 بالآباء ان يخافوا من تاخر بنينهم وهم في المدارس ولا يجب ان
 ينتظروا منهم نجاحاً سريعاً بل عليهم ان يكونوا صبورين منتظرين
 فعل القدوة الحسنة والتربية الصحيحة فيهم وتاركين ما بقي الى
 العناية الالهية وبحرصوا على صحة اولادهم وتدريبهم في جادة
 التهذيب الذاتي مرين فهم روح الانصباب والمواظبة فينجحون
 اذا كانوا اهلاً للنجاح ولو بعد ان يتقدموا في السن

الفصل الثاني عشر

في القدوة

قال جون سترلن ما هو افئنه
 نرانا وطيف الاقربين يزورنا
 جيوشا الى كسب الفغار تسابقوا
 واملاكهم ترزادهم ان يسارعوا
 وقال جورج البيوت. اولادنا يموتون وافعالنا نجما وحياتهم خالدة في
 نفوسنا وفي كل العالم
 وقال توما الملسوري . لا عمل من اعمال الانسان الا وهو بداية
 سلسلة من النتائج تنصر عن ادراك نهايتها المحكمة الانسانية

القدوة معلم من افدر المعلمين مع انها تعلم بلالسان . وهي
 مدرسة البشر العملية . وعلم العمل افعل من علم القول والارشاد
 بري الطريق ولكن القدوة البكاء تسير فيه . النصيحة ثمينة ولكنها
 لانفيد كثيرا ما لم توافقها سيرة الناصح وخير النصيح ما كان افعل
 كما افعل لا كما اقول ! . وكل الناس ماثلون طبعا الى ان يتعلموا

بعبونهم اكثر مما باذانهم . والمرئي بوثر اكثر من المنرو والمسموع .
 ويصدق هذا القول بنوع خاص على الاحداث لان عبونهم
 الباب الوحيد لدخول المعرفة . فما يروونه يقندون به وان عن
 غير قصد لذلك تراهم يمثلون بالذبيح حولم كما ان الحشرات
 الصغيرة تلتون بلون النباتات التي تقتات منها . واذا كان الامر
 كما ذكرنا فلا شيء افعل من التربية اليتيمية لانه ما كان تاثير
 المدارس قويا يفتي تاثير البيوت اقوى وعليه تتوقف صفات
 رجالنا ونسائنا . البيت كجرثومة الهيئة الاجتماعية واصل الصفات
 الاهلية ومن هذا ينبوع تنبثق الآداب والاخلاق المتسلطة على
 الخاصة والعامة . وصفاء الدنيا وكدرها يتوقفان على صفاء البيت
 وكدره . والهجبة العائلية مصدر الهجة للوطنية ومن هذه المناداة
 الصغيرة تنشعب دوائر كبيرة تم العالم اجمع . وبما ان القدوة
 تؤثر في حياة الناس تاثيراً بليغاً بهذا المقدار وتعظمهم على الصلاح
 او الطلاح لذلك هي مهمة جداً حتى في الامور الطفيفة . فان
 صفات الوالدين تظهر في اولادهم . واقعالهم المختلفة التي يمارسونها
 يومياً كالهجة والاجتهاد وانكار الذات وحسن السياسة تحيا في
 اولادهم بعد ان يكونوا قد نسوا تعاليمهم التي سمعوها منهم باذانهم
 من زمان طويل . ونظرة واحدة من الاب قد تبقى ماثرة في الولد
 مدى الحياة . وكثيرون قد تجنبوا شروراً كثيرة لتلاهم بنوا اسم
 والديهم . وكل امرها كان طفيفاً بوثر تاثيراً بليغاً في اخلاق

البشر. قال وست المصوران قبلة واحدة من ابي جعلني مصوراً.
وعلى هذه الامور الطيفة لتوقف سعادة الصغار عند ما يصبون
رجالاً. كتب غول بكستن لأمو بعد ان ارتقى منصباً عالياً يقول "انتي
اشعر على اللسوام بنتائج المبادئ التي غرستها في عيني". وكان
بكستن هذا يقر بفضل رجل ابي يسمى ابراهيم بلاستو وكان هذا
الرجل من الحكمة والاستقامة على جانب عظيم حتى شبه بكستن
كلامه بخطب سنيكا وشيشرون. لما التفت اللورد لنديل الى
قدوة أمو الصالحة قال اذا وضع العالم بأسره في كفة الميزان
الواحدة وامي في الكفة الاخرى رجحت عليه رجوحاً بليغاً. كانت
احدى السيدات تذكر في شيوخها ما كان لامها من الهيبة في
قلوب معارفها قالت انها لم تدخل بيتاً الا طهرت هواؤه وجعلت
حديث اهلها جليلاً قويمًا وما ذلك الا لاستقامتها التي جعلت لها
هذا التأثير في قلوب الجميع

ومن الامور المهمة بل المرعبة جداً ان كل عمل يعمله الانسان
وكل كلمة ينقوه بها هي اساس نتائج عديدة لا يعرف نهايتها الا الله
وحده ولكن منها تأثير في حياتنا وحيات غيرنا. فكل عمل صالحاً
كان او طالحاً يجي ويثمر وان لم نر ثمره بعموننا. وارواح البشر
لا تموت ولكنها تبقى حية وتجول بين الاحياء. ولقد اصاب مستر
دزرائيلي الذي قال في مجلس العامة عند وفاة رنشر دكبدن ان
هذا الرجل من الرجال الذين وان غابوا عنا لا يزالون بيننا

اعضاء في هذا المجلس

وفي حياة الانسان شيء من الخلود حتى في هذا العالم لانه ليس فرد من افراد البشر الا وهو عضو من اعضاء جسد العائلة البشرية يعمل لزيادة خيرها او ضيرها . وكان الحاضر متصل بالماضي وحياة آبائنا لاتزال تفعل بنا فكذلك نحن سنفعل بالاجيال الآتية بسيرتنا وافعالنا اليومية . وما الانسان سوى ثمرة انضجتها القرون السالفة واوصلتها الى حالتها الحاضرة والجبل الحاضر ذات هذا الفعل في الاجيال التالية وهكذا سيرتبط الماضي الدابر بالمستقبل البعيد . وافعال البشر لا تموت وان ماتت اجسادهم وصارت هباء منثوراً بل تنجا الى الابد وتفعل بحياة الاجيال العتيدة وتثمر اثماراً من نوعها ان خيراً فخير وان شراً فشر . وقد اظهر ذلك مستر بيادج بعبارات بليغة لابس من ابرادها هنا قال "ان كل ذرة تتحرك بالحركة التي حركها بها الحكماء الفلاسفة حتى ان الهواء نفسه يشبه كتاباً كبيراً كتب على صفحاته كل ما تفوه به بنو البشر كل ما قالوه ولم يفعلوه ووعدوا به ولم يفوه فهو شاهد ازلي على تقلب ارادة الانسان . ولكن اذا كان الهواء شاهداً على اقوالنا فالارض والبحار والهواء شهود ابدية على افعالنا . وكما وضع الله التدبير على جبهة الفاتل الاول علامة ظاهرة لجرموه سن شرائع تلزم كل مذنب ان يقر بذنبه لان كل ذرة من جسده المائت مهما تغير نوعها ووضعها لاتزال تتحرك

بالمحركة الاولى التي ارتكب بها ذلك الذنب . لذلك كل فعل
 نفعله وكل كلمة نقولها بل كل عمل نراه وكل قول نسمعه يفعل
 بحياتنا فعلاً مستمراً ويمتد فعلة الى الجنس البشري اجماعاً . ولا تقدر
 ان تتبع هذا الفعل بفرعاه المختلفتين بين اولادنا واصحابنا ورفاقنا
 لكن لا بد من انه يتصل اليهم ويدوم امتدادهُ مدى الايام . من
 هنا نرى اهمية القدوة الحسنة التي هي مهذب اخرس كما قلنا سابقاً
 ويقدر عليها اقدر الناس واحقرهم . ومهما كان الانسان حقيراً
 لا يزال مديوناً لغيره بهذا النوع من التعليم ولا يستغنى عن تعليمه
 مهما كان حاله دينياً لان المنارة الموضوعية على راس جبل نير مثل
 الموضوعية على سفوحه . والرجل الحقيقي يرى في كل ابن وان في
 اكواخ المزارع وقصور المدائن . ومن يحرث قطعة ارض تقاس
 بالشبر يمكنه ان يكون قدوة لغيره في الامانة والاجتهاد كما
 يملك الالف . واحقر الحوانيت يمكن ان يكون مدرسة للاجتهاد
 والادب او هدة للشر والجهل . وكل شيء يتعلق على الانسان
 واستعماله الفرص التي يوجد لها لنفسه

ومن ترك لاولاده ولاهل العالم سيرة حسنة وقدوة صالحة
 فقد ترك لهم ارثاً فاضلاً يرد عنهم عن الشر ويحرضهم على الخير
 ويغنيهم ادبياً ومادياً . وحبنا من بقدران يقول كما قال بوب
 للورد هرفي حسي فخراً اني لا اخجل بوالدي ولم يخجلاني . ولا يكفينا
 ان نقول للناس اعلموا كذا وكذا بل علينا ان نعمل امامهم . وما

احسن ما قالته احدى السيدات وهو اذا اردنا فعل شيء فعلينا
 ان نشرع فيه بيدنا . والكلام وحده لا يكفي فان كثيرين يحسون
 غيرهم على فعل هذا العمل وذلك ولكن كلامهم لا ينعج شيئاً ما لم
 يعزوه بفعلهم ولو كانوا من ذوي البلاغة والحجة

ان قلت وبيحك فافعل ايها الرجل فكم رجال لنا قالوا وما فعلوا
 واصحاب الهمة والبروة وان كانوا من احقر المراتب بقدر
 اذا كانوا فعالين ان يحركوا الناس للفعل . فلو قام توما ريبط
 ونبوأ كل منبر وخطب في اصلاح شان المجرمين ولو قام يوحنا
 بوندس وملاً جرائد البلاد من المحث على انشاء المدارس
 للمنقطعين ولم يفعل شيئاً ما استفادوا شيئاً ولكنهم لم يتكلموا بشيء بل
 شرعوا في عملها بايديها فنجحوا وحركوا غيرة الناس للاقتداء بها .
 وماك ما قاله الدكتور كزري الواعظ المفلح الذي يدعي رسول
 مدارس المنقطعين قال ان رغبتي الشديدة في هذا العمل العظيم
 تربي كيف ان العناية الالهية تجعل الامور الطيبة تؤثر في حياة
 البشر ومقاصدهم لا تنفي انتبهت الى وجوب انشاء المدارس
 للمنقطعين من نظري الى صورة في برج قديم . فاتي دخلت هذا
 المكان فوجدت فيه غرفة فيها كثير من الصور وبينها صورة
 شخص حانوت اسكاف والاسكاف جالس وهو يباثه على انفه
 وبين ركبتيه حذاء عتيق . وعلى وجهه امارات الهمة والوقار وعلى
 الهمة وعيناه شاخصتان الى جم من الصبيان والبنات جالسين

امامة بشباب اخلاق وكتبهم في ايديهم ثم التفت واذا بجانب
 الصورة كتابة يقول فيها هذا هو يوحنا بوندس الاسكاف من
 بورنسموث وقد اخذته الشفقة على الاولاد المنقطعين المتروكين
 من القسوس والحكام والاسياد والسيدات لكي يطوفوا الازقة
 في حالة برثي لما فجعهم مثل راعٍ صالح وعلهم وهدهم لاجل
 خيرهم ومجد الله فامتثل من وهداة الملاك ما ينيف عن خمس مئة
 ولد وهو يحصل خبزه بعرق جبينه. فعند ما قرأت هذا الكلام
 نجلت من نفسي والتفت الى رفيقي وقلت له حقاً ان هذا الرجل
 فخر للبلاد ويجب ان يقام له نصب من ارفع الانصاب التي اقيمت
 في البلاد الانكليزية. ثم راجعت تاريخ حياته فראيت ان قلبه كان
 مملوءاً من روح فلذ الذي تخنن على الجموع. وكان حكماً بارعاً
 في اجتناب الناس يطوف في الشوارع يستدعي الاولاد المنبوذين
 لياتوا الى مدرستهم ولم يكن يقتصرهم الى ذلك بقوة الحكومة بل
 باطعامهم قليلاً من الطعام. واني لا اخال عطاء الارض واشرافها
 الذين اطبب الشعراء بدمهم واقبمت لهم الانصاب وقد وقفوا في
 ساعة الحساب الرهيبه وانقسموا الى شطرين لكي يجازي بينهم هذا
 الرجل الخامل الذكر وينال ثوابه من ذاك الذي قال بما انكم
 فعلتموه باحد هولاء الاصاغر فيي فعلتم

لا شيء يؤثر في الاخلاق مثل التدوة لان البشر ما تلون طبعاً
 لكي يفتدوا بن حولهم في العوائد والاخلاق والاراء وان لم يتصدوا

ذلك . نعم ان الانذارات المحسنة تفعل كثيراً ولكن القدوة المحسنة
تفعل أكثر لانها مهذب عامل . ومن ينذر بكلامه وهو فاسد
السيرة كمن يبيد ويهدم باخرى . اذلك كان اختيار الرفاق
من الناس الافاضل في سن الصبوة خصوصاً امرأ ضرورياً لان
في الشبان قوة خفية تجعلهم يتعلمون باخلاق رفقائهم والله در القائل
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي
وهذا الامر قد اوجب مستر ادجورث ان يقول اما رفة حسنة
واما الانفراد . وما احسن ما قاله المثل اسأل عن جارك قبل
دارك وعن رفيقك قبل طريقك . قبل كتب اللورد كلنود الى
صديق له من الشبان يقول الانفراد خير من مرافقة ادنياء القوم
فلا تصاحب الا من كان مثلك او اعلى منك لان الانسان
يعرف باصحابه . وقد آلى السر بطرس ليلي المصور على نفسه ان
لا ينظر الى صورة فاسدة بارادته خوفاً من ان يكتسب قلة منها
شيئاً يفسد ذوقه . وهكذا نقول ان من نظر الى شخص فاسد لا
يلبث ان يكتسب منه شيئاً يضر به . قال الحكيم المسائر الحكماء
بصبر حكيماً ورفيق الجهال يضر فعلى الشبان ان يعاشروا افاضل
القوم فيفتقدون بهم . قال فرنسيس هرر عما استفادة من معاشرته
رجالاً من الغلاء لا يسعني ان انكر انني استفدت منهم افادة
عقلية أكثر مما استفدت من كل الكتب التي تصفحتها في حياتي .
قيل ان اللورد شلبرن زار وهو فتى الفاضل ملشرب واستفاد

من هذه الزيارة فائدة عظيمة حتى انه قال فيما بعد انني قد جلت
 في بلدان كثيرة ولم استند من مخلوق بمقدار ما استندته من تذكري
 بمسوده ملشرب . وقول بكستون كان من اسرع الناس اقراراً
 بفضل عائلة كرفي عليه لانها ربت فيه كل صفاته الحميدة حتى
 ان نجاحه في حياته توقف بنوع خاص على الاخلاق التي اكتسبها
 مدة اقامته بين تلك العائلة

الاتصاق بالافاضل بورث الفضل كما ان السياح تنعطر
 ثيابهم من ارج النباتات التي يمشون بينها فان الذين يعرفون
 يوحنا سترلين مثلاً يقولون انه لم يجالس احد الا استفاد منه .
 وكثيرون مديونون له لانهم بواسطته اتبهاوا الى رفع شانهم . قال
 فيه مسر ترتش انه لمن المحال ان تقرب منه الا وتشعر ان
 افكارك قد ارتقت ارتقاءً عجبياً وهذا هو فعل القول العجيب
 بعضها ببعض . وبين الموسيقين والمصورين فعل وانفعال مثل
 هذا قيل ان هيدن سمع هندل يغني فاضطربت في فواده رغبة
 شديدة في الغناء . ولما كان نرنكوت فتى رأى المصور رينلدس في
 محفل فاخترق الجمع المزدحم الى ان وصل اليه ولس هدب
 ثوبه . قال انه لما فعل ذلك ارتاح قلبه

ومن ينكر ان قدوة الابطال تلقي في قلوب الجبناء شجاعة
 حتى ان الرجال المتوسطي القوة قد فعلوا العجائب لان قوادهم
 كانوا ابطالاً بسلامة . قيل ان زسكا اوصى بجلده ان يصنع طبلاً لكي

بحرك شجاعة البوهيميين . ولما مات اسكندر بك امير ايروس
 طلب الاتراك عظامه لكي يجعل كل منهم جزءاً منها هذا قلبه
 حتى يكون له شيء من شجاعته المشهورة . ولما كان البطل دگلس
 في اسبانيا رأى واحداً من فرسانه محاطاً بالمسلمين وقد سدوا عليه
 طرائقه فترع ذخيرة قلب بروس من عنقه وطرح بها في وسط
 العدو صارخاً حارب وانتصر حسب عادتك فسانحك او اوت
 قال هذا وهم الى حيث سقطت الذخيرة ولم يرتد حتى قُتل
 وفائدة ترجمات البشر ذكر الرجال الذين يحق ان يفتدي
 بهم فانا نرى فيها ابناء احياء في سير حياتهم وفي الاعمال التي
 عملوها نعم ولم يزلوا امامنا يمشوننا على المعروف وسويتهمونا عن المنكره
 ومن مات وترك مثلاً حسناً فقد ترك لنسله وغيرهم افضل تركه
 وسبق اثارها مدى الايام . فانفع الكتب كتاب يتضمن حياة رجل
 فاضل . وهناك كتاب اسمي من كل كتاب يتضمن حياة شخص
 افضل من كل شخص دخل هذا العالم وقدمونه افضل من كل
 قدوة وهي تناسب جميع الناس على اختلاف درجاتهم وبها يجب
 ان نفتدي واثرها يجب ان نفتني وان لم نر صاحبها ولم نساكنه
 كنهته لم تر شمس الضحى ابداً تستقبل النور ثم نفتني الانرا
 وقل من يقرأ سيرة بعض الرجال الافاضل مثل بكستن وارنلد
 الا ويشعر كأن حياة جديدة قد دخلت عقله وقلبه وكثيراً ما
 يحدث ان سيراً كهذه تنبه القوى الخاملة فينبه الانسان الى ذاته

ويرى ان فيه موهبة لبعض الامور وهو غير شاعرها كما حدث
 لكرجيو لما قرأ مولفات ميخائيل انجلو. وقد شهد السر صموئيل
 روملي في تاريخ حياته انه تأثر كثيراً بقراءة سيرة الفاضل داكسو
 للفرنساوي. وقد نسب فرنكلين شهرته ومنعمته الى قراءة مقالات
 كثر من مائير. وصموئيل دروبول انه درب حياته على لغوذج
 فرنكلين. فانظر كيف يتصل فعل القسوة الحسنه بالتسلسل
 ولا يمكننا ان نحكم اين تكون نهاية اذا كانت له نهاية لذلك علينا
 ان نختار الكتب الفضلى ونقتدي بالشيء الاحسن فيها كما انه
 علينا ان نختار المشراء الافضلين. قال للمورد ددلي لنتي مغرم
 بالاقصرار على الكتب المفيدة التي طالعتها وعرفت فائدها
 واشهد ان قراءة كتاب عميق ثمانية افضل من قراءة كتاب جديد
 لولاً وان لم تكن الذ

ويحدث احياناً ان ياخذ انسان كتاباً ما مجرد التسلية فيرى
 فيه سيرة تؤثر فيه تأثيراً بليغاً وتنبه فيه قوة كانت خاملة لان
 الفياري مال الى الانشاء بقراءة سير بلونارخ. ولوليلما كان في
 المجد انجرح في حصار ببلونا جرحاً بليغاً في رجله ونقل الى المستشفى
 فطلب كتاباً يتسلى به فرفع اليه كتاب حياة القديسين فتأثر تأثراً
 بليغاً من مطالعته حتى انه عزم من ذلك الوقت ان ينشئ طفلة
 دينية جديدة. ولوثر تحرك الى الاصلاح بقراءة سيرة بوحنا هس.
 والدكتور وانغ تحرك الى التبشير بقراءة حياة فرنسيس زفير.

ووليم كاري انبعث الى فوائده اول ميل الى التبشير بقراءة اسفار
 القبطان كوك. وكان من عادة فرنسيس هرنران بذكر في مفكرته
 ومكاتبه اسماء الكتب التي استفاد منها اكثر ما يكون ومن جملة
 ما ذكره ترجمة هيرل كندرست ومحاورات السر بوشيا رينلدس
 ومولفات باكون وسيرة السر متى هال لبرنت فهذه الكتب
 ولا سيما الاخير حركت نشاطه بل اضرمته غيرة واجتهادا ولقد
 قال عن ترجمة هيرل انني لا اقرأ سيرة اناس مثل هذا الا واشعر
 بنوع من خفقان القلب ولا اعلم الى اي شيء انسبه الى الانذال
 ام الى الطمع ام الى الياس. وقال عن محاورات السر يشوع رينلدس
 ما من كتاب بعد كتب باكون اقتادني الى تهذيب ذاتي مثل هذه
 المحاورات . واني اعد الرجل الذي يظهر للعالم كيفية البلوغ الى
 العظمة من احكم الناس . وهذا شان هذا المؤلف وهو يثبت ان
 البشر قادرون على عمل كل شيء يجهدون فيه اثباتا يضطر
 القاري الى الاعتراف بان الموهبة الفاتحة ليست هبة خاصة ببعض
 الناس بل ملكة مكتسبة والجميع قادرون على نوالها . ومن
 الغريب ان السر بوشيا نفسه تحركت فيه محبة التصوير بقراءته
 سيرة واحد من مشاهير المصورين لرتشردصن وكذلك تحركت
 محبة التصوير في هيدن بقراءته سيرة رينلدس هذا . فكانت سيرة
 الواحد شعلة لاصرام قوى الآخروبعثها في سبيل المجد . واذا دققنا
 النظر رأينا في العالم سلسلة غير منقطعة من الناس الذين تمثلوا

بن قلوبهم وكانوا مثالا لمن بعدهم .
 ومن الامثلة التي يمكننا ان نعرضها على الشبان ليقندوا بها
 مثال العامل المسرور بعمله لان السرور زيت النفس يسهل
 حركتها ويزيد لدونتها وبه تحلل المصاعب ويزداد الرجاء
 وتستغنى الفرص . والروح الحارة دائما مسرورة ونشيطة وتعمل
 اعمالها بسرور وتحرك الغير الى الاقتداء بها وترفع شان احقر
 المصالح . وافضل الاعمال وافعلها العمل الذي يعمله الانسان من
 قلبه ويعمله بسرور . كان من عادة هبوم ان يقول انه يفضل
 الطبع المائل الى السرور على عقار دخله عشرة الاف ليرة مع طبع
 مائل الى الغم . وكرنيل شرب كان يسلي نفسه في وسط اتعابو الشاقفة
 في امر تحرير العبيد باللعب على آلات الطرب والرسم . وفول
 بكسنن كان دائما جزلا وكان يشترك مع اولاده في اللعب وركوب
 الخيل . والدكتور ارلند كان يفرح بكل اعماله وكل ما عمله عمله
 بكل قلبه . قيل في ترجمته " ان اغرب ما كان في اللهاج حيث
 كان يعلم نشاطا من فيها وهمتهم حتى ان كل من دخلها رأى ان
 اولها عاملون عملا عظيما وكل تلميذ مشترك به وسعادته وراحته
 موقوفتان على اتمامه نصيبه منه . وكل من منهم مسرور سرورا
 لا يوصف لكونه عاملا عملا نافعا وقلبه مشغوف بعمله الذي عمله
 ان يعتبر الحياة والعمل المعين لها . واساس كل ذلك استفادة
 ارلند وحسن ارشاده واعنباره للعمل . ولم يصدر ذلك عن

هو ولا عن هول لعل دون آخربيل عن شعور هيق ثابت ان
 للعمل من واجبات الانسان وهو الغاية من قوته المختلفة والميدان
 الذي تتروخ فيه طبيعته وتترقى فيه نحو السماء

لم يتم في هذه الدنيا على ما نظن رجل افلدا املة وجبروتة
 بسيرة واجتهاد المزوج بالسرور اكثر من السر يوحنا سنكر
 كان لهذا للرجل املاك ممتعة في شمالي سكتلندا اتصلت اليه
 بالارث من ابيه الذي توفي قبلها بلغ يوحنا اشدّه .. ولما بلغ
 الثامنة عشرة اخذ يصلح املاكه بنشاط لم يسبته اليه احد
 فامتدت اصلاحاته حالاً في كل سكتلندا . وكانت الزراعة
 حينئذ في حالة يرثى لها لان الحقول كانت تُغمر بالمياه مدة طويلة .
 وكان الفلاحون في غاية المسكنة ولم يمكنهم ان يشتروا شيئاً من
 اللوازم بل كانت نساؤهم تحمل كل الاجال حتى ان من احتاج
 دابة كان يتزوج بامرأة . وكانت البلاد بدون طرق والابهار
 بدون قناطر والطريق الفضلى لكنتس في لحن جبل قائم
 يشرف على البحر والسلوك عليها جهولاً الى الغاية فعزم على فتح
 طريق اخرى من فوق اكمة بين شلت فازدري به اصحاب الاملاك
 وهسا ذلك محالاً ولكنه جمع نحو الف يوتي رجل واقلام الى
 هذا العمل العظيم بنفسه وقيل ان خيم الليل فتح طريقاً طولها ستة
 اميال تسير فيه للركبات بسهولة مع انه كان يتعسر سلوكه على
 المزي من قبل فاندهل منه الجميع وانقادوا الى رايه ثم تقدم في

فتح الطرق وإقامة الملاحن وبناء الفناطر على الأنهر وحسن
 حال الزراعة بزرع الأرض أنواعاً عديدة بالمعاقب وإعطائه
 الجوائز تشجيعاً للمجتهدين فأحيا الهيئة الاجتماعية في كل البلاد
 المجاورة له حتى صارت جنة يضرب بها المثل في الخصب وحسن
 الطرق. ولما كان منكر حدثاً كان البريد يحمل مرة في كل
 أسبوع ولكنه عزم على جعله يحمل كل يوم وفي أول الأمر لم يصدق
 أحد بإمكان ذلك حتى صار قولهم لما يرى السرجين البريد في
 ثرسو يوماً مثلاً يضربونه للاستفهام أو البعيد الوقوع ولكنه لم
 يمت حتى رأى البريد في ثرسو يوماً

ثم اتسع نطاق أعماله المفيدة لأنه لما رأى انخفاط الصرف
 الأناكيزي الذي هو فرع معبر من تجارة البلاد عزم أن يأخذ
 على نفسه إصلاح ذلك ولم يمض عليه إلا مدة قصيرة حتى أنشأ
 مجمع الصرف البريطاني وجلب ثمان مئة رأس غنم على نفقته من
 البلدان البعيدة وكانت النتيجة إدخال الجنس الشبوتي إلى
 سكتلندا وأول ما عرض هذا الأمر اسمزاً بو مربو المواشي زاعمين
 أنه لا يمكن للمواشي البلدان الجنوبية أن تنمو في الشمال ولكنه لم
 يبال بهم بل اصرَّ على اتنام ما قصده ولم يمض إلا سنون قليلة
 حتى صار في البلاد ما ينيف على ثلث مئة ألف رأس من الغنم
 الشبوتية فارتفعت أسعار الأراضي المحيطة للرعاية ارتفاعاً بليغاً.
 وأماكن كثيرة لم تكن تنفع شيئاً صارت ذات دخل وافر

ثم انتخب عضواً للبرلمنت لمقاطعة كنتس وبقي في هذه العضوية ثلاثين سنة فصارت له فرص كثيرة لاطهار فوائده . ولما رأى مستر بت الوزير مواظبة السر يوحنا واجتهاده في كل امر مفيد للجمهور دعاه وعرض عليه مساعدته في كل امر اراده فلو كان رجل غير السر يوحنا اطلب شيئاً له فيه نفع ولكنه اجابه على الفور انني اطلب مساعدتك في انشاء مجمع وطني للزراعة . ويروى ان ارثر بين تراهن مع السر يوحنا على ان هذا الامر لا يتم ابداً وهذا كلامه حرفياً "ان مجمع الزراعة الذي تحلم به سيكون في القمر" ولكن السر يوحنا اخذ في هذا الامر بهمة المعنادة فحرك ميل الجمهور واكثر اعضاء البرلمنت ولم ينك عن عزمه حتى انشأ هذا المجمع وانتخب له رئيساً وتناجى هذا المجمع وفوائده اوضح من ان تبين واكثر من ان تعد . ثم وجه اهتمامه ايضاً الى امر صيد الاسماك . ولما سمع ان فرنسا عازمة على الهمة على انككترا عرض على مستر بت تجهيز كتيبة من الجنود على نفقته ثم مضى الى الشمال ووجد نحو الف محارب تطوعاً وكانت هذه الكتيبة من افضل الجنود واستلم قيادتها وكان حينئذ مديراً لبنك اسكوتلاندا ورئيس لجمع الصوف البريطاني وحاكماً لوك ومديراً لجمع صيد السمك البريطاني وعضواً في مجلس القوائم الدولية وفي البرلمنت لمقاطعة كنتس ورئيساً لجمع الزراعة وفيما كان يشتغل في هذه الاشغال الكثيرة التي لا يقوم بها رجلان ولا ثلاثة وجد وقتاً لتأليف

كتب تكفي وحدها لتخليد اسمه . قال مستر رش سفير امبركا
 في لندن انه سأل مستر كك الملكهامي ما افضل كتاب في الزراعة
 فاجابه كتاب السر يوحنا سنكر ثم سال مستر فنسنت ما
 افضل كتاب في ماله الدولة الانكليزية فهده الى كتاب للسر
 يوحنا في هذا الموضوع . ولكن الكتاب الذي خلد ذكره اكثر
 من غيره هو كتابه في حالة سكوتلاندا السياسية والمالية في واحد
 وعشرين مجلداً وهو من افضل ما سمعت به فربحة انسان في كل
 ابن وان وقد قضى في تاليند ثمانى سنوات قرأ في غضونهما اكثر
 من عشرين الف مكتوب تخص موضوع هذا الكتاب . ولم
 يكن له منه فائدة شخصية قط سوى شرف الاسم لانه وهب دخلة
 لتهديب اولاد النسس الاسكتلنديين . ولقد نفع من طبع هذا
 الكتاب نتائج كثيرة حميدة منها الغاء بعض الامتيازات المضرة
 بصالح الجمهور ورفع اجرة النسس والمعلمين وترقية شان الزراعة .
 ثم قصد ان يباشر في عمل اعظم من هذا وهو جمع كتاب شبه
 الاول في احوال انكلترا السياسية والمالية فلم يوافقته رئيس اساقفة
 كنزبري مخافة ان يتعرض لاعشار النسس

ومن الامور الكثيرة التي نظهر علو همته ومضاء عزيمته الحادثة
 الانية . وهي انه في سنة ١٧٩٢ توقف دولاب الاعمال بواسطة
 الحرب فافلس كثير من تجار منشستر وكلاسكو واضحت بيوت
 كثيرة عظيمة على حافة الافلاس لقلته متنتياتها بل لانغلاق باب

التجارة والامانة فارناى السربوحننا في البرلمنت ان تخرج اوراق
دولية بقيمة خمسة ملايين ليرة وتدان للتجار الذين يقدرون ان
يقدموا كفالة فقيل هذا الراي وخول مع بعض الاعضاء الذين
انقهم بنفسو اتمام هذا العمل وكان الوقت حينئذ ليلاً وبما انه
خاف من تاجيل الامر قلم صباحاً ومضى الى الصبارفة واستفرض
منهم بكفالتو سبعين الف ليرة وارسلها في ذلك اليوم الى التجار
الذين هم في اكثر احتياج . ثم التقى مستر بيت الوزير بالسربوحننا
في المجلس واخذ يتأوه لانه لا يمكن ان تفرج منشستر وكلاسكو في
وقت قصير كما كان يظن زاعماً انه يلزم عدة ايلم لجميع الدراهم
الملازمة فاجابه السر بيوحننا ان الدراهم قد مضت من يومين ثم
فصّ عليه واقعة الحال فانذهل بهت كل الاندهال او كما قال
السربوحننا انه ارتعد كمن طعن في صدره . وما زال هذا الفاضل
آخذاً في اعماله واجتهاد وسرور الى آخر حياته صائراً مثلاً احسننا
لعائلته ولاهل بلاده بل شامة في رجبته بريطانيا . وقد احرز
خير نفسه وهو يطلب خير غيره لافي الثروة بل بما ناله من الفرح
وراحة الضمير والسلام للذي يفوق كل عمل وتم واجباته لوطنه
ولم ينس واجباته لاهل بيته . وبنوه وبناته ارتقوا في درجات
المجد . واعظم ما كان يفخر به عند ما تاهز الثمانين انه ربي سبعة
بنين وما منهم من استلن مالاً لا يقدر على ايفائه او احزن اباه
بعل شيء وكان يمكنه تحبته

الفصل الثالث عشر

في الادب

— ١٥٥ —

فالت جريدة النمس ان ما يرفع البلاد ويقويها ويعظمها ويمد سطوتها
المادية والادبية ويجعلها معتبرة مطاعة ويخضع تحتها امنها ومالكها هو الادب
مبدأ الطاعة واساس العظمة وتاج الرئاسة وعرش السلطنة وصولجان
القوة

— — —

الادب تاج الحياة ومجدها وافضل ما يملكه الانسان وهو
الشرف بالذات والمال بالاعتبار . هو الذي يرقى الامة ويرفع
شان جميع المناصب ويفعل اكثر من الثروة ويشرف اكثر من
الشهرة وامن تحت المخطر مثل الاولى ولا عرضة للمحمد مثل الثانية .
وتأثيره فعال لانه نتيجة الصدق والاستقامة والثبات والصفات التي
يعتبرها الجميع اكثر من اي صفة كانت . والادب هو الطبيعة
الانسانية في افضل معانيها واحسن مبانيها واهله روح الهية

الاجتماعية ومصدر قوّة الدولة المحسنة السياسة لان الصفات
الادبية هي المحاكمة على الكون . قال نبوليون ان نسبة فائدة القوى
الادبية في الحرب الى القوى الجسدية كنسبة عشرة الى واحد .
وقوّة الامم واجهادهم وتمدّهم تتوقف على ادب افرادهم . وما
الشرائع والاحكام سوى ظواهر الادب . وميزان الطبيعة العادل
لا يعطي للافراد والامم والشعوب الا ما يستحقونه فالحسن الادب
يجازى بالحسن والعكس بالعكس وتلك نتيجة ضرورية لا منفر
منها . الادب صفة نعصم من قامت به عمّا يشينه فان كان الانسان
قليل العلم والثروة ولكن اديباً كان له نفوذ في كل مكان في
الممل وفي المخزن وفي المكتب وفي الديوان . كتب كين سنة
١٨٢٠ يقول سبيلي الى القوّة انما هو في الادب ولست بسالك
سيلاً آخر واقرانه ايس السيل الاقرب وانما هو الاثبت . اننا
نفخر بذوي العقول الحاذقة ولكننا لا نتكل عليهم ما لم نرهم اداء
ولقد اصاب اللورد يوحنا رسل اذ قال ان من طبيعة الاحزاب
في لندن ان يستمعينوا بذوي العقول الحاذقة ويتبعوا ارشاد ذوي
الاداب المحسنة ولقد ظهر ذلك ظهوراً جلياً في حياة فرنسيس
هرنر الذي قال فيه سدي سمث ان الوصايا العشر كانت مطبوعة
على جبينه . وتوفي هرنر يافعاً في الثامنة والثلاثين ولكن كان
محبوباً وموثقاً من الجميع وما من احد الا وقد ناسف عليه ما عدا
الانزال ولم يتم البرلمان اكراماً لعضو وقت وفاته كما اقام لهذا

الرجل ما هو سبب ذلك أشرفه . كلاً . لان اباه كان تاجراً
متوسط الحال . أغناه . كلاً . لانه لم يُعرف عنه ولا عن واحد
من اقاربه انه فاض معه درهم واحد . أمناصبه . كلاً . لانه لم يكن له
الأمناصب واحد واقام فيه مدة قصيرة وكانت اجرة طينة .
أذكاؤه . كلاً . لانه لم يكن ذكياً بل حذوراً بطيئاً ولم يطعم الآ
بالاستقامة . أفصاحته . كلاً . لانه كان يتكلم بهدوء وسكينة ولم
يكن في كلامه شيء من الفصاحة التي تذهل السامعين . أسحر
مهانيه . كلاً . لانه كان كثير من الناس . فبماذا اذاً بعقله
واجتهاده وحسن مبادئه وصفاء قلبه الصفات التي يقدر على
كسبها كل انسان سليم العقل . فلم يرتق إلا بحسن آدابه ولم
تكن آدابه وضيعة فيه بل مكتسبة وهو الذي اكسبها لنفسه .
وكان في مجلس العامة اناس كثيرون اجود منه عقلاً واكثر
فصاحة ولكن ما من احد منهم فاقه في الجمع بين مقدار كافي من
جودة العقل والفصاحة مع الآداب وقد ولد هذا الرجل لكي
يظهر مقدار ما تفعله القوى المعتدلة وهي غير معززة إلا بالتهذيب
والاستقامة

وفرنيكلين الاميركاني نسب نجاحه الى حسن آدابه لا الى
قوى عقله ولا الى فصاحة لسانه وقال عن نفسه انني ركيت
العبارة متردد في اختيار الكلمات كثيرا الغلط اللغوي . ولكن
الادب يجعل من في المناصب العالية اهلاً لان يوثق بهم فانه

يقال عن اسكندر الاول امبراطور روسيا ان آدابه كانت بمثابة
نظام من الشرائع . وفي ايام حروب الفرند لم يبق احد من
اشراف فرنسا فاتحاً ابوابه الا متناهي ويقال ان آدابه الشخصية
كانت افضل لحمايته من كتيبة من الفرسان

والادب قوة ويصدق دليو هذا الوصف اكثر مما يصدق
على المعرفة . والذهن بلا قلب والعقل بلا سلوك والاجتهاد بلا
صلاح جميعها قوات ولكن كثيراً ما تكون قوات للشر وقد
نستفيد منها ولكن من يمدحها اذا كانت كذلك كمن يمدح
اللس على حذافته وقاطع الطريق على فروسته

والصدق والاستقامة والصلاح هي جوهر الادب ومن
اجتمعت فيه هذه المناقب واحوى ايضاً على قوة العزم كان ذا قوة
لا تناوم وقوي فيه فعل الخير ومقاومة الشر واحتمال البلايا
المختلفة والمصاعب المتنوعة بالصبر الجميل . بروي انه لما وقع
استفانوس الكولوني في يد اخصامه سالوه على سبيل التهمك ابن
حصنك المنيع فوضع يده على قلبه وقال " هنا " وافضل فرصة
لظهور الآداب ازمنة الضيق والشدائد فانها تظهر حينئذ بكل
بهايمها وثبت الانسان على كماله واستقامته حينما يخذله كل صاحب
وتفرغ يده من كل حيلة . وفي الخطوب تظهر الجواهر

وما يستحق ان ينقش على قلب كل شاب قواعد السلوك
التي جرى بموجبها اللورد ارسكن المشهور باستقامة السيرة وعلو

الكلبي لما قبلك المحمودة سميت ولذا من اولادي باسم عائلك .
 فاجابه شرب يقول " اطلب اليك ان تعلم ابنك قاعدة تجري
 بموجبها العائلة التي سميتها باسمها وهي اجتمه لكي تكون كما تريد ان
 تظهر . فقد اخبرني ابي ان اياه جرى بموجب هذه القاعدة فكان
 اساس اخلاقه الاخلاص والبساطة والاستقامة " وكل من يعتبر
 نفسه ويعتبر غيره يجري بموجب هذا القانون واضعاً شرف نفسه
 نصب عينيه غير مفتخر بشيء الا باستقامته ومروره لان من خالف
 علمه قوله خسر اعتبار الناس له والفي كلامه ولو كان حقاً محضاً
 والله درّ القائل

لانتنه عن خلقي وتاتي مثله عارٌ عليك اذا فعلت عظيم
 ومن طابت سيرته وحسنت سريره لم يجد عن سبيل الاستقامة
 لا سرا ولا علناً . قيل سئل ولد لم لم تاخذ شيئاً من ذلك الاجاص
 ولم يكن هناك احد ليراك فقال بلى كان . فقيل له ومن قال
 كنت انا هناك ولا ارغب في ان اراني ارتكب القبيح . هنا ما
 يدعي ضميراً او ذمّة وهو يحكم على آداب الانسان في الخوض على
 الخير والنهي عن الشر ويهتدي بتدرب الاخلاق يوماً فيوماً واذا خلا
 الانسان منه لم يكن لاخلاقه من مدرّب ولا حافظ بل استولى
 عليها الضعف وكانت تحت خطر الخضوع للتجارب . واذا خضعت
 لها ولو مرة واحدة صارت عرضة للخضوع لها دائماً وآل الامر الى
 انحطاط شأن صاحبها . ولا فرق اشهر امه لم يشهر لانه لا بد

من ان يشعر بنفسه بالذل واضطراب البال من تلقاء ما ندعو
بالضمير الذي هو اشد معذب للمذنبين

ثم ان الآداب متوقفة كثيراً على العوائد حتى قيل ان
الانسان حزمة من العوائد والعادة طبيعة ثانية. قال ميتسباسون
كل ما في الانسان ناتج من العادة حتى الفضيلة نفسها. وقال
بتلر كما ان عوائد الجسد تكتسب بالاعمال الخارجية كذلك
عوائد العقل تكتسب بالمقاصد الداخلية كالطاعة والصدق
والعدل والهمة اي باخراجها الى حيز الفعل. وقال اللورد بروم
كل شيء موكول الى العادة بعد الله تعالى. العادة تسهل كل
امر عسير وتذك الصعوبات ولو كانت جبالات. فمن تعود الصماء
كره السكر ومن تعود الحكمة والرصانة كره الجهل والطيش.
فعلى كل احد ان يسهر كل السهر لكيلا يدع عادة رديئة تغلب
عليه لانه ان انقلب ولو مرة واحدة صار عرضة للانقلاب دائماً.
ومن اعتاد امراً صار فيه ملكة وصار يفعلها بدون روية وعن غير
قصد ولم يعرف قوة العادة التي فيه حتى يضادها. وما فعل مرة
وثني صار فعله سهلاً ولا انتطاع عنه صعباً. والعادة في اولها
ضعيفة او هن من خيط العنكبوت ولكن متى تملكك في الانسان
قيدته بسلاسل حد يديه

واعتبار الذات والتعويل عليها والانصباب والاجتهاد
والاستقامة جميعها عادات. وما يدعو البعض مبادئ ليس الآ

عوائد. وكلما تقدم الانسان في السن تملكته العوائد ونزعت قسماً كبيراً من حريته بل قيدته بسلاسل صنعها لنفسه. فمها اطيننا في وجوب تربية الاولاد على العوائد المحسنة لانني الموضوع حفة لان الصبوة افضل سن لتربية العوائد فان العوائد الراضحة في الصغر كالحروف المنقوشة على جذع شجرة صغيرة تكبر وتوسع بنومها. قال الحكيم رب الولد في طريقه فمتى شاخ لا يجيد عنها. ومن البداية تعرف النهاية. قال اللورد كلنود لشاب بحجة لا تنس انك قبل ان تبلغ الخامسة والعشرين يجب ان تربي فيك آداباً تعتمد عليها كل حياتك. وبما ان العوائد نتمكن بالتقدم في السن بقصص تركها شيئاً فشيئاً. لذلك يقال ان البناء اعسر من الهدم. بروي ان مغنياً يونانياً كان اذا اناه تلميذ تعلم شيئاً من الغناء على استاذ غير باع طلب منه اجرة مضاعفة. ونزع العوائد المتمكنة اصعب من نزع الاسنة. فمن اعناد السكر مثلاً او الكسل او الاسراف لا يبرحى اصلاحه لان العادة تكون قد تمكنت منه وامتزجت فيه كل الامتزاج حتى لا يبرحى استئصالها لذلك قال مستر لنش ان افضل العوائد عادة التطبع على العوائد المحسنة والسرور نفسه قد يصير عادة لان لكل امرٍ طرفين مسر ومكدر ومن الناس من يعتاد النظر الى هذا ومنهم النظر الى ذاك. قال الدكتور جنسن ان من اعناد النظر الى الطرف المسر كان ذلك خبراً له من كسب الف ليرة سنوياً. وما من شيء الازم

من التطبيع على الآداب فإنه الزم من التثقيف في العلوم والفنون .
 ومهما كانت أفعال الإنسان طليفة فلا بد من أنها تظهر آدابه كما
 أن الثوب الصغيرة تكفي لإظهار شروق الشمس . وما الآداب
 سوى الأعمال المستقيمة ولو مهما كانت طليفة في حد ذاتها . وأفضل
 طريق لإظهار كونها محمودة أو مذمومة هو السلوك لأن من أحسن
 سلوكه مع المساوين له والأعلى والأدنى تمتع بسرور دائم وسر
 غيره معه . وكل إنسان قادر على تحسين سلوكه وإظهار
 اللطف ورقة الجانب وإن لم يملك فلساً . واللطف في المعاشرة
 فاعل خفي كالنور وهو واسطة لإظهار بهجة الطبيعة وإسرار الأبصار
 مثله ومن أقوى المؤثرات فلا يقوى شيء على مقاومته . وكمن
 القلوب المنكسرة قد انتعشت بنظرة واحدة من وجه بشوش

الآداب والأخلاق أهم من الشرائع لأن الشرائع لا تتبعنا دائماً
 وإما الآداب والأخلاق فمعنا في كل حين . والأخلاق الحميدة
 هي ذات السلوك الحسن لأن السلوك لغة تطهير العبد نفسه عن
 الأخلاق الذميمة مثل حب الدنيا وإجهاه إلى غير ذلك وإتصافه
 بالأخلاق الحميدة مثل العلم والحلم واللطف والكرم وما أشبهه .
 قالت السيدة متاكي رقة الجانب لا تكلف شيئاً وترجح كل شيء
 وقال برلي المالكة الإصابات امتلأ قلب رعاياك فتمتلكهم هم
 وإكياسهم . ولكن بشرط أن لا يكون في ذلك شيء من التصنع
 والفساد كله . ومن الناس من يتفخر بشراسته أخلاقه وقد يكون

من ذوي العلم والفضل ولكنه لا يطاق لان الانسان لا يجب من
 لا يمتدحه ولا من يتكلم كلاما لا يسره. ومنهم من يتنازل كل التنازل
 ولكن يصنع كلي وترأه لا يدع فرصة تظهر عظمتها الا ويستغفها .
 من ذلك ما يروى عن ابرني الجراح انه كان مرة يكتب اسماء
 الذين يرغبون في ان يكون طبيباً لمستشفى مار برنثاوس فاتي
 رجلاً غنياً لكي يكتب اسمه وحالما وصل الى حانوته لاقاه ذلك
 الغني بعجب وانفتار وقال له اظنك آتياً لتكتب اسمي لكي يمكنك
 ان ترتقي الى هذا المنصب السامي . وكان برني يكره التلويح
 والتمنين فقال له كلاً بل مرادي ان ابناءك كذا وكذا هم اعطني
 مطاوي ودعني اذهب في سبيلي

وحسن السلوك ضروري جداً للذين علمهم المعاطاة مع غيرهم
 على انه اذا بولغ فيه صار تصنعاً قبيحاً . والبشاشة والاقتراب من
 الناس ضروريان للنجاح ايضاً لان من كان فاقداً هاتين الصفتين
 لا يؤمل نجاحه كثيراً ولو كان مجتهداً اميناً لان اكثر الناس
 يحكمون على الظواهر اكثر مما يحكمون على البواطن . ومن اوجه
 اللطف اعتبار اراء الغير وعدم التنديد بها فانه ما من خلة اقبح من
 التصاف والاسْتِبْداد بالرأي والادعاء والتنديد بعيوب الناس
 ولولا هذه الصفات ما وقع شي من الجدال والخصام وطعن اللسان
 وما اجهل من استعمل لسانه آلة للطعن والتنديد
 فان لسان المرء ما لم تكن له حصاة على عوراته لدليل

والادب لا يقتصرون من البشر بل يمكن ان يتصف به
العامل القدير والامير الخطير. قيل ان روبرت برنس اتقى
بفلاح اديب فسلم عليه وكان برفقة برنس شريف اسكتلندي
فلامه على ذلك فالتفت اليه برنس وقال اني لم اعثر اللباس
بل الرجل الذي فيه فان هذا الرجل اثن مني ومنك ومن
عشرة مثلنا

كان ولیم وشارلس كرنس ابني فلاح فطاف الماء على
املاكها وسماكل شيء حتى تراب الارض التي كانا يعيشان منها فقاما
مع ايها واتجهبا نحو الجنوب في طلب الرزق وما زالوا في سيرهم
حتى وصلوا الى تلة بالقرب من بري في لكشبر تشرف على ما حولها
من البلاد القسيمة ولم يكونوا يعرفون الى اي جهة يتجهون لانهم
كانوا يجهلون تلك الارض فاطبق رايهم على ان يوقفوا عصا
ويتركوها لتسقط من نفسها فياخذوا الجهة التي تسقط نحوها
ففعلوا واخذوا الجهة التي دلهم عليها العصا فوصلوا الى قرية
رمسوثام ووجدوا عملاً في دار طباعة المنسوجات واشتهر ذاك
الاخوان بالاجتهاد والتزاه والاستقامة وسارا خطوة بعد اخرى
في سلم النجاح الى ان صارلها معامل كبيرة واستاجرا عملة كثيرين
يعلمون تحت يدها. وبعد سنين عديدة صارا باجتهادها وتديرها
وشهامتها غنيين مكرمين من كل من يعرفها وصارلها معامل في
النطن والطباعة فيها عدد وافر من الفعلة حتى اصبحت النواحي

التي نزل فيها غايه في الخصب وازدادت ثروة الاهالي وتحسنت
صحتهم . ولم تكن ثروتها سبباً لتربية الجمل فيها كما يحدث مراراً
كثيرة ولكنها ازداد سخاء وكرماً فاقاما كنائس واسسا مدارس
وفعلا اموراً كثيرة خيرية لرفع شأن الرتبة الدنيا من الناس لانها
لم ينسيا اصلها . ثم اقاما على راس القلعة التي تشرف على ولسلي حيثما
وقفا العصا برجا شاهقاً تذكاراً لتلك المحادثة وما زالوا يزدادان
شهرة وكرماً حتى صار يضرب بها المثل . وبيروي ان تاجراً
منشسترياً كتب رسالة طعن وقذف في حقها فأخبر احدها وليم
بذلك فقال ان الرجل سيندم على ما فعل فأخبر الكاتب بما
قالت وليم فقال له لعله يظن انني ساستدين منه ولكنني ما كنت
لافعل ذلك . ثم داردولاب الزمان وافلس ذلك الرجل
وسامت حاله ولما اراد ان يشرع في العمل ثانية كان عليه ان ياخذ
كفالة فيها ختم بيت كزنت فظهر له ان ذلك ضرب من
المحال ولكن ضيق الحال الجاهء الى ذلك فضى الى محل وليم كزنت
الذي هجاه بتلك الرسالة وعرض له واقعة الحال واعطاه ورقة
الكفالة لكي يضع ختمه عليها فاخذها وليم وقال له انك كتبت مرة
رسالة في هجاننا ثم ختم الكفالة وقال ان من قوانيننا ان لا نأبى
وضع ختمنا على كفالة لتاجر امين ولا نعرفك الا اميناً فعندها
اغرورقت عيننا الرجل بالدموع فقال له مستر كزنت ألا ترى
ان قولي انك ستندم على ما فعلت كان صحيحاً ولم افل ذلك على

سبيل التهديد بل عنت انك ستعرفنا يوماً ما كما نحن وحينئذ
ندم على قصدك الاضرار بنا فقال نعم نعم قد ندمت فقال
كرنت ان ذلك لانك عرفتنا ولكن كيف انت الآن فقال ان
لي اصحاباً وعدوني بالمساعدة عند ما احصل على الكفالة فقال
كرنت كيف اهلك في الوقت الحاضر فقال الرجل اني بعد ان
اعطيت جميع اموالي لاصحاب الديون التزمت ان احرم اهل
بيتي بعض الامور الضرورية لكي انال هذه الكفالة فقال كرنت
يا صاح لم نصب لانه لا يجب على امرأتك واولادك ان يتضايقوا
بسببك فالتمس اليك ان تاخذ هذه العشر اليرات مني الى
امرأتك فكفكف عبراتك وانكل على الله فستفخ فاجهد ذلك
المسكين لكي يظهر شكره ولكن انقطع صوته وخنفته العبرات فغطى
وجهه بيديه وخرج وهو يبكي كالطفل الصغير

والانسان الحقيقى منطبع على المحامد والآداب الحنيفية او
كما وصفه صاحب الزبور بانه يشب بالاستقامة ويفعل البر
ويتكلم الحق في قلبه . ويعتبر نفسه ويعتبر الآخريين ايضاً ويكون
وضيعاً رؤفاً حلماً . يحكى عن اللورد ادورد فترزجرلد انه بينما
كان مسافراً في كندا مع قوم من هنود اميركا رأى امرأة هندية
حاملة حملاً ثقيلاً من الحطب وزوجها ماشى فارغاً فآخذ الحمل
عنها وحمله على ظهره . فهذه هي الانسانية في افضل معانيها .
والانسان الحقيقى يقول المنايا ولا الدنيا وخير من ركوب

الخنار كوب الجنازة فلا يخنال ولا يجاول ولا يبروغ ولا يوارى ولا
 يكابر ولا يمارى ولكنه يسير دائماً بالاخلاص والاستقامة ان قال
 نعم او قال لا كان قوله حجة بل سنة . الانسان الحقني لا يرشى
 ولا يبيع نفسه بالمال كما يفعل الجهلة الاذنياء . يحكى عن ديوك
 ولتكون انه اناة يوماً وزير بلاد حيدرآباد بعد واقعة آساي لكي
 يستعلم منه عن المعاهدة التي جرت بين امراء مهرتا والتزام وقدم
 له مبلغاً من المال يفوق المئة الف ليرا . فالتفت اليه الديوك
 (وكان لم يزل ساراً) وقال اظنك تكتم السر فقال نعم فقال
 وانا كذلك وصرفته ولم يقبل منه بارة ولم يخبره حرفاً . هنا الشهامة
 وعزة النفس ومع ان ولتكون حارب حروباً كثيرة في الهند وظفر
 فيها كلها رجع الى انكلتر وايس معه شيء من المال . ومن قبيل
 ذلك ما يحكى عن نسبه مركيز ولسلي الذي رفض مئة الف ليرا
 قدمها له مديرو شركة الهند الشرقية عند غلبة ميزور وقال لم
 لا يقتضي ان اخبركم عن شيمتي وشهامتي وشرف مناصبي الامور
 التي تضطرنني الى رفض ما تعرضونه علي . ومن فعل كذلك
 السر نثرلس نبير لانه رفض كل الهدايا التي قدمها له امراء
 السند وكانت تنيف على الثلاثين الف ليرا

ولا علاقة للفني والشرف بالانسانية لانها في الفقراء كما في
 الاغنياء ولا يمكن ان يكون التقدير اذينا صادقاً مستقيماً انيساً نزهاً
 شجاعاً معتبراً لنفسه ومعتباً عليها بلى وهذه هي الانسانية بعينها .

وما الفقير فقير المال ولا الغني من يملك الالوف لانه قد يكون
الانسان فقيراً ويملك كل شيء وقد يملك كل شيء وليس له شيء
والاول برجو كل شيء ولا يخاف شيئاً والثاني يخاف كل شيء ولا
يرجو شيئاً . ومن خسر كل ماله وبقيت فيه مروتة وانسة وفضلة
واملة وشهامة لم يزل غنياً وكم من رجل فاضل وثيابة اخلاق
واسمه بين الناس مجهول . حكى انه طغى نهر عظيم في ايطاليا
خدم فنطرتة ما عدا جزءاً منها عليه بيت صغير يسكنه رجل
واولاده وكان لا بد من ان يهدم هذا ايضاً فيهلك ذلك المسكين
مع اولاده فوقف الكنت سبثرفني وقال انني اعطي مئة ليرا لمن
يخاطر بنفسه ويتخذ هذه العائلة التيمسة فتقدم فلاح من الجمهور
الحاضر وانزل قارباً الى النهر واقنم الخطر العظيم وبعد برهة
يسيرة رجع ومعه العائلة باسرها . فقال الكنت هلم ايها الشاب
الشجاع وخذ الدرهم فقال الشاب كلاً ما كنت لايح حياتي بدرهم
اعط مالك هذه العائلة المسكينة لانها في احتياج اليه . هنا المروءة
وعزة النفس هنا الانسانية وان تحت ثوب الفلاح

اثبت مستر ترنيل في كتابه عن النمسا حادثة عن
الامبراطور فرنسيس السابق قال فيها انه لما فشا الهوام الاصفر
في فيينا كان الامبراطور يجول في الاسواق والشوارع وليس معه
سوى رجل واحد فرأى مرة ميتاً متهولاً الى القبر ولم يكن معه احد
من النائحين فصال عن سبب ذلك فوجد ان الميت من الفقراء

وقد مات بالوباء فخاف أهله ان يرافقوه الى القبر فقال لنسر
 معه عوضاً عنهم لانني اكره ان ارى واحداً من رعييتي المحبوبة
 يدفن بدون ان يصادف العلامة الاخيرة من الاعتبار فذهب
 معه الى المدفن وكان المدفن بعيداً ووقف فوق قبره مكشوف
 الراس الى ان تم جنازته ودفنه حسب شعائر كنيسته. وما يقارب
 ذلك ما حكى عن اثنين من الفعلة الانكليز كانا في باريز فرأيا
 ذات يوم جنازة تحمل ولم يكن معها احد غير الحاملين وكان اليوم
 ممطراً فانذهلا من ذلك وقال احدهما للآخر هلم نذهب وراء
 هذا المسكين فتزعا برنيطتيهما ورافقا الميت الى المدفن ووقفا
 هناك الى ان ووري التراب

ومن صفات الانسانية ايضاً الصدق الذي هو اساس نجاح
 البشر. كتب ديوك ولتون الى كلر من عن الاسرى الانكليز
 يقول اذا كان شيء يفتخر به القواد الانكليز غير الشجاعة يكون
 الصدق فنق بكلامهم لانهم لا يكذبون ولا يخلفون الوعد
 ومن مقتضيات الانسانية ايضاً الحلم عند المقدرة. قيل ان
 جندياً فرنسائياً اخترط سيفه في واقعة البودن في اسبانيا وهم
 بضرب السرفلن هرقي ولكن لما رآه اقطع شفق عليه واحنى له
 سيفه حسماً يفعل الجند عند التسليم وسار في طريقه. ومن
 قيل ذلك ما حدث لتشرلس نبير في مدة تلك الحرب وهو انه
 اخذ اسيراً في كرونا بعد ان جرح جرحاً بليغاً. وكان اصحابه في

انكثرا لا يعلمون أمات ام بني حيا فارسلوا رسولا خاصا في سفينة
 حرية ليبحث عنه فوصل الرسول الى البارون كلوت فاخبر
 القائد ناي بذلك فقال له دع الاسير يري اصحابه واخبرهم اننا
 نعامله بالمحسنى فتاخر كلوت فقال ناي مالك فقال يقولون ان
 للاسير اما ارملة عمياء فقال ناي اذا كان الامر كذلك فليذهب
 ويخبرها بسلامته. ولم تكن مبادلة الاسرى جارية في ذلك الوقت.
 وكان ناي يخاف ان يتكدر نبوليون عند ما يسمع ذلك لكن
 نبوليون مدحه على شهامة

وفي هذه الازمنة امثلة كثيرة للمروءة وعزة النفس وكرم الاخلاق
 كما في الازمنة القديمة كما تشهد انجاد سبستوبول وسهول الهند فان
 مسيحينيل الى كندبور وهملوك الى لكدو لانقاذ النساء والاولاد من
 اعجب ما جاء التاريخ بذكره. وموت هنري لورنس البطل وقوله
 حال وفاته لا تحفظوا بموتي. وما عاناه السر كولن كميل وهو جالب
 النساء من لكدو الى كونبور ومن ثم الى الله اباد امور تضيق الصحف
 بذكرها ويحق للامة الانكليزية ان تباهي بها ام العالم. ولم يكن
 آحاد الجند اقل شهامة من قوادهم كما تشهد الوقائع التي حدثت
 في تلك البلاد ومعاملة الجرحى للنساء المرضيات لهم. ومن ذلك
 ايضا ما حدث في السابع والعشرين من شباط سنة ١٨٥٢ على
 شطوط افريقية عند انكسار السفينة المدعوة بركهد فانه كان
 في تلك السفينة ٤٧٢ رجلا و١٦٦ من النساء والاولاد وكان

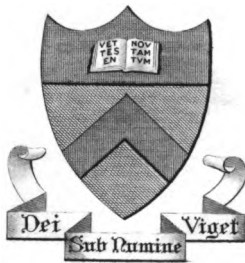
اكثر الرجال من الجنود الانكليزية الخادمة في راس الرجاء
 الصالح. فبعد نصف الليل بساعتين اذ كان الجميع نياماً لطمت
 السفينة بصخر مخفي فانفجر جوفها وكان لابد من غرقها فذهبت
 الجنود بصوت الطبول واصطفوا على ظهر السفينة وأمروا بان
 يخلصوا النساء والاولاد فانزلوا القوارب وانزلوا اليها النساء
 والاولاد واكثرهم بشباب النوم ثم بعد ان سارت القوارب قليلاً
 امر مدير السفينة ان كل القادرين على السباحة يرمون بنفوسهم
 الى البحر ويصعدون الى القوارب فاعترضه ريط قائلاً ان فعلوا
 هلكوا هم والقوارب فوقف الرجال في مكانهم ولم يبدوا حركة
 ولم يتذمروا قط بل ثبتوا في اماكنهم الى ان غرقت بهم السفينة
 وقبل ان غرقوا اطلقوا سلاحهم طلق الفرح . يا للشجاعة وكرم
 الاخلاق فانه وان مات هؤلاء الابطال لا يزال ذكرهم مخلداً
 الى الابد

وتوجد ادلة كثيرة يستدل بها على الانسان الحقيقي ولكن
 الدليل الاقوى كيفية استعماله سلطته على الذين هم دونه او على
 المتعلقين عايمه مثل معاملته للنساء والاولاد ومعاملة الفائتة لجنده
 والرئيس لخدمته والمعلم لتلامذته والمتسلط للمتسلط عليهم . فالعلم
 والحنو ورقة الجانب في احوال مثل هذه من الشروط اللازمة
 للانسانية واما من طغى وبغى على الذين هم دونه فهو نذل جبان
 والله درمن قال

واسعد العالم عند الله من ساعد الناس بفضل الجاه
 ومن اغاث البائس المهوفا اغاثه الله اذا اخنبا
 وان من شرائط العلو العطف في البس على العدو
 قد قضت العقول ان الشفقة على الصديق والعدو صدقه
 وقد علمت واللييب يعلم بالطبع لا برحم من لا برحم
 والغب داء ما له دواء ليس ملك معه بناء
 والبغي فاحذره وخيم المرتع والعجب فانركه شديد المصرع
 روى انه لما جرح السرفل ابركرمي في حرب ابي قير
 وحمل الى سفينة الغدريانت وضعت وسادة تحت راسه لاراحته
 فقال ما تحت راسي فقيل له وسادة فقال وسادة من فقيل له
 وسادة واحد من الرجال فقال اخبروني باسمه فقيل له وسادة
 دنكن روي من رجال السرفل فقال لم اعطوه اياها هذه
 الليلة. فانظر كيف ان هذا الجنرال وهو على حافة التبرشقي على
 واحد من رجاله ولم يرد ان يجرمه وسادة ليله واحدة. ومن
 قيل ذلك ما حكى عن سدني وهو محضرانة اعطى كاس الماء
 لواحد من جنده. وقد جمع فلر صفات الانسانية في كلامه عن
 السرفلسيس دراك بقوله انه كان غنيا عادلا صادقا شوقا
 على الذين دونه مبعضا للكسل لا يعتمد على غيره ولا يجزع من
 خطر ولا يستعني من عمل يستدعي بسالة وحذافة واجتهادا.

انتهى

Library of



Princeton University.
Theodore F. Sanxay Fund



32101 076413325